غيبوبة الخفّاش

رواية

حُسام حُسَيْن



دار دَوّن

غَيْبُوبَةُ الْخُفَّاش

الطبعة الأولى : يناير 2016
رقم الإيداع : 22113/ 2015
الترقيم الدولي : 978-977-6426-81-8
تصحيح لغوي : حسام حسين
تصميم الغلاف : عبد الرحمن الصواف

تليفون : 01020220053
E_mail: info@dardawen.com
www.dardawen.com

غَيْبُوبَةُ الْخُفَّاش

أما أنا فلي هذا الليل

رواية

حسام حسين

دَوِّن



دار دوِّن للنشر والتوزيع

إهداء

مازلت أنزف، كي أهب روح أمي بعضا من عرفان
فلها هذا، كي تبدأ الروح في التعافي

(١)

كنتُ كمن يتحدى صمته بالأماني، وحين أستدعي الذكري؛ تتحرك في مقلتي أقدام إسماعيل؛ تنفجر زمزم دموعي بشكل لم يكن جديدا في صحراء أيامي، الدموع جزء من تراثي، والماضي كل الذاكرة.. المستقبل وادٍ غير ذي زرع، (هاجر) حلمي الأثير لم تعد لي، بعد نحت سبيل السعي بين الصفا وأختها؛ لتسأل عني ولو لدقيقة.

أعود للبيت مع الصباح، الجو مُمل إلى درجة، ولكني لا أريد أن تقطع نومها؛ كي تفتح الباب. لا أعرف للآن.. لِم لا أحتفظ بمفتاح، يوفر هذه المعاناة؟

أتمتم في هذيان.. ومن يدريك أنها تنام؟

ليست أمك أيها المخبول، إن نامت، وأنت خارج فراشك؟

لم أشعر بضيق يضاهي ضيق هذه الأيام، الوقت يمضي بطيئا، وكل شيء في المدينة الكافرة، لا يغري بأي شيء، مازلنا في نفس الساقية، الملل، الطقس الخانق، والزحام المستفز، والناس في ثوب من هستريا، يتحركون في لا طريق، وبلا هدى.

لم يكن الأمر مرتبطا بفشل العلاقة مع زميلتي المتمردة. ربما أسأت فهم طموحها، لم تكن واقعية بما فيه الكفاية. تركض فوق الأشواك، دون أن تشعر بالألم، لها أهداف غير معلومة، أو مُحددة، لم تحبني بالدرجة الكافية، لأن أغفر لها هذا التطرف في الحلم. جميلة، لكن جمالها ليس بقدر موهبتها.

لا غضاضة.. في هذا الزمن، سينتصر الجمال على الموهبة. ستعبر إلى أي هدف، تستطيع إنتاج تنازلا فاصلا كي تصل، سيُفتح لها الباب الذي تريده، فمعظم من يمتلكون المفاتيح في هذه الطقس؛ مراهقون عتاة.

أتذكر الناقد الكبير الذي تحدثت إليه زميلتنا كاتبة القصة الموهوبة، كان صوتها إنذارا بأنثى مستحيلة، يومها استثمرنا إعجابه بقصتها التي نشرتها بإحدى المجلات. وإشارته لها في عموده الصحفي.

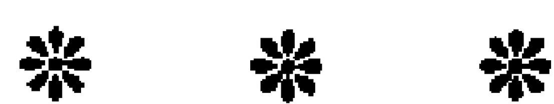
عندما فتحت لنا الصوت لكي نسمعه، شعرنا أن الرجل ربما يتحدث إليها من الفراش، كان مقززا وقميئا. لم نكن نتصور تجليات ذاك السوء، هو سيء يقينا، لكنه كان سيئا جدا. طلب أن يراها صبيحة الأحد، في حديقة المجلس الأعلى. ذهبنا معها، لا لكي نحميها منه متى تطاول، أو أبدى شيئا يضايقها، لن يمتلك جسارة أن يضايقها، لكننا كنا نراهن على ردَّة فعله، والبنت بدورها، تعرف أن كل مواهبها في صوتها الأنثوي المُبهر، بيد أن ملامحها لم تغادر الدمامة إلا قليلا.

كانت راضية، تشعر أن موهبتها قد عوَّضت هذا الجمال المفقود، الذي تلاشى كليا من وجهها. وصدق حدسُنا، فما أن توجهت إليه لتحيته، وذكرت اسمها، حتى انتفض كالملسوع، معتذرا بضيق الوقت الذي يداهمه غالبا. نظرتْ إلى حيث موقعنا مبتسمة، وقالت في سخرية لاذعة: لا يُنصح لأقل من ثمانية عشر عاما.

فتاتي تستطيع أن تجد الوقت الذي لن يداهم هذا أو ذاك، من أولئك الذئاب المثقفة، لن تكون موهبتها المتراجعة حجر عثرة، ستربح معركتها، ستتحقق، وتصير ملء السمع والبصر. أو ربما ستهبط عليها آيات الرشد، وتعود لي، أو تعود لشيء لا يكلفها تنازلات كبيرة، لكنها القاهرة على كل حال، مدينة الأشباح والدخان، الفرص الجاهزة، مركزية كل شيء، إلا هذه التجليات، التي تأتي غالبا من الأطراف البعيدة.

لم أكن أدري في ذاك الطقس من أعاتب، أبي الذي قرر في ساعة لا ينقصها العبث أن يأتي إلى هنا، وهل لو كنا مازلنا في هذه القرية النائمة حيث البعيد البعيد، كانت حياتنا ستختلف؟

الغريب أن أبي حين أدرك إنه مفارقنا، أوصى أمي أن لا يُدفن فيها، مهما تكبدت من متاعب، لا يجب الرضوخ لفكرة أن يُواريه ترابها. ربما لأن الوقت الذي سيستهلكه تحت التراب، أكبر بكثير من الوقت الذي عاشه بين جنباتها، يصارع من أجلي؛ كي يدرك لنا حلما لم يكن قادرا على تحديده. رغم أن أمي قد ذاقت مرارات لا يمكن وصفها بعد رحيله؛ كي تربي اليتيم الذي تركه لها ذات قرار لم يخلُ من نزق.



كان عامل المقهى متعاطفا مع صمتي وشرودي، ربما لم أتأخر يوما كما تأخرت هذه الليلة. لا أنتظر شيئا محددا، ولا أدري سببا مقنعا يجعلني أذهب للبيت.

لم أجد من سبب يجعل «محمد عثمان» يتصل بي هذه الساعة. ولم أبتهج عند رؤية اسمه على شاشة الهاتف.

في الوقت نفسه، ليس سهلا تجاوز اتصاله، كونه صديقا يأتي في مقام أخٍ كبير.

ـ الحمدَ لله إنك لم تنم.

ـ خيرا.

ـ هذا الرجل الذي يؤسس الدين الجديد في الإسكندرية أعرفه.

ـ دين جديد؟!

ـ نعم.. يبدو إنك لا تدخل لمواقع التواصل الاجتماعي منذ فترة.

ـ وهل يوجد شيء يشير له، أو لدينه هذا؟

ـ أدخل وسترى.. صفحة اسمها الكوزموبوليتان.

ـ الكوزموبوليتان؟

ـ نعم.

ـ تراه مجنونا؟

ـ صدقني.. أنا أعرف هذا الرجل، التقيت به في مركز تدريب المشاة. لا يمكن أن أخطئ شكله وهيئته. بل تستطيع القول إنه كان صديق هذه الفترة.

ـ «محمد» الأمر لا يحتاج دينا أو نبيا، هذا جنون.

ـ أدخل وسترى، ستصدمك الأعداد التي آمنت به.

ـ آمنت به؟

ـ مسألة مثيرة جدا، ربما أفكر في قادم الأيام أن أرحل إليه، ولي صديق هناك يعرف مكانه، وربما يتذكرنا معا.

ـ لِم تذكرتني الآن، فأنا في حالة صعبة جدا، للآن مازلت في المقهى.

ـ ماذا؟

ـ مكتئب قليلا.

ـ أدخل لصفحة الرجل لعلك ترتاح. سلام، سأتصل بك.

وجدتني أتمتم في هذيان، دين جديد، ونبي، أبالله هذا وقت مثل هذه الهرطقات؟

ربما التقيت بصاحبي كثيرا بعد هذا الاتصال، لكن ظلت صدمة الأيام التالية أكبر مما توقعت، وخصوصا في دائرة الأصدقاء المولعين بالإثارة والطرافة، كنت أقاوم شعورا عارما بالدهشة، والرجل قد بات في طور الظاهرة أو يكاد، في دائرة المتابعين لهذه الصفحات، عبر مواقع التواصل الاجتماعي الذي أكرهه.

رغم كل هذا لم أدخل لصفحته، أو أتابع ما جاء فيها، لكن، كنت أمارس بعض الاستقراء، إذا سنحت الفرصة للذين يتابعونه، أغلبهم لم يخفِ دهشته حيال الفكرة، وإن اختلط عليهم شعور الإعجاب الممزوج بالإشفاق، كونه في نظرهم نصف مجنون. حتى الملحدين الذين أعرفهم، وجدتهم مشدودين لدعوة الرجل وعنوانها، الكوزموبوليتان، أو الكونيون على الترجمة الأشهر للمصطلح.

كان من السهل أن تمر التفاصيل دون مشاكل تذكر، لكن حين طلبني مُعد البرنامج الذي نقدمه عبر المحطة التي أعمل بها، دار الحوار عن هذا الرجل على غير المتوقع. لم أجد ما يمنع من التلميح أن هناك صديقا أعرفه، كان زميلا له، صادف صفحته على

المواقع المختلفة، ولم يشك للحظة إنه هو، فلا يمكن بأي حال نسيانه.

وجدتُ المُعد الشبق، يعلن أن هذه فرصتنا، فنحن في زمن التفاهة، ولقاء رجل كهذا، وإقناعه بالتسجيل معنا في حلقة من حلقات البرنامج، مسألة جديرة بالنظر، الغرابة والطرافة التي تأسس عليها الموضوع، ستضعنا تحت دائرة الضوء لا محالة. اتصل بصديقك يدبر موعدا معه، إذا كان له من وسيلة اتصال ناجعة. وبدوري سأتحدث مع مدير القناة؛ لتمرير الفكرة، والتلميح بكم الأرباح التي ستحصل عليها المحطة من الإعلانات المتوقعة.

لم تأخذني الدهشة، السلعة الإعلامية تستدعي أن يفكر المُعد بهذه الطريقة، لكن الهدف والمحتوى، والرسالة. فمؤكد تحدثَ عند الفواصل الإعلانية. لكن شبح الفرصة والنجاح فيها، كان مُحرضا فعلا.

كنت أريد أثبات ذاتي في معركة، جعلتها فتاتي معركة مصير. فللآن وأنا مساعد المُعد، يظهر اسمي على التترات كنكرة، لا يلتفت لها أحد، ولا يذكرني مقدم البرنامج من جملة الأسماء التي يشكرها في نهاية كل حلقة.

كان ضروريا أن أبحث عن «محمد عثمان» الذي لا أدري أين اختفى هذه الأيام التي تلت حديثه الأول عن نبي الإسكندرية. لكن وجوده في إطار الفكرة، كان يطمئني، لكونه يدرك كيف يؤسس رأيه في الآخرين، يستطيع فلسفة كل شيء، بخبرة. وطالما أعلن أنه يعرفه، فهو يعني ما يقول.

الغريب أن غيابه كان حصريا للنبي، يذاكره تقريبا، وعندما ذهبت لبيته، وجدته هو الذي اعتزل الكتابة والتدوين، يدشن حالة من البحث عن هذا الرجل، وما حدث في العشرين عاما التي تلت فراقهما. أوراق وأقلام، وكتب، كان بوهيميا كالعادة، لكن ملامحه تنذر بتركيز هائل.

ظل ينظر إليَّ بابتسامة أعرفها.. وأشار إلى المائدة، ترى هذا الكشكول. لقد وجدته بعد معاناة شديدة. به صفحات كنت أكتبها في ليل هذه الأيام التي جمعتني بنبي، مازلت تريد أن تتجاوزه، رغم إنه بلغة مهنتكم خبطة. انتظر، سأتلو عليك صفحات كتبتها عنه، وعن انطباعاتي حياله وقتها...

راح محمد عثمان يقرأ:

كان نموذجا غريبا، يومه ما بين الصمت والعزلة.

الجميع يستجديه أن يمتعنا بأغانيه الارتجالية التي تفجر الضحكات، وفيها يسخر من الجميع، ونفسه.. وجهه العبوس المتجهم، الذي يغريك بنعته شريرا.. كيف يتسنى له أن يخلق مثل هذه النكات، التي لا يمكن تحملها، والغريب، لم يكن يضحك أبدا، والجميع يسعلون من فرط الضحك.

ضربنا العريف الذي أساء الأدب، واشترك معنا، ولما تطوَّرت الأمور، قام بتسريبنا؛ حمل عنّا الجزاء، متعللا بأننا صغار السن نسبيا عنه. الأمر الذي اضطر معه لأن يزحف في رمال المعسكر.

ظل يزحف وينظر لنا ويضحك، ويعطي إيماءات عدم الاكتراث. تم استدعاء الضابط الذي كان في محاضرة يلقيها علينا، ومرَّ عليه،

يدفع بحذائه بعض الرمال على ظهره العاري.. قائلا: رمال مصر سكر!!

نهض من زحفه بعصبية غريبة، تناول ملابسه في جرأة واضحة، وقال للضابط في حدة: نسيت أن أخبرك أن السكر ـ عادة ـ يتعبني. ثم تركه ومشى، ولم يعره أي اهتمام.

اعترضه قائد المركز، الذي كان يمر بالصدفة، لم يهتز، نسج موقفا غريبا، تحدث كمجنون، أو مصاب بحالة نفسية، صوته يرتعش، وجسده يتحرك بشكل مخيف، ههنا تعاطف معه الرجل، وتم إعفائه من كل الطوابير، مع تنبيه بعدم التعرض له مستقبلا.

وصل لساحة العنبر الذي كنّا نبيت فيه، بعد هذه التمثيلية التي أداها ببراعة، جلس يضحك على مدى السذاجة التي تسيطر على الناس، ومن بينهم قائد المركز الطيب الذي تفاعل مع الأمر بأريحية.

لم أعرف بشكل واضح رغم الصدق في أداءه، هل كان يُمثل؟

لكنه تعلل بأن كل هذا كان في اللاوعي، وهو لم يجتهد فقط سوى أن استدعاه. فالبشر ممثلون في دواخلهم.

وجدته بملابس الفسحة، واضح إنه قد حصل على إجازة، فهمت جانبا مهما من شخصيته، قام بتوديعي قائلا: أرأيت؟ كي أرى أمي، أودعت نصف لتر من دمي النادر، كي أحصل على إجازة، وأراها، تبرع قميء.

كان يحمل «جرابندية» على كتفه، ولا أدري لماذا كنت أحدق فيه، وهو يمشي بطريقته الغريبة.

عاد في فجر السبت، وكان معه تفاح كثير، أيقظ كل القريبين من قلبه؛ وأعطى لكل واحد منهم واحدة.

سأله أحدنا: ألم تأت بغير التفاح؟

فقال: ومالي لا آتي لكم بتفاح؛ لتدركوا أن الجنة خارج هذا المكان؟ ثم أردف: تصبحون على الجحيم.

لا أدري سر كراهيته للنوم؛ والنهار، إذا نام المعسكر كله؛ لا ينام، يعبث مع قط؛ أو يحاور كلبا، كما لو كان صديقا يعرفه، ويفهمه.

شعر بوجودي وسألني عن سر أرقي؛ قلت أسبابي، فضحك وقال:

الخال قرابة موجعة، ولأنه شقيق أمك، يكون الحزن على قدر المحبة، لن يتركك لمصير أمثالي الذين يحبون البلد؛ ثم ضحك ضحكته التي تشبه الثورة.

قلت: أنا أحب البلد.

قال: هل تعرف مضمون الواسطة التي تأتي للخاصة هنا؟

قلت: لا أعرف.

قال: الواسطة أن ترتاح طوال فترة تجنيدك، وإن قامت الحرب لا تموت. هي دليل صارخ أن الناس في هذا البلد ليسوا سواء.

دُهشت فعلا؛ وجدت رجلا مختلفا يتحدث، نبرات الحكمة الحزينة، وقناعاته الغريبة.

سألته عن الحب، وكنت وقتها أتذكر «سلوى».. قال إجابة مراوغة: عاطفة الحب بين رجل وامرأة مسألة ليست واقعية؛ الحب حيلة، اخترعها الإنسان ليخفي أنانيته المفرطة، انصرف لبلورة عاطفة تتجه لشيء خارجه؛ كي لا يبدو بهذا الشكل المفزع.

توقف محمد عثمان عن القراءة، ثم عاد ليقول:

بطبيعة الحال اعتقني خالي، جاء مندوب الرياضة العسكرية ليصطحبني للقاهرة، من فرط فرحتي، كدت أن أنسى وداعه،

بحثت عنه، لدرجة أن يئست من مقدرتي على رؤيته، فهمت أن غيابه كان متعمدا، اقتحمت خلوته؛ كان جالسا منفردا في ركن بعيد، يعرف إني راحل، رأيت رغما عنه عينيه التي تلمع من الدمع.

ـ ما كان لي أن أرحل قبل أن أودعك

ـ وأنا أرفض الوداع. أرحل في هدوء، لا أريد أن أكره هذه البلاد أكثر من هذا، وعلى كل حال نحن لها، مارس رياضتك، ونحن سنقاتل نيابة عنك. لا تهتم.

* * *

طلبت من صاحبي أن يُكمل، لكن الأوراق التي كتبها قد انتهت.

ربما اندهشت، كيف لعلاقة دَفَعته لأن يكتب هذه الأوراق، تنتهي بمجرد نجاح الواسطة في إخراجه من ذاك المكان. كان ضروريا أن يبحث عنه، ويستثمر هذه الصداقة التي شاء لها القدر أن تكون عابرة. لكنه تعلل أن الدنيا قد أخذته من كل شيء.

كان الفضول يدفعني للسؤال عن «سلوى» التي مرَّ على ذكرها، لكن خشيت، في نهاية المطاف استسلمت وسألته..

ـ كانت رائعة، لم أكن أعرف إنها تجيد الرسم، في واحدة من رحلاتنا إلى أسوان منحتني «بورتريه» مرسوم بالفحم، ينذر بموهبة.. كانت تثني على تفاصيل معينة في وجهي، بدت وكأنها تحللني نفسيا، لم يدفعني صدقها لتصحيح بعض الأخطاء التي وردت في تحليلها. لم يكن صعبا أن أرى الحب في عينيها، لكن أمي ـ رحمها الله ـ كان لها رأي آخر في المسألة، ولضعفي أمامها،

لم أستجب لرغبتها في الارتباط ببنت خالتي، وأبديت وقتها زهدي حيال مسألة الارتباط أصلا، زهدٌ لم أستطع تجاوزه للآن، حتى أندفع العمر، دون أن أدري، ووصلت لهذا السن بلا زواج. لكن بقيت لفترة أغبط فيها واقعيتها، أو إدراكها لضعفي، أو ربما أزمة قرار؛ كنت أعيشها وقتها، فالتمست طريقها في الحياة، زعمي إنها قد صارت أما لأولاد، انقطعت بنا السبل، ومن حسن الحظ، لا أراها في أي صدفة قدرية، كي لا أُطعن بمركبات ضعفي القديم الذي أدفع ثمنه للآن، بهذا التوحد الكريه.

لم أشأ الضغط عليه، فصوته اختلف، وكست تفاصيل الجلسة المرارة. عدنا من جديد للباب الذي سنطرقه؛ كي نقابل المنتظر، وندبر ما تحدثت فيه مع مُعد البرنامج.

لم أجده مرحبا بالرغبة، بقدر ما كان يريد أن يرى صاحبه. هنا بدا ممتنا للعالم الافتراضي، الذي جاء بالغائبين، ووضعهم في دائرة الحضور.

عندما ضغطت عليه، وتحدثت معه بصراحة عن رغبتي، ظهر توجسه من قبول الرجل للفكرة، أكد أن رغبات الإعلام وتفاصيله، لن تنطلي على ذكاءه، فمازال يتذكر تداعياته.. شفاف إلى درجة، ومؤكد سيتعامل مع فكرتنا بشيء من الترفع.

لم استسلم، فما سمعته من الذين تابعوا الرجل منذ صنع ملحمته، وما قرأه عليَّ صاحبي الآن، قد فجَّر كل براكين فضولي للقاء الرجل، حتى ولو لم نوفق في إقناعه لأن يأتي للقاهرة، وينسجم مع رغباتنا لتعريف الناس به، وبجنونه، ورؤيته التي ما كان لها أن تتسق مع هذا الزمن.

(٢)

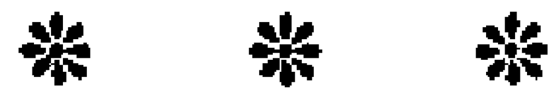
لم يكن لنا اختيار، كل الطرق تؤدي إلى الإسكندرية، فلم يستسغ المُعد هواجسي، وهواجس صاحبي التي شرحتها بالإنابة. الرجل من الذكاء الذي يمكنه إدراك هذا النوع من الشبق. يدرك أن اللعبة في هذا الإطار، تتحرك بقوة دفع المال والرعاة، والإعلانات. ربما يتاجر علينا، إذا أدرك نيتنا لاستثماره. وإذا كان مثاليا لدرجة متطرفة، فسوف يرفض هذا الاستغلال.

لم يكن سهلا لمُعد البرنامج على حد خبرتي، أن ينسجم مع هذه المعطيات، فمجده الشخصي قد تبلور في استقدام هذا الرجل، وطرحه على الناس، وفي ذات الوقت شبح الأرباح المتوقعة، جعله لا يقدِّر بأي حال توجيهات صاحبي، أو مخاوفه.

الغريب، كان تلميحه أن هناك محطات أخرى ـ ربما ـ تريد أن تستغل هذه الحادثة التي يؤسس لها الرجل. ومؤكد سيشعر بهذا، إن كان هناك من يتحرك في الظل؛ كي يحصل عليه ساعة، هي مدة الحلقة التي نريد أن تمر، دون إثارة مشاكل. وإن كنا لا نريد أن ينتهي أثرها، فالإعلان عنها، سيستمر فترة قبل أن نجريها؛ كي نضمن رعاة جادين، وإعلانات بسعر أفضل من أي وقت.

عدت لصاحبي الذي أخذه شوق عارم للقاء هذا الرجل، حين عبر على أيامه في شبابه الباكر. بحثت عنه في كل مكان يتردد عليه، فلم أجده، وهاتفه بالتوازي، كان مغلقا، ولا يعرف أحد من

المقربين له، لأي جهة قد رحل. ومع توتر أعصابي، كوني آمنت أن لقاء هذا الرجل، سيكون فتحا في حياتي المهنية، أخذني الخوف على «محمد عثمان» نفسه، الذي ذُهلت عنه ليومين، فضاع منـي، دون أن أعرف، أو يخبرني أين هو من العالم.



سمح نومي الخفيف أن أتبين وجه أمي واقفة أمامي، توقظني؛ «محمد عثمان» بالباب. لم تجد لديها القدرة أن تبرر وتعتذر، كوني نائما.

دعوتها لأن تأتي به إلى هنا، فليس غريبا على كل الأحوال. اعتدلت في جلستي، نظرت إليه معاتبا غيابه، لكنه فاجئني حين قال إنه للتو قد عاد من الإسكندرية.. كان لزاما أن يبحث عن «خالد عيسى» الوحيد الذي يعرف بيت النبي، ولكم عانى؛ كي يصل إلى بيت «خالد» نفسه، ففي العشرين سنة، حدثت أشياء غريبة في حركة البناء، جاءت على هذه المعالم التي حسبها كلاسيكية. وجد طوفان من الأبراج الأسمنتية، بل أن بيت صديقه قد تعرض لهذه الموضة التي تهدم البيوت الدافئة القديمة، لحساب أبراج لا حياة فيها أو ذوق. لكنه وصل في النهاية، وألتقي بأبيه الذي أرسله بدوره لفندق «المتروبول» بمحطة الرمل.

كان لقاءا حميما أو يكاد، به الكثير من آيات الحب والشجن، اعترف فيه خالد أنه قد تزوج زواجا عاديا، ورزقه الله بولدين، يحمد الله أنهما لا يشبهانه.

وما بين اجترار الذكريات، من هنا وهناك. بعد مدة، خرجنا لنشرب قهوتنا، وفي الطريق سألته مباشرة عن «حسن نوح». وترى أين هو الآن؟

كان «خالد عيسى» حالة ممزوجة من الأسف والشجن بمجرد أن ذكرت الاسم.

قال: تدري؟

لم يقصر إنسان في حق هذا الرجل مثلما قصرت أنا. وقف بجواري أثناء فترة تجنيدي، ينحت توقيعات القادة الكبار بمهارة فائقة، ولما علم أن هناك ثمة مأمورية تأتي بأموال وفيرة للعساكر، كتب اسمي في واحدة منها، أمكث هناك ثلاثة أسابيع عمل، وأسبوع للراحة، وفي نهاية كل شهر، أودع مع أبي قرابة الألف من الجنيهات من وراء ما كنت أكسبه.. أنهيت سنة الخدمة، ومن هذا المال خطبت أم أولادي. بحث عني، وقابلني في بيت أبي وقتها، وزارني هنا، ومع ذلك لم أبحث عنه، ولم أهتم برد الزيارة، سوى مرة واحدة، سريعة وخاطفة، ولكم سألني معظم الذين رافقونا أين هو، ومع ذلك لا أدري لماذا ذُهلت عنه، أو أتتبع أخباره بعد ذلك. مؤكد في نفسه شيء مني.

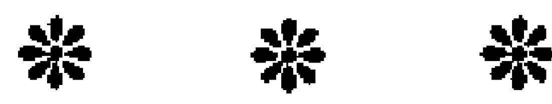
باغته محمد عثمان برغبته:

ـ على كل الأحوال أريد أن أراه، وبعيدا عن حمى الشوق الصادق لرؤيته، احتاجه، لا يمكن التجاوز على جلسته الممتعة، افتقده، وفرحت إنه مازال موجودا، لم يسافر لأي جهة، أو يختفي

في ظروف غامضة كالقدر. وإن كان وقتك لا يتسع أن تذهب معي إلى حيث هو، فرجاء أمنحني عنوانا مفصلا. يمكنني من لقاءه في النهاية. لأني احتاجه أيضا في مسألة أخرى.

لم يشأ أن يُطلع «خالد» على موضوع اللقاء، والقصة التي يؤسس لها بدين وأتباع، وتفاصيل لن تهمه من قريب أو بعيد، وللأسف لم يجد فيه رغبة لأن يراه، ليس جحودا، لكن شعر أن الخجل يسيطر عليه بالكلية، فهو لم ينفِ إنه كان يعيش من فيض فضله عليه، وهذه الأموال التي ربحها.. هو نفسه شعر إن «خالد» لم يبتهج أن رآه، ربما لا يريد تذكر هذه الأيام لأسباب تخصه. لذا، كان ميالا لإعطاءه العنوان المفصل، دون التفكير لأن يأتي معي.

كتب العنوان، لدرجة كان يرسم تفاصيل الشوارع المؤدية إلى حيث هو، سواء البيت، أو المقهى الذي يجلس عليه عادة. ونبهني لاسم حركي ينادونه به في هذه المنطقة، حيث يسمونه (العجيب).



كنت أستمع لصاحبي، وكأنه يريد أن يصدر لي معنى الأسطورة التي يبحث عن جذورها، ورغم يقيني في اتزانه، لاتهمته بانتحال المبالغة في هذا السرد العاطفي، وهو يبحث عنه. نعم.. الشاهد أنه أحبه. وآمن به في لحظة فارقة من حياته. لم أرد أن أقطع حبل الرحلة التي اضطر فيها لأن يغيب عني، وهو يبحث عن ضالتي أيضا، وليست ضالته وحده.

عاد محمد عثمان ليكمل:

وصلت إلى بؤرة المنطقة التي كُتبت في الورقة التي خطها «خالد عيسى» لم يكن اسمه مفيدا كثيرا في الاهتداء إليه، فالواضح أن الناس في المنطقة لا تعرفه، هكذا شعرت في البداية. حتى ما تذكرته من ملامحه، ما كان ليفيدني كثيرا كي أصل. ولست أدري كيف ذهلت عن (العجيب) وأنا أبحث، فبمجرد أن ذكرت هذا الاسم، حتى وجدت الجميع على عكس ما ظننت، يعرفونه كما يعرفون أنفسهم. تبرع شاب بأن وصل معي إلى حيث يجلس تقريبا، وفي مكان لم يخطر لي على بال.

كان دخول أمي بالشاي، اقتحاما، لم أكن مستعدا له، وخصوصا أن محمد عثمان، قد أسس إثارة لا يمكن تجاوزها. طلبت بإلحاح أن ينسى الأمر، ويعود مجددا لتفاصيل اللقاء.

أكمل محمد فيما يشبه الأثارة:

ـ ليس سهلا أن أفسر لك ما شعرت به، رغم سرعة إيقاع الأحداث وردود الأفعال. حسبته نسيني، رغم صمته الذي واجهني به. وشرودي الطويل في ملامحه، وهو يجلس لمائدة عليها أوراق، وكتب يقرأ فيها، وسحب من دخان كثيف صنعتها سجائره، وفناجين من القهوة لم تُرفع، حيث يجلس في جزء منسي من المقهى، تحت الأرض، في عزلة، ربما لم تكن تسمع فيها ما يحدث بالأعلى. لم أشعر للحظة إنه نسيني..

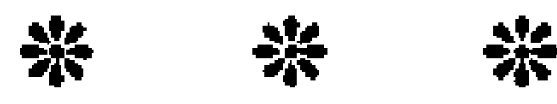
بادرته بسؤال تمنيت أن تأتي إجابته في صالحي:

ـ تتذكرني؟

فقال بسرعة وهو يهم بالقيام:

ـ أكان ضروريا أن أصنع كارثة؛ كي أراك يا رجل؟

ثم احتضنني نفس ذات الحضن الذي كان منذ عشرين سنة كاملة. وكلانا يقاوم حالة من البكاء.



لن يستمر الأمر على هذا النحو، كنت محتاجا أن نترك البيت، فالمسألة قد بدأت تدخل في إطار مختلف، وربما كان صديقي المُرهف، لديه الكثير من المفاتيح التي أدركها في هذه الزيارة العابرة.

جلسنا قبالة النيل، كان الطقس شتويا جميلا، ويسمح باقتحام هذه العوالم من الذكريات الدافئة. وصاحبي على غير العادة، كان مهيئا لسرد تفاصيل اللقاء، الذي أضفى عليه من روحه جوانب كثيرة من الحزن الشفيف.

عاد يقول: سقط مني الإحساس بالوقت، ولا أدري كم استهلكنا من فناجين القهوة والسجائر ونحن نجتر، أو للصدق كنت محتاجا أن ألتمس كيف هي حياته بعد أن افترقنا.

لم يتغير شيء، نفس ملامحه القديمة، مضافا لها بعض التجاعيد الخفيفة، والشيب الذي تسلل لسوالفه، وصوته الشجي، وشروده الذي يباغته كالمرض.

نبهته إنني رأيت صورته، وبعض مقاطع الفيديو في مواقع التواصل الاجتماعي، ولقد اندهشت من هذه الفكرة. فعلمي إنه واقعي، لا يمكن أن ينساق خلف من يعتقدونه نبيا لهذا الزمان.

ظل يضحك بكله، عندما بدأت هذه البداية المفعمة بالدهشة. ربما أشفق عليَّ، وعلى الناس الذين يتابعون هذه القصة، لكنه أشار لكونها محاولة لتأسيس معنى جديدا، يخرج الناس من الظلمات إلى النور.

اعترضت بحب على هذا التوصيف للدور الذي يريد أن يلعبه في هذه الفترة. لكنه أردف..

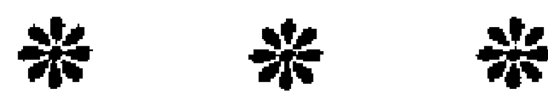
ـ تدري؟ إن فكرة انتحال دين على الناس في هذا الطقس، باتت غير مؤثرة، حتى وإن كانت بالفرض تمتلك حيثيات إقناعهم بهذا المعنى، وتستطيع أن تدافع عن نفسها، اللحظة لا تحتاج دينا، وإنما كارثة. أو أخدودا في الأرض، يبتلع القبح، صاعقة تحيل الأمم إلى رماد، ريحا تقتلع كل هذا العبث.

إنك لا تعرف ما آلت إليه أيامي، تركت بيت أمي وأبي، ولا تسألني أين أنام؟ لن أحكي لك أين. ولا تسألني عن عمل اقتات منه، لأني يقينا لا أعرف ماذا أعمل. قد أكتب مذكرة لمحامي فاشل. أو مع هؤلاء السماسرة الذين يتاجرون في حياء وجوههم، أو تاجر عملة يحول دولارات الذين ضاقت عليهم الأوطان. أو حصة لطالب لم يلحق بالضمير الذي كان حاضرا في مدارسنا القديمة. لا حياة مع الفقر، ولا ثقافة مع الكذب، والحقيقة في نضرة الجحيم. ولا تحاول إقناعي إننا في دولة، نحن في معتقل كبير، تديره سلطات احتلال حقيقية.

تركت البيت القديم؛ مخافة أن أموت وحدي، دعوت أخي وزوجته أن يعيشا فيه، أعلم إنني لن أتحمل زوجته، هو أيضا ليس

أخا يترجم هذه الكلمة الخطيرة. لكن أن تموت منفردا، وتترك في ذمة القدر.. هل تبقى حتى تستحيل هيكلا عظميا، أم يدرك الناس من الرائحة إنك مُت. اختبار جدا صعب. ولأني ابن هذه الدنيا، لم يكن من الحكمة أن أترك الشقة لمُلاك البيت، ولأن الشقة أكثر تميزا من شقة أخي، دعوته بكرم لافت، لم يكن ليصدقه، أن يأتي بزوجته وأولاده؛ كي يعيشوا فيها. وقمت بتحميل كتبي إلى هذا المكان، فليس في هذه الأسرة من يقرأ غيري.

حاولت إيقافه، ولملمة الموقف، بعد هذا الشجن الذي ضغط به تفاصيلي، لم تكن نفسي بقادرة أن تتحمل، أعرف كيف هو، حين يجتر عذاباته، ويحكي عنها.



لم أستطع ربط الأمور كلها ببعض، في حضرة «محمد عثمان». كانت تصوراتي الأولى أن هناك ثمة مأساة تقف خلف هذا الرجل، بغض النظر عن الأشياء التي تقف خلف جنونه. لم انفلت من مغبة الدهشة التي صادفتها في بعض التفاصيل التي ذكرها عن الدين الجديد، وشكل رؤيته، والتي بدت على درجة مخيفة من القتام.

ربما كان يريد الاستسلام للصمت بقصد الراحة، وبدوري لم أحاول ضغطه؛ كي أعرف ما آل إليه هذا اللقاء، رغم شغفي أن أعرف شكل ردَّة فعله على فكرة برنامج، يحل ضيفا عليه، نستوضح منه العديد من الأمور التي نشأت عنها الفكرة وأهدافها.

شعرت أنه لم يفاتحه في هذه القصة، أو لم يتورط أن يكون اللقاء الأول، هو المُحرض على الحديث في هذا الأمر، علمي إنه يتجنب أن يظهر في ثوب المُستغل، لكن كان هناك الكثير من العلامات الإيجابية، التي فهمتها من هذا اللقاء، فالرجل لا يصادف أزمة إقناع، فلم يظهر أن الحديث الذي دار بين الصديقين كان حادا، أو دخل في منعطفات خلافية.

لم أدرك ساعتها كيف يمكن تمرير فكرة لقاء تلفزيوني على يقين هذا الرجل، الذي ظللت أسمع عنه، دون أن أسمع منه، وبعد أن تأكدت أن صديقي لم يناقش معه هذا الأمر. كان لزاما أن أصطنع طريقا مغايرا للدخول إلى هذه التجربة.

(٣)

لا يقارن أي زحام، بزحام القاهرة، وللإسكندرية غواية تظل أكبر بكثير من أي معنى. كنت أدوِّن ملاحظات كثيرة وأسئلة، بل وأسافر كثيرا من نافذة القطار المكيف أو يكاد، في متاهات من هواجس، لا أعرف لها سببا.

لم انتبه لتحركات الناس، والتي تنذر إننا اقتربنا، تحسست هاتفي؛ كي أتأكد أن «محمد عثمان» على محطة سيدي جابر، حيث سبقني، ردَّ مباشرة، ودعاني للطمأنينة إنه في انتظاري عند باب الخروج.

في سخرية بدأت بالسؤال.. هل تراهن على صاحبك؟

يومان، ولابد من لقاء النبي، وننتهي سريعا. بذلت مجهودا مضنيًا، كي نحزم أمرنا، نستضيف الرجل ساعة، نتحدث، ونفهم نوازعه وأهدافه من هذه القصة المجنونة، ومن ثم ينتهي كل شيء.

الغريب، لم أجد تجاوبا لهذه الدعابة. وحذرني أن الرجل شديد الحساسية لمن يتعاملون مع قصته على اعتبارها جنونا. شعرت به يضغط كل حرف في كلماته وهو يكرر ناصحا:

ـ حتى لو تعاطف وتواضع معك، متى شعر إنك تهذي، فإن الشابين الذين يرافقانه كظله، لن يمررا لك أي تجاوز عليه، سواء بالقول، أو الإيماءة التي يمكن تفسيرها تسفيها لما يعتقده.

لم تكن البدايات مُبشرة، الجديَّة التي يتحدث محمد بها كانت واضحة. من الصدق الاعتراف إنها حركت في نفسي الكثير من معان التحفظ. لكنها كشفت عن اثنين من الأتباع، يتحركان كظل له، ربما لحمايته، أو التواجد في خدمته، وخدمة دعوته.. دعوته؟؟؟

لم أستطع الانفلات من هذه المفردات، التي لا يؤيدها أي شيء، فلا هو ـ يقينا ـ النبي، ولا ما ينحته من أفكار هي الدعوة. لكنها الأزمة التي تعترض الناس، أو تنخرهم كالسوس.

«محمد عثمان» على الضفة الأخرى، كأنه شاء أن يعاقبني للطريقة التي تحدثت بها عن الرجل، فراح في صمت مُستفز.

ـ تُرى ما القوة التي يستند عليها هذا الرجل، كي يؤسس هذه الفكرة، وفي ذلك الوقت؟؟

أشعر أنه جزء لا يتجزأ من مؤامرة لضرب الدين في المطلق. أو ينتحل حالة تصنع منه رجلا شهيرا، يستحيل معها أن يُنسى، ولو بعد موته بسنوات طوال.

هذه النماذج تعاني تهميشا، صار في مقام العُقدة النفسية، من الصعب بأي حال التعايش معها، يخشون أن ينتهي العمر، ويخرجون من الحياة كنكرات، تتنفس فقط، كدليل وحيد على الحياة.

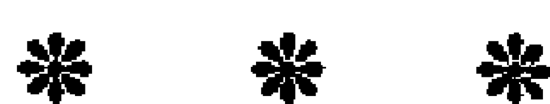
لم يشأ أن يصادر على اللحظة التي سأرى فيها الرجل وجها لوجه، لكنه لم يحدد قيمة ما سمعه مني، أهو تفسير أم أمنية؟ بينما الرجل من وجهة نظره زاهد كبير، وربما لا يقدر على الحديث الطويل مع أحد يريد لأن يتكلم معه، تنتابه حالة من اللهاث، مدخن

شره، لا تفارق أصابعه سيجارة مشتعلة، يتم تدخينها، ربما بغيظ وضيق. ولا تستطيع الجزم أنه ينظر إليك وهو يتكلم، من السهل أن تنعته مجنونا، لكن مهما بلغت من الحصافة، ستقع في غواية الاقتناع بما يقوله، ولو على مستوى بعض ما يطرحه من أفكار.

كسر محمد عثمان صمته وقال:

ـ عندما جلست معه في هذا الجزء من المقهى، الذي يأتي تحت الأرض في ليلة شتوية، كان صوت المطر والرعد يصل إلينا بوضوح، لحظة لم أستطع تفسيرها. نعم لا يجوز اعتباره شابا، ولا شيخا، لكن في عينيه الزمن. ستمسك بخيط متصل من الشجن والحزن الذي يكسو نبرات صوته. ولمعان عينيه الذي يحرضك لأن تعتقد إنه للتو قد انتهى من نوبة بكاء مرير. وهذه القطط التي تطوف حوله، وكأنه الكعبة، لحُجاجٍ غير مرتبطين بموعد تنتهي عنده المناسك.

لا يجب أن تأخذك السخرية، وأنت تجلس إليه، سيعرف، ساعتها، ستجد نفسك في مأزق.. كيف تخرج من حضوره، وإن تمكنت، فلن تغفر لنفسك أبدا.. كيف أفلتت منك الفرصة لأن تسمع رجلا يتكلم لغة لم نعد نسمعها.. من السهل أن تخالفه، ولقد فعلت. تمتعض وتشعر بشيء من الرؤى الغريبة التي لا تتسق مع الحد الأدنى من الإيمان، لكنك لن تستطيع أن تخفي إعجابك بمنطقه. هي النصيحة، فالرجل يقينا لديه ما يقوله.



كنت أسمع «محمد عثمان» بتركيز متطرف، فليس مدَّعيا أو ساذجا، كي تكون كلماته عن الرجل من هذا المزاج، ولم أشأ تقييم ما قاله في ثوب النصيحة، لكن كانت تتنازعني رغبة تجاوز الأمر، والعودة للقاهرة، على اعتبار أن الرجل علاقته بالإعلام مرتبكة، ولا يثق في هذه المنظومة بالكلية. وبين فضولي لأن أراه، بغض النظر عن موافقته للحديث أو لا، وأمام الناس.

شعرت ببعض الخوف، فالمحاولة تعني انتحارا، أن تأتي برجل من هذه الشاكلة.. والإعلام المولع بتتبع الإثارة، ربما لا يدرك مردودها على الناس، التي تدرك أن قطار الأديان قد توقف، والأزمة في العباد، وليست في متون مقدسة.

على مائدة الغداء، كنت أريد من صاحبي أن يطرح عليَّ تقييمه.. عرفت أنه التقى به لثلاث ساعات. الغريب أن مساحات الاستفزاز التي تعرض لها، لم تكن بخصوص حديثه، الذي يأتي على عكس المتوقع. بل طريقة تدخينه، تستفزه وتضغطه. شروده المستمر، الدفوع التي يصوغها لدعم أفكاره، غريبة، لكنها منطقية. العطف الذي يعامل به الشابين الذين يرافقانه دوما، القهوة الثقيلة، التي تأتي، حتى ولو لم يطلبها. العمال الذين يسعون لخدمته، دون أن يعرفوا أي شيء عن حياته، ودعوته وأفكاره، أو سببا لعزلته. صامت دائما، يمرُ على الناس دون إلقاء أي نوع من التحيات، اعتزلهم، وركن إلى هذا البدروم الذي يشبه كهفا، لا يتسع إلا إليه، ولقططه التي يعاملها كأب متطرف الرحمة.

تحدث «محمد عثمان» كثيرا، ولم يكن يقطع حديثه سوى التقاط الهاتف؛ كي يتصل بواحد من الشابين الذين يرافقان نبيهما.

شعرت باليأس، فما بين الهاتف الآخر خارج التغطية، أو مشغول، تذكرت أن الحديث والمهمة التي جئت من أجلها أذهلتني عن الاتصال بأمي، أطمئنها أولا إني وصلت، وأن الأمور كلها بخير.

أخيرا وصلنا لشاب من الاثنين، وعلمنا إننا ستتحرك في وقت يسمح لنا أن نقابله عند الحادية عشر ليلا. توقفت عند التوقيت، لم أشأ أن أسأل عن علّة هذا الموعد، والذي إن وجدنا ما يشجع للحديث، ربما انتهينا في صباح الغد.

كنت استشعر أجواء امتحان، بدأ يتسلل لنفسي شعور بالرهبة، ذهبت إلى أبعد من ذلك، ظنون تدفعني للاعتقاد أن الرجل ممسوس بجن، يسيطر عليه؛ كي ينتج هذه الحالة. والحديث معه على ضوء هذه العلة، ربما عرَّضنا لمضايقات هذا العالم الخفي.

مؤكد كنت أبالغ، أو أتورط في خيالات تشبه الرجل، غريبة وغير مبررة. لكن وجدت صاحبي يتداخل مع بعض هذه الظنون. هو الآخر يعتقد إنه ممسوس، لا يمكن الرهان على ردود أفعاله. وهناك سر، لا يمكن الولوج إليه، إلا إذا قرر أن يُطلعنا عليه. المؤكد أن اعتراضنا لن يغير من الحقيقة شيئا، فمن يتابعون الرجل على الصفحات في مواقع التواصل الاجتماعي، قد تجاوزوا في آخر إطلالة على هذه المواقع المليون ويزيد.

شعرت أن الموعد مع هذا الطقس الشتوي كان مقصودا؛ كي نلتمس حالة هدوء مختلف عن وسط المدينة، هدوء واضح، فالمقهى بدا بلا زبائن تقريبا، الشوارع خالية، البرد أقوى من ملابسي، لكن ما لم أكن أتوقعه أن يملأني هذا الخوف.

قبالة مدخل البدروم الملحق بالمقهى، كنت على استعداد لأن أغادر ناسيا الفكرة. لم نكن نرى شيئا، فقط صوت خطوات تقترب منّا، حتى ظهر الشابان، وكأنهما قد قاما ليكونا في شرف استقبالنا. على الراجح لم يصلا للثلاثين، لكنهما شديدا التهندم، يفوح منهما رائحة عطر غالي الثمن أعرفه. اصطحبانا تحت الأرض حتى دخلنا إلى ملحق آخر لذاك البدروم، كان يفصلنا عنه سلم له وظيفتان؛ إما أن يعبر بك للجزء الآخر من المكان، أو يصعد بك إلى حيث المقهى، الناس والزحام والحياة.

خشيت أن يسمعوا دقات قلبي، لم أفهم كيف تصاعدت هذه المشاعر المتداخلة. كانت تفاصيل المكان تبدو لي كمخزن، صناديق شاي، أجولة سكرٍ، فحم، وتفاصيل أخرى، ومع ذلك، بدا المكان منظما إلى درجة، خلف مائدة جاءت بعد فاصل خشبي، ومسطح رخامي عليه الكثير من الكتب، وجدت في الجوار منها نبي هذا الزمن!!

لم أكن محتاجا لدليل أن الرجل مدخن شره، فدخان سجائره، يمنح المكان مساحة لا بأس بها من الضباب. فناجين القهوة التي تم شربها أكثر من المعدل. لكن، ورغم هذا كله، كان وجهه يجسد حالة غريبة من التداخل، طيبة واضحة، وتواضع جم، منحني القامة قليلا، الشيب يغطي لحيته الخفيفة، طويل نسبيا، لكن صوته حين قال: أهلا.. كان مخمليا وحزينا.

لم يكن خافيا عليه السبب وراء السعي للقاؤه، والشابان على الراجح اختارا بقصد أن يظلا بعيدين عن جلستنا، وكأن ما سيدور لا يعنيهما، بل وبعد السلام والتحيات، لم نشعر بوجودهما.

كان صاحبي مألوفا لديه. سأله عن الدنيا والأحوال. يستمع للردود بابتسامة خفيفة لا يمكن ملاحظتها، في دقائق انتهى الحديث الروتيني، وبلهجة حاسمة ومباغتة قطعت شرودي في تفاصيله، سألني النبي: ماذا تريد؟

لست أدري كيف استهلكت هذه الثواني قبل أن أجيب على سؤاله.. تائه، مندهش. جو المكان، الدخان.

اليقين المبدئي إني بصدد لقاء رجل غريب، ذو قلب ميت؛ يسير في مُراده دون وجل، حتى يصل في يقين من يتابعونه، المؤمنون به، أو المنكرون، كحالة جالبة للحيرة. كنت محتاجا لتجميع نفسي، فليس لي أزمة خلافية مع ما يطرحه، وإن كنت أرفضه بالكلية، أنا في مهمة، ويجب إنجازها.

قلت: تدري أن الإعلام قد صار مهنة خطيرة ومؤثرة، وأنت بصنيعك، تضرب نموذجا ضخما، قويا وراسخا، كنت في الظل، والآن أنت في النور، يقتنع بك الملايين، يتابعونك في حرص، يصدقونك، يعتقدون أنك صاحب دين، رغم استحالة ذلك، إلا إذا كنت مدركا إنك لا تمثل السماء فيما تقول أو تفكر. الناس تريد أن تعرفك، تقيمك، تفهم إلى أي مدى هي حركتك مع أتباعك، وأهدافها، والمحطة عندنا قد استجابت لفكرة تقديمك للناس، نفهمك، ونسمع منك.

سمعني الرجل بهدوء، لم تظهر عليه أي علامة تجعل من ملامحه إشارة على استياء، وكنت بدوري، كأنني قد انتهيت من تسميع درس صعب، خشيت الارتباك، أو أن يظهر توجسي منه،

ومـن المكان. هي المرة الأولى في عمـري التي أصادف في ثقافتنا رجلا يمتلك جسارة أن يطلع على الناس بمثل هذه الهرطقات.

ظل النبي صامتا للحظات، ثم ابتسم، ودعانا لأن نشرب شيئا، فالكلام عند أولاد العرب لن ينتهي، أشار لواحد من الشابين أن يدعو السفرجي؛ كي يرحب بنا، ثم تراجع، وقام بإملاء طلباتنا للشاب المطيع الذي سيبلغها بدوره، في الجزء العلوي من المقهى.

تشـاغل عنـا لمدة جاءت فيهـا طلباتنا، بـدا الاحتـرام زائدا من العامـل، الـذي دعـاه أمامنا بالكبير. فـي هذه الفترة تنـاول قطة من الأرض ووضعهـا في حجره.. ثم نظر إليَّ وسـألني بابتسـامة.. هل تدري إنها بنت عمومة النمر؟

أشرت بالإيجاب. لكنه ظل يضحك، ويتمتم بكلمات، يتحدث فيها للقطة التي بدت مستسلمة له. ثم وضعها وسألني مباشرة.. في أي يوم تريدني؟

قلت: الموعد الذي يناسبك، هو عموما سيكون يوم الثلاثاء، فاختر أنت الثلاثاء الذي تراه مناسبا.

قال: نترك القادم، ونتجهز للذي يليه. ثم أردف، وإذا كان هناك ثمة مال سنحصل عليه، فالرجاء إكرام هذين الشابين، اللذين مني بمنزلة أبنائي. فلو إنني في الصعيد، ولم يركب جدّي قطار الهجرة من هناك إلى هنا، لكانا بالفعل من صُلبي. لكن هكذا كان.

اعتقد «محمد عثمان» وشاركته الاعتقاد إننا بمجرد أن نشرب أشيائنا، فمن الضروري أن ننصرف. فلقد بدا الرجل كما يقولون زاهدا في الحديث، لا يمتلك شهوة أن يؤسس آذاننا في اتجاه واحد يتجه نحوه، واللافت إنه لم يظهر حاجته للمال، رغم أن هندامه

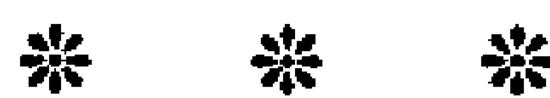
بسيط في تطرف، ومتواضع، لا يبدو عليه إي رخاء، هو يدخن فقط، ويشرب القهوة في استمرار، يتابع القطط من حوله، وكأنها أهم ما لديه في هذا المكان ويحرص عليه.

بيـد أن صاحبـي لم يـرد أن يستسـلم، ونغـادر، دون أن نرضي فضولنـا، أو للصدق فضولي في أن أسـمع منه، أي شـيء أو فكرة، أو رأي أو تفسـير لحقيقـة وضعـه. فالتمس مدخـلا للحديث، كان الشـرارة التي أعطتنا حديثا لو طال أكثر، لخرجنا من عنده نتحسس رأسـينا.. فلعل العقل قد غادر سـاعتها إلى غير رجعة.. فلقد أشـار محمد إليه بأنه يحمل ملامح تنذر بالمرض واعتلال الصحة.

شرد الرجل، وعاد سريعا ليقول:

ـ لا يوجد شيء اسمه المرض، لكنه الجسد الضعيف الذي يُهزم في معركة دارت بينه، وبين كائن آخر يريد الحياة. المرض كائن حي، لكنه ضعيف، كي يعيش، يلج للجسد القوي؛ ليستمر، وبعدها حرب سجال، الجسد يريد لأن يبرأ، والمرض يريد لأن يبقى، فتبدو علينا هذه الملامح التي تسمونها مرضا، في حين إنهم الجنود القتلى التي خلفتها المعارك.

حتى القطط التي يزعم صاحبك إنها والنمر أبناء عمومة، ليست كذلك، هي النمر، لكنها لم تحسن استقبال اختبار الحياة واللحم، بعض شقيقاتها نجحن في الاختبار، اعتقدن أن اللحم هو الحياة، خُيروا ما بين المدينة والحضارة، بين الغابة والأحراش، كل اختبار بثمن، القطط اختارت جوار الإنسان، والنمر اختار اللحم والغابة، لا ظلم، كل حي يعالج طريقه بأسلوبه.



ربما لم أشعر في حياتي بمثل هذا الحرج، فالرجل كان حادا وحاسما، دون أن يبدو عليه الغضب. قام بتسفيهنا، وكأننا قد أخطأنا خطئا جسيما. شعرت بالخزي، وبشلل الدهشة، لم أسمع توصيفا للمرض بهذا المعنى، ولا تحليل القرابة التي تربط بين القطط والنمر. كنت أواصل رحلتي مع حديثه كرجل إن لم يكن مجنونا، لكنه مُدهش حد الفجيعة.

كنت أنظر لـصاحبي وأراقب ملامحه؛ أتبين أثر كلمات الرجل عليه، لكنه لم يبدِ أي ملمح يدل على الضيق، الغريب بدا لي سعيدا، نجح في استفزاز صاحبه لأن يتكلم، وكنت احتاج لذلك فعلا، أريد أن أفهم. عاد الهدوء مجددا، واستسلم الرجل للصمت، ولم ينظر لنا فترة.

كان الوضع لا يغري باقتحامه، نحن في امتحان للصبر، لن تجدي معه أسئلة نطرحها، ربما كان كريما معنا عندما طرح أسئلته علينا، بالسؤال عن شجرة عائلة القطط، لكن ما طرحه عن المرض كان غريبا، من الحكمة أن ننتظره، هو يقرأنا بوضوح، وسيؤسس نقاطا يراها نافعة لي، ولأسرة الأعداد التي ستحاوره في هذه الحلقة المرتقبة.

بعد صمت، دعانا الرجل أن نغفر للمكان فلسوف ينتج رائحة مُنفرة بعد قليل، فمواسير الصرف بعد حمى البناء التي اجتاحت الإسكندرية تضغط على شبكة الصرف القديمة،

ـ الأبراج صنعت مأساة هذه المناطق، سترتفع المياه، وتخرج من فتحات خاصة الآن.. هي رائحة لن تكون نفاذة، لكننا سنشعر بها، لا لشيء، لكنها رائحة الضمائر المتعفنة، المقاول الجشع،

ومهندسي الأحياء اللصوص والمرتشين، لم يكفهم محاصرة البحر بالأسمنت، فمنعوا عنا الهواء، حاصروا بيوتنا القديمة بالظل، فلم نعد نرى الشمس، نضيء المصابيح بالنهار والليل، ولا عزاء للمساكين الذين يتكبدون عناء دفع فواتير الكهرباء الغالية، ومعها مصاريف جمع القمامة، رغم إننا واقعيا نعيش في مزبلة مكتملة الأركان.

انطلق ضاحكا في هستيريا، هو يضحك، وأنا ألتمس في داخلي رغبة لا أعرف لها سببا، تريدني أن أبكي. شعرت أن صاحبي قد تسمَّر عند ملامحه، يشاهد كارثة، أو حادثة سير مروعة.

هذا الرجل غريب، صادق، ولا يخشى مردود ما يحكيه من تفاصيل جارحة أو حزينة.

(٤)

بعد عودتنا للقاهرة، لم نعرف كيف مرَّت عليه الأيام، أو الساعات التي أعقبت لقاءه بنا. كان إيماني الشخصي يحرضني للاعتقاد أن هذا الرجل يجيد قراءة أفكارنا، بل أن التوصيف الذي سمعته من أخلص أتباعه؛ كوْن البشر عنده كائنات زجاجية، يرى دواخلها بوضوح نادر، وصف يظل مع مرور الوقت هو الأوقع والأدق.

لا ندري على أي شيء كان يراهن؟ ولاسيما أن الأوراق التي أودعها في أمانة صاحبه فيما بعد لقاءه، كانت تجيب عن الأسئلة التي نطرحها، أو التي لم تُخلق بعد.

كان المزاج شجيا جدا. ونحن نطالع، ونبحث بعد كل هذه الصعودات الدرامية التي حدثت.. أوراق كشفت عن تركيز شديد في التفاصيل التي يعيشها إجمالا، ورغبة لا تفتر في كتابة تقارير، لا ندري لِم بذل ذلك الجهد، ولمن أراد في نهاية المطاف أن تصل؟؟

اهتدينا ـ بعد جهد ـ لأوراق تدل على حيرة أعقبت ذاك اللقاء الذي تم في ضباب البدروم..

....

كتب النبي في يومياته بعد ذاك اللقاء:

لم أجد الليل في فراغ وحدتي، بأكثر رحمة من هؤلاء، لا أدري ماذا يريدون، لم اعتد الثقة في الغرباء، أشعر بالتوجس، التوتر والضيق. هم أبناء الزمن الذي صنع المأساة، والآن يريدون استثمارها.

حاولت سحب كتاب من ركن، كي أقرأه، وأضيع من هذه الضجة. لست نبيا ولن أكون، ولكني رسول النكبة إلى حدود الشمس؛ كي ترى الدنيا عظيم ما ارتكبت في حق البراءة.

تحركت إلى الأعلى، تجاوزت السفرجي الذي كان له في رقبتي حساب ثقيل، لم أعرف إلى أين أذهب، أفقت، رأيت البحر ممدا على هيئته التي تشبه سكون نفسي، وحيرتي.

لِم حبست دموعي، رغم احتياجي للراحة التي تملأ نفسي بعد البكاء، احتجت للصراخ، أهتف إلى الليل الذي يحيط بي منذ جئت للدنيا. أفكر في كل شيء، ذلك الحديث الذي انتهى للتو، فجعلني نهبا لرعب، لم أذقه من قبل، ولجت لرمال الشاطئ، أفكر، دون الشعور بجدوى أي شيء، حتى التفكير.

سبحت في عالم أكبر بكثير من الذي أعيشه، لم أجد عدلا يحكم اللحظة، أين الأزمة في أن أطرح أفكاري في طقس غير هذا؟ ماذا يضير العالم إذا سمح لي باختلاس ساعة؛ أبثه مخاوفي.. متعبٌ أنا، وبداخلي ثورة كفيلة بإحراق العالم.

أرهقوني بهذا الحديث الذي أمقته، أنا بالفعل أكره الناس، وسيء الظن أن يأتي اليوم الذي يدركون فيه سلامة طويتي، وخوفي وإشفاقي على أجيال لم أرها، وإن كنت أتحسس مستقبلها، فأجده أكثر قتاما.. متى سينتهي هذا الشعور باللا متعاض؟

بدأت تباشير الصباح، انزعجت، نهضت إلى حيث طريقي الذي سيقودني إلى غرفتي. أحتاج لأن أنام لأول مرة في حياتي. صادفت واحدا من جيلي، لم أرد تحيته، ربما ندم أن ألقاها، لم أكترث،

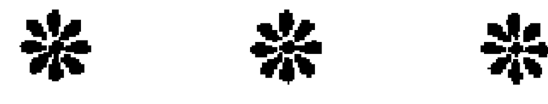
صادفني شـعور كريه؛ أخذت طريقي وأسرعت الخطى إلى المكان الذي ارتضيت به، بعد تنازلي الطوعي عن كل شيء.

إن هـؤلاء لا يدركـون الأزمة، ولقاء الحقيقة التي أبشـر بها، لن يأتي بشـيء، هـم مؤمنـون بجنوني، يتناولـون الجـزء الطريف من القصـة، دون النظر لأبعد من ذلك، أنا رجل خائف. من السـهل أن أسـتجيب لنـداء الرغبة التي تريد أن تتاجر بـي، لكنني أمقت الرهان والمصادرة على أفكاري.

يريدون جنوني، ولا يريدون مخاوفي التي قد تضيء لحظة، أريد الجميع أن ينتبه لها. أعلنت إنني رجل الظل وبيني وبين الشمس خلاف قديم، أتركوني وحدي، أدير العبث دون هذه الجلبة، لكنهم تجار هذا الزمن. ولو تدثرت في رداء من جنون إلى النهاية، ربما اغتلت ما كان يعتمل في يقيني، يوم شرعت في تأسيسها.

قد تستحيل القصة إلى نكبة، أعـرف كيف تفكر عقول هذه المرحلة، ولو أعلنت بطريقتي الأزمة كما أفهمها، ربما شمل الضرر الجميع. مازالت كوابيسي تضغطني. ذلك الطموح المستحيل.. أركض في شوارع لا أعرفها، وتدهسني سيارات عملاقة لا قبل لي بها، أصعد درجات سلم، تنهار درجاته بمجرد تجاوزي لها، اسقط ميتا أو أكاد، أغادر قبري، فيلحقني أعداء الأمس القريب بطعنات لا تعرف الرحمة. غادرت الناس، ولم تغادرني لعناتهم، أنا المأساة، البؤس والشقاء الذي لا أعرف متى سينتهي. ليت أمي لم تفعل، وتستجب لنداء الرغبة التي أطلقته بوهيمية أبي في هذه الليلة، وتمنَّعت عليه لأي سبب من أسباب النساء.

في أي شقاء تركاني، ولأي حياة قذفاني، أنا الغريب المنسي؟؟



وصلت إلى الغرفة، وجسدي كله يعاني ألم التفكير، وليس ألم السير كل هذه المسافة، التي بدت أطول من كل الأيام، لم يسامرني الجار المرتشي، ولا ذاك الموظف الحقير. صعدت السلم المؤدي إلى مقبرتي.. صادفت صاحب البيت..

ـ لم تأخرت؟

ـ كان هناك العديد من الأمور التي تتطلب أن أنجح في حلها.

ـ وهل استطعت؟

ـ ربما، لكنه نجاح بطعم الفشل.

نظر لي، وضحك ضحكة، باهتة وكريهة، ذهب في طريقه، وركضت إلى حيث غرفتي، أريد مخلصا أن أنام.

لم تتعاطف الأقدار مع رغبتي، لا أدري كم لبست في هذا النوم العارض. استيقظت على صراخ لم أسمعه منذ سكنت هذا المكان، ربما كنت أراهن على هذا الذي فجّر هذه النوبة من الثورة والصراخ، لكنه خذلني هذه المرّة، ولست أدري كيف غادر ذاك الجار هدوءه الذي أعرفه.

اندفعت خارج الغرفة لأجد أمواجا من الهياج الذي سيطر على الرجل بالكلية، ولا يوجد على ما رأيت واحدا بقادر على السيطرة على هذه الحالة، ثورة مفاجأة للكثيرين.

أعرف الأزمة، أو أكاد أعرف أسـبابها، فالرجـل يعاني بعد أزمة ألمـت بـه عارضا مـن جنـون، لا يأخذ أي عـلاج يدفع عن نفسـه أعراض الحالة.

ربما لم تظهر على الرجل أعراض كهذه، تحت ستار من الهدوء الكاذب.

اعترتني الرغبة أن أصرخ في وجه الجميع، التزمت الصمت، لكن ظلت حالة الرجل تضغطني بعنف، وكم الضرب والسحل الذي يتلقاه لتهدئته، كان تقريبا ينهال أثره على جسمي، فأتألم معه، أو نيابة عنه. وجدت بعض الجسارة أن اندفع إليه، دون أن أفهم، هل دفاعا عنه، أو رغبة مني لأن يهدأ.. لا أعرف أي الرغبتين كانت حاضرة بوضوح، لكن عندما وثبت عليه واحتضنته، سكن بالكلية، حسبته قد مات. لكن في غور عينيه بعض حياة، ونظرة لم أفهم تفسيرها، حرضتني لأن أبكي فعلا، بكاء لا يمكن أن أسيطر عليه، وخصوصا إذا جاء عفويا بهذه الطريقة.

نظرت للجميع في التماس أن يتركونا، سأعيده لغرفته، واستثمر الحالة؛ كي أضعه في فراشه دون ضجيج، ولينصرف الجميع، فربما مشهد تكالبهم يثير حفيظته، ويجعله مهتاجا.

تفاعل واحد من الجيران مع رغبتي، أشار لهم أن ينسحبوا، لا أدري أي عتاب كان يخرج من عينيه، أو أي خيانة شعر بها لهؤلاء الذين يتاجرون بمرضه، ويهملون أدنى رغباته أن يعيش ما تبقى من عمره هادئا مطمئنا، حيث لا أمل من شفاءه.

كنت تقريبا أدفع طفلا إلى مهده، هدوءه أطل علينا كحدث

مفارق، وبلا أي مقدمات.. لم تكن هزيمة «سعيد» في هذه الأثناء بأكبر من هزيمتي، فحديث جنونه قبل هذه الثورة المفاجأة، لم يكن يشبه أي جنون آخر صادفته في حياتي، تذكرت أيامي الأولى في ذاك السكن، يوم حدثته عن الكذب العارم الذي نحمله في أسمائنا، فهو «سعيد» رغم كل مركبات الجحيم التي عاش فيها، ولست أنا «حسن نوح» فما صادفته من قبح لا يحمل سوى سخرية واضحة من أسمي، و«عادل» البقال هو الظلم مجسدا كحقيقة تمشي على الأرض، وعم «عاطف» هو الآخر واحد من معالم القسوة التي تهبط كأقدار الله. وجدتني أعيد عليه الحديث. ربما ضحك في منتصف كلامي الذي كنت أقوله، وأنا لا أدعوه للتسلية بهذا الحديث، بل كنت أبكي بدموع حقيقية، ولو إنها لم تغادر عيوني التي جمَّدها المشهد.

اختلطت عليا التفاصيل، ليلة طويلة هذه الليلة، فمذ غادرت البدروم على أثر اللقاء الذي يدعوني لمغادرة الظل، وكل تلك الهواجس تسيطر على تفكيري، وعودتي هنا للنوم، الذي لم يكن هادئا أبدا، ومشهد «سعيد» في عارض هستيري غير مسبوق، كلها وضعتني في ركن من هذا الظل الذي أعرفه ويعرفني، ولكنه مشوب بالحيرة والارتباك الذي كنت محتاجا لأن أبحث في طريقة مبتكرة للخروج منه.

نظرت مجددا للأسبوع الذي تركه لي ذلك الشاب القاهري كمُهلة للرد. لا أذكر كم من سيجارة دخنتها في براح غرفتي على عكس أسلوبي المعتاد، أنظر من نافذة الغرفة التي تطل على المقابر، ومساحة واسعة من الخلاء، يكسوها الأخضر الباهت،

والأصفر اليابس، لم أكن أنظر بنية التأمل. كل الطرق ستؤدي إلى قرار، دون أن أعرف ما هو. والشابان اللذان رافقاني بطول القصة لديهما شوق جارف لخوض التجربة، دون أن أفهم حقيقة دوريهما فيها. بريئان، لكنهما لن يقدما مبررات مقنعة لمغادرة الإسكندرية.. نفَّذا بإخلاص ما كنت أريده، لم يفكرا لحظة في مراجعة أي توجه حرصت عليه، أو سعيت له، لكن هذه المرّة لا يدركان خطورة علاج قصتنا علاجا قد يفجر أزمات أكبر منا.

لم أر الأمر في ثوب العدل المفقود الذي كنت أبحث عنه، الصدق أن القصة بدت تستفز دعاة الإثارة، الأعداد مخيفة، الأتباع في تزايد، أخبارنا تجاوزت الواقع الافتراضي، دخلت إلى الناس في بيوتهم، ومقاهيهم، وأحاديثهم، استفزت حتى الذين ينكرون الدين أصلا.

كنت محتاجا أن أسمع في هذا اليوم، فلا القاهرة، ولا الرحيل إليها يشكل أي إغواء، والقرار لن يكون إلا بعد أن أسمع كيف هي النظرة التي تعتمل في عقول المقربين مني في ذاك الموقف.

لم أجد شهية لأي طعام، رغم إحساسي بالجوع، دخلت إلى المقهى، ومنه للبدروم، ووحدتي التي لا أعرف سواها، أشعر برأسي، وكأنها قد غادرت جسدي، أتخيل نفسي وقد كشفت شاشة هذه الفضائية عن وجودي، يعتريني انقباض، وشعور بالندم أن سرت في هذا الطريق، أشبه برجل تزوج سيدة حسبها جميلة، فوجدها في رحاب بيته بالغة القبح.

وُضع فنجان قهوتي المُر، ولم أشعر به، مددت ساقي أمامي،

وألقيت ظهري، ولا أدري؛ هل كنت بين اليقظة والنوم، ذهلت عن كل شيء. اليوم منذ بدأ كان مجهدا. في الفنجان الثاني وصل إلى أذني صوت قرآن يُتلى، سألت عن سرادق من الذي نُصب في هذه الناحية، سيدة، أبنها زميل قديم، تقطعت بنا السبل، لكنها سيدة فضلى على كل حال، قمت على عجل، ذهبت إلى السرادق لتقديم واجب العزاء.. وجدت الشيخ الذي يتلو آي الكتاب هو الآخر زميلا لي، يقتات بالقرآن، أعطاني بعض الإشارات الموحية، تحيات وسلامات بعيدا عن الميكروفون، وأشرت نفس الإشارات في معرض ردي عليها. لم أركز في شيء، والشيخ على الراجح بدا صوته متأثرا بالدخان الذي يشربه في الاستراحات البينية، بين هذا الشيخ وذاك.

خرجت إلى الشارع بعد هذه الهمهمة التي تعني «غفر الله ذنبك» و«شكر الله سعيك» دون أي رد فعل مني حيال صديقي القديم الذي كان يقف في صفوف من يتقبلون العزاء في ثبات لافت، دون أي علامة تنذر بأنها أمه. رغم أن بموت أم من أمهاتنا، يفقد العالم الكثير من بهائه.

رجعت إلى أزمتي، رغم امتداد الأسبوع أمامي بكله، لم أشأ إزعاج أحدا يشاركني التفكير. لا لشيء، معظمهم لا يعرف القصة، ومن يعرفونها، قد غرهم الضوء المنتظر في ليالي القاهرة الفضائية، وغواية الظهور على الناس في ثوب الجنون المثير.

وصل الشابان، كان وجههما يشع تفاؤلا بهذه الخطوة، حداثة سنيهما تغري بهذا، لا يدركان الخطورة، الظهور الإعلامي بما صممناه من تفاصيل غير مطروقة، سيضعنا تحت دائرة ضوء.

كنت مشغولا أن أسمع رأييهما، والذي لم يكن بعيدا عن ما تخيلته، أخذهما الأمل أن ننشر دعوتنا إلى آفاق أوسع، دون النظر لتداعيات الانتشار، يتمنيان لي انفراجة في موقفي حيال الواقع الذي انفصلت عنه لسنوات. وكأن أملي قد انحسر لهذا. رغم كوني مكتئبا منذ لقاء هذا الشاب الذي تحدث معي نيابة عن هذه المحطة.

بدا «التابعي» دون «نور الدين» أقرب إلى حالة التوجس التي اعترتني، يشعر أن القصة ربما تعرضت لضرر لم نكن نقصده، آثر الصمت أكثر من صاحبه، لكن تخلل الصمت حديث، كنت أقرأ مفرداته في عينيه القلقة.

ـ إذن تريداني أن أخرج إلى الشاشة، نؤصل قصتنا أمام الناس، تريداني نبيا، رغم إنكما تدركان أن هذا لم يكن منتهى ما نطمح إليه، إنكما لا تعرفان مآل هذه القصة، مازلتُ احتفظ ببعض أسرارها لساعة الحسم التي قد تضع القصة وحياتي نفسها على المحك، ستترك الناس تتاجر بي، وربما راهنت على جثتي نفسها في منعطف لا أتمناه لهذه الفكرة، التي صغناها منذ خريفين في هذا المكان.

انكرا الشابان في صوت واحد كل الظنون التي طرحتها، لم يتعاطفا مع ما قلته، وإن ظلا في دائرة القلق المبرر، لكن تظل ثقتهم في؛ هي التي تشعرهم ببعض الأمان، فلن أتركهم يؤسسون لي كمجنون مهما حدث.

أخذتني الرحمة بهما، ولم أشأ تحميلهما أكثر مما يحتملان، القصة أكبر منهما، كانا داعمين لها ومخلصين لي. كنت ميالا

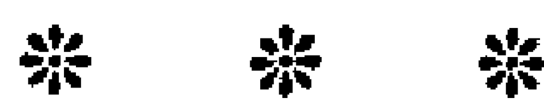
لإشباع الرغبة لأن أظهر عبر هذه الشاشة. لم أخف من كوني هذا الرجل الذي يؤسس للإثارة، كي يتاجرون به، وعندي من الثقة ما يؤيد حضور الربح المتوقع من حصيلة الإعلانات والرعاة المحتملين وقت إذاعة الحلقة. وددت لو انتحلت سمت تاجر حاذق يستطيع استثمار هؤلاء المرتزقة، فمؤكد هذا الجانب من الرغبة في استضافتي حريص على هذا المعنى المتجه للربح.

أدركت أن المسألة بالنسبة لي خط بياني سينكسر قريبا، يجب وضع النهاية. المرة الأولى التي اعترف فيها بين نفسي وبيني أن هذه المسألة قد أرهقتني فعلا، كان رد الفعل أكبر من رهاني، تفاعل الناس على عكس ما تمنيت، عمَّق عندي الشعور بالصدمة، لكن لن أترك البوصلة في يد أحد غيري.

أين كنت من بعض القسوة، طلبت من الشابين أن يتركاني، وخصوصا بعد أن دفعتني تفاصيل اليوم للمبيت في المقهى، لن أترك نفسي لحركة الأقدار والساعات الباقية من هذه الليلة ما بين الرغبة في الراحة والإصرار على تجهيز نفسي لخطة استثنائية؛ لأن العبث معي، سيؤدي إلى نتائج لا أحبها.

لم تنته الليلة كما تمنيت أن تنتهي عليه، أقتحم وحدتي في هذه الساعة «محمد عثمان» منفردا.

كنت محتاجا لأن أفكر بصوت مرتفع مع الرجل الذي شاء له القدر أن يدخل قصتي، في صدفة من نفس مزاج الغرابة التي بدأنا منها، لا ندري أين ومتى ستنتهي.



(٥)

لم تكن الفكرة التي تسيطر على الرجل من خلال دعوته ودينه الجديدين، مُصدرة لقلق أكبر من القلق الذي سيطر عليا بمجرد اعتقادي، إنه لن يكون بأي حال تحت سيطرتنا. كل الإشارات التي جمعتها من حديثه مخيفة، وتوجيه دفة الحوار بعيدا عن إرادته؛ لأن يقول ما يريد.. مغامرة.

لـم أكـره الجبن الـذي تعامل بـه «محمـد عثمان» مـع الفكرة. اعتبرتـه في لحظة ما، فهماً عميقا لطبيعـة رجل يعرفه، أو يكاد. بل، عندمـا فكرت في حديث مُعد البرنامج عن هذه النوعية من البشـر، كنت اسـتعيد مفرداته، التـي إذا ما قورنت بما لدينـا من معلومات؛ تشير لغباء، وقلة فهم قاتلة، لهذه الأنماط من البشر.

لم يتصوَّر مُعد البرنامج في محطتنا المشبوهة، أن يظهر في هذا الزمن من يصطنع دينا، يجمع حوله الأتباع، لم أشعر بإيمانه بالفكرة أصلا. ظن إنها واحدة من علامات انحطاط الوعي، أو هي المخدرات، الضياع والفراغ، لشباب يعيش تقريبا بلا قيمة، أو هدف واضح، لا كبير ولا قدوة، ولا ثقافة، ولا أي شيء. لكنه لم يخفِ دهشته حين علم أن الرجل الذي صاغ هذه القصة الميلودرامية في منتصف العمر، بل ويقترب حثيثا من الخمسين. وأن صديقي الذي دعاني للانتباه لهذه المسألة، لا يتفق مع هذه التصورات، كونه شابا يعاني شيئا ما. بينما آمنت إنه كبير وناضج، ألتمس شيئا ما يريد أن يقوله، رغم هذا الجنون كله.

حاولـت إعـادة النظر للموضوع، فـي هذا الظرف الاسـتثنائي. طالعـت الصفحـات التـي أطلقهـا مريدوه علـى مواقـع التواصل الاجتماعـي، ربما لـم يصادفني هـذا الكم مـن المعجبين لصفحة عربيـة علـى الأقل. ولـم أفهم بشـكل محـدد أين هـي الأزمة؟ ولـم أشـعر أن الرجل يمارس عبثا ليس مدروسـا، بدت لـي حالة أقرب للامتعـاض والكفر، لكنها جديّة بشـكل مرعب. أقواله ممسـوحة ببعض القداسـة، ولم أسـتطع أن أجحد مزاج الحكمة الذي يتسلل منها.

التعليقات بحجم المطر، والناس مخلصة للتواصل مع رسولهم الجديد.

كنت ألتمس معنى الجسارة في سعيه لبث هذه الرغبة. فالبلاد لا تخلو من تزمت كريه، وتُهم الكفر والإلحاد، حاضرة كالهواء، والرجل يمضي في طريقه، لا يعوقه شيء، والأتباع في تزايد.

اللافت أن وجدتُ كما هائلا من الصفحات التي انبثقت من الصفحة الرئيسية، بعضها بلغات مختلفة. والغريب، وجدت الأعداد كبيرة أيضا. أسأل نفسي عن هذا الجنون المؤسسي الذي يقف مع الرجل فيما يريده. ومن ثم أعود لنفس الرغبة المحمومة لكي أفهم.. يريده؟

ماذا يريد حقا هذا النبي الكاذب؟ وماذا يريد الأتباع الغائبون عن الوعي؟

لم يكن الأمر عصيا على التفسير، مؤكد من المؤمنين به من يجيد لغة أجنبية، لغات قرر في لحظة لا ينقصها الجنون، أن يخاطب بها العالمين!!

ليلة كاملة جلست فيها مع المُعد، ندرس حركة الرجل في العالم الافتراضي. أقواله، طريقة حديثه في مقاطع الفيديو المختلفة التي يرفعها أتباعه.

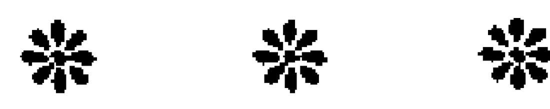
للمرة الأولى رغم إيماني بشخصيته المستغلة والطموحة بغير احتياط، وصلني قلقه. بات نهبا لحالة تردد، يعيش بين اختيارين صعبين فعلا: طموحه الشخصي، ومعرفته بالمحطة المولعة بمثل هذه الشخوص الجالبة للإثارة.

ربما لم يكن خائفا من الرجل ودعوته، لكن الطقس كله ـ ربما ـ سيتعامل مع فكرة لقاء الرجل عبر القناة؛ باعتبارها محاولة لا ينقصها التحريض على إحداث فتنة، أو هي السخرية المبطنة، أو الصريحة من دعاة التدين على اختلافهم.

لم أستطع أن استنبط معنى إيجابيا واحدا من مجرد لقاء عابر للرجل، كي يفهم المتدينون والدعاة أن فكرة الدين نفسها في خطر. فالإلحاد قد بات في طور الظاهرة، واللادين صار اتجاها للكثيرين، حتى المثقفين. والرجل القابع في الثغر قد ضرب النموذج أو يكاد، كونه يبشر بدين جديد. والمدهش، أن الأعداد التي تلتف حوله في تزايد مخيف. والمفارق حقا، أن للرجل وأتباعه شعائر تمارس بلا أي تحفظ، في الخلاء، وفي الحدائق المفتوحة، ودروسه يتم تصويرها، وتبث على الناس في مواقع التواصل، تلقى الحفاوة، وكأنها وحي مُنزَّل.

بعض مصممي الإشاعات قالوا: إن له سنوات طويلة يدعو

الأتباع ســرا، وبشكل يعتمد كليا على الثقة في الآخر الذي يريد لأن ينخرط في صلب الدعوة. !!



انقطعت الاتصالات بشكل نسبي مع «محمد عثمان».. هو على الأقل قد عرف الطريق إلى حيث صديقه القديم، متى أشتاق لرؤيته، لكن مسألة حضوره للقناة، وتسجيل حوار معه لم تكن تشغله، إلا لكوني قد ارتبطت بالقصة من خلال الاستغلال الإعلامي لها، واعتبرتها محطة فارقة على الطريق، حتى وإن بدا المجد المتوقع منها، لحساب المُعد الرئيسي للبرنامج.

فكرت بطريقة براجماتية أن أذهب لمدير القناة، كي نحفظ لنا طريق العودة الآمنة، إذا ما فشلنا.

طلبت المقابلة وسُمح لي، لم تكن ملامحه تغري بالاقتحام. لكن جمَّعت نفسي، وطلبت أن يسمح لي وقته أن أشرح المسألة، التي كلفتنا بها المحطة في أمر تتبع الرجل السكندري، الذي أطل على الناس في صورة من يدَّعي النبوة، ويؤسس دينا، يستدرك الديانات الأخرى.

سيدي..

المعلومات التي استطعت تجميعها عن هذا الموضوع، لا يمكن الشك فيها، وخصوصا أن الذي قام بها في المقام الأول، تربطه صداقة قديمة بهذا الشخص، وفي ذات الوقت، لا توجد ثمة مصلحة تدفعه دفعا لأن يضفي من عنده أي معنى قابل للشك، أو التسفيه. لذا أستطيع الجزم إن هذا الرجل ليس مجنونا بالكلية.

وحتى لو استطعنا بمهارة أن ننشأ هذه الحقيقة أمام المشاهدين، فالرجل على الراجح لن يترك هذا ليحدث. فعلى ضوء ما سمعته منه، لا يمكن المخاطرة بالجلوس أصلا معه، ونخشى أن نؤسس اتجاها، فيأخذنا هو في اتجاهه.

إن شيوع هذه المسحة من التزمت والتدين الشكلي، ربما تضع الفكرة نفسها على المحك، أو تضع المحطة في اختبارات مصير. فالتُهم هنا جاهزة بالكفر وازدراء الأديان، . لذا، فلو تركنا الأمر ـ مؤقتا ـ لحين ألتماس طريق آخر للحوار، يساعدنا فيه هذا الصديق، ونحدد من قبل أن نخرج به على الناس؛ ما الرسالة التي يجب أن تصل للمشاهدين، قبل إحضاره للقاهرة. سيكون الأمر أكثر أمانا. بل ودون التجاوز مني على المذيع المحترم، الذي يقدم البرنامج، أشعر أن لقاء بهذا الشكل سيكون أكبر منه. وأحلم بفكرة، ربما تفيدنا، إذا انتدبنا لهذه الحلقة مذيعا أكبر، وأكثر تأثيرا يديرها كما نريد منها، وفي ذات الوقت يضع اللجام لأي تطرف قد يصدر من الضيف، فينعكس هذا بدوره على القناة، وسياستها وتوجهاتها.

كان كرم الرجل لافتا ومشجعا، سمعني بتركيز، لم يقاطعني بطول حديثي، يسجل على ورقة أمامه، بعضا من ملاحظات تأتي على ضوء ما أقول. وقبل أن أهم بالانصراف، وعدني بالبحث في المسألة مع أصحاب المحطة، وأسرة البرنامج، من أجل التنسيق اللازم.

لم أجد فيما فعلته نوعا من خيانة الحديث الذي دار مع المُعد،

كل ما فكرت فيه، أن لا أعيش على أمل يبدو في ثوب سراب، فليس سهلا الانفلات من مغبة حديث صاحبي الذي أثَّر في قناعاتي، وصنع مخاوف جمَّة من هذه المغامرة. لكن في صبيحة اليوم التالي، وجدت أن المدير الذي كنت عنده بالأمس، يرسل في طلبي، وقيل لأمر هام وعاجل.

صعدتُ إلى حيث مكتبه، كانت كل الأمور في شكلها المعتاد إلا وجهه، بدا لي مختلفا بالكلية عن وجهه أمس. يرتب أوراقا، ويذهل عني؛ كي يرد على الهاتف. أو يرفع السماعة كي يعطي أمرا. أو يسحب ورقة ليسجل شيئا. نجح في تصدير حالة توتر استطاعت التسلل إلى نفسي. ورغم حرصي أن لا أدخن أثناء تواجدي بالمحطة، سألته أن يسمح لي، فوافق، وبعد فترة من الانتظار، وجدته يغيِّر كل الصورة التي جمعتها بالأمس عن سجاياه التي لمستني عند لقاءه.

تدري...؟؟

لقد بحثنا في كل كلمة قلتها، وجدنا مخاوفك مشروعة ومنطقية جدا، الطقس لا يسمح بمثل هذه الهرطقات، البلد على صفيح ساخن. الأزمات لا حصر لها، المعاناة شاملة، ملفات كثيرة مسكوت عنها، لا يريد أحد الخوض فيها، أو يجد في نفسه جسارة اقتحامها، لكن مُلاك المحطة، وبعض الخبراء، والإعلاميون الكبار، أساطين المهنة، وجدوا أن لقاء هذا الرجل ضرورة؛ لتحريك بعض البحيرات الراكدة. لذا فقد تم تكليفك بشكل شخصي،

أن تُعد هذه الحلقة على ضوء المعاونة المتوقعة من صديقك الذي أمدَّك بالمعلومات المبدئية عن الرجل وظروفه. وفي قادم الأيام إذا وجدنا الاقتراح الذي اقترحته بأن يتولى تقديم هذه الحلقة ـ تحديدا ـ مذيع ذو خبرة، وشخصية، وقبول لدى الناس، فسوف ننجز ذلك مهما كلفنا.

في البداية لم أملك جرأة مقاطعته، لكن مع استمرار حديثه على هذا النحو استطعت أن أسأله.. وهل هناك ثمة عجلة في الأمر، أم أن الوقت مازال ملكا لنا؟

قال: لا وقت عندنا، فلو استطعنا أن ننهي هذه الحلقة اليوم لطلبت ذلك، وفورا.

ـ هل من جديد؟

ـ لا. فقط المحطة وضعت الفكرة على جدول الأعمال، ويجب أن ننفذها.

ـ رغم كل المحاذير؟

ـ رغم كل المحاذير.

خرجت من مكتب الرجل دون أن أفهم ماذا حدث في الساعات الأربع والعشرين، وكيف وأين اجتمع مُلاك المحطة بإدارة القناة. أفي المسالة عجلة أم إلحاح؟

وجدت الكثير من الأسئلة التي تطرح نفسها بقوة، بمجرد خروجي من مكتب المدير. ولزاما أن أفكر مع عقلية وروح، أكثر حيادية من هؤلاء التجار.

وجدتني أبحث عن «محمد عثمان» كالمجنون، والذي ذُهلت عنه كثيرا في الفترة الأخيرة. أردت أن أفهم كيف سيفسر هذه

الخطوة التي بدأتها بتأمين طريق العودة، وتجاوز الفكرة برمتها، ولقاءي بالمدير، وما حدث فيه، وهذه التطورات التي جاءت على عكس ما توقعت، فلقد أخذني الأمل أن تستمر دراسة الموضوع، في ذاك الطقس المرتبك شهرا على الأقل.

كانت حركة الأقدار غريبة، كأنها تدفعنا دفعا للقاء الرجل، وتقديمه بالطريقة التي لن تتفق بأي حال، بين ما نريده منه، وما يريد هو أن يؤسسه لدى الناس. لكن ظل الثابت الوحيد، أن مع كل مرَّة أفكر في هذه المسألة، يتتابني الخوف. تذكرت أن هناك ثمة أمر تكليف بإعداد الحلقة، وفي ذلك إشارة مهمة إنني قد تجاوزت المُعد الأصلي. وفي هذا وعلى أثره ستكون المسئولية كبيرة.

الغريب أن اقتراحي باستقدام مذيع كبير، له القبول الجماهيري الواسع، كانت فكرة مقبولة، بالفعل، فمذيع البرنامج الذي نعرفه على ضوء سماته الشخصية، وما نلمسه من مقدراته وثقافته، لن يستطيع التحلي بالخبرة الكافية للقاء رجل مؤكد ليس نبيا، لكنه مجنون أو يكاد، وفي ذات الوقت يمتلك حجية وإقناعا، لذا فيقين المراوغة يجب أن يكون حاضرا، كي نسيطر سيطرة كاملة على الحوار، أو للدقة مفاصل الفكرة التي نريد تصديرها للناس من خلاله. دون أن نسقط كضحايا للرجل، وننتهي في يقين من يتابعون الحلقة على إننا نشاركه هذه الهرطقات.

في المسافة إلى حيث السيارة، سمعت رنين هاتفي رغم الضجيج، والغريب لم أجد اسما. رقم خاص، حسبتها مكالمة خارجية، جاء الصوت مهنئا، كوني قد صرت مُعِدا، وأمنية أن تكون الحلقة المزمع حدوثها غير عادية.. والأغرب أن المكالمة

القصيرة جدا، لم تبدأ بالتحيات، ولم تنته بها. ربما ذهب ظني لمالك المحطة. لكن تراجع هذا الظن لأن المسألة في نظري لا تستدعي هذا، بل إن مُلاك المحطة لا تعنيهم أصلا هذه الأمور، بقدر ما تعنيهم الأرباح.

بمجرد دخولي للسيارة اتصلت بصاحبي الغائب، رد عليَّ هذه المرّة، بدا لي صوته مختلفا، متوترا وقلقا، تحدثت كثيرا، ولكنه رد باقتضاب بالغ: أنا في البيت، إذا كنت تمتلك وقتك، فلتمرَّ عليَّ.

غيرت خط سيري، كنت أحتاج الجلوس إليه، وسماع رأيه في الورطة التي وقعنا فيها. كنت أشعر بالندم أن توقفت كثيرا عند هذه المسألة، وتفاعلت إيجابا مع فكرة المُعد، الذي لا أدري ماذا سيقول عني، إذا علم إنني قد قابلت المدير مرتين، وكلفني بما كلفني به، ووضع خطة لإدارة هذا اللقاء الذي نجهز له من الآن.

لم يكن صوت «محمد عثمان» هو المُختلف، بل وملامحه أيضا. الكثير من الانطباعات المتداخلة تظهر بجلاء. لا أعرف ماذا جدَّ عليه من أمور.

سيطر على نفسه ثم قال في حسم:

لا أشعر أن رغبة لقاء الرجل أصبحت باختيارنا. فما حدث في الأيام الأخيرة مُريب، وغير مطمئن. منذ يومين وأنا أتردد على مكتب، لا أعرف تحديدا ما هو، ملحق بمكتب توثيق مبنى جامعة الدول القديم.

لم يأتوا بمجهود مبالغ فيه، من أجل تضليلي، هم على علم بالقصة كلها، ويعرفون إنني قابلته في الإسكندرية، ولم يتدخلوا

للحظـة فـي متابعتـه متابعة تضايقـه، أو تحول دون أن يسـتمر فيما ينحتـه مـن أفـكار مع الذيـن يعتقـدون فيه، بـل إن فكـرة البرنامج حاضـرة لديهـم، ودعوني بشـكل مباشـر أن أسـاعدك فـي إنجاز الحلقـة، وإعدادهـا، وعندما قمـت بتصحيح وضعك فـي يقينهم، قالوا بحسـم: إنك مأمور بإعدادها. والمسألة كلها مسألة وقت؛ كي يخـرج اللقاء محققا الهدف منه. وعندما سـألت عن الهدف. كانت الطامة الكبرى التي غيَّرت الأسلوب تغييرا كبيرا. تنازلوا عن أدبهم، ووجـدت لهجة هي إلى الأمر أقرب منها للنصيحة، بل قل التهديد. حتى أنت لم تسلم من حديثهم، فلقد أشاروا عليَّ أن أنصحك بعدم الاستسلام لخوفك من الفكرة، ونسيانها تحت دعوى الحساسيات الخاصة بمسائل المقدس والدين وغيرها.

تقريبا لم أسمع «محمد عثمان» في كل ما قاله، سقطت بعض التفاصيل، وإن كان يدَّعي إنه لا يعرف من هؤلاء، فأنا بالضرورة أعرف، وأدرك الآن كيف تغيرت القناة من النقيض للنقيض، رغم مخافة التورط في هذه المسألة، حتى مع الثقة في كم الأرباح التي ستدرها الحلقة من الإعلانات والرعاة.

كنت أجيب العديد من الأسئلة التي كانت تسعى لاستجلاء دور هذا الجهاز الخطير في حياتنا، لكن لم أكن أعرف إنه موجود حتى هذا المستوى من الأمور، لم تأخذني الدهشة ربما، فالدائرة تدور، والقصة تسير بإدارة أمنية بامتياز، ولا غضاضة من وجودهم، حتى في هذه القناة وأروقتها وإعلاناتها أيضا.

كل الطرق تؤدي إلى حيث هؤلاء، مات من مات، وقتل من قتل، وكثير ممن أعرفهم، أو أعرف بعضهم اختفى في حوادث غامضة. لكن الثابت إنهم موجودون، حتى من قبل أن نقع في غواية البحث عن السكندري المشكلة. هذا المسكين البائس الذي لا يعلم ـ ربما ـ ما يدور من حوله، أو يعلم، أو لعله جزء من هذه المسألة برمتها، في واحدة من تصدير القلاقل والخزعبلات؛ كي ينشغل الناس بالتفاهات والقشور، وينسون الحد الأدنى من الحياة، التي باتت في دائرة الحلم البعيد.

استقبلت التطورات الأخيرة، التي جاءت في حديث صاحبي الغائب بشيء من الضحك اليائس، لم أعد مهتما بأي تفاصيل، غير فكرة البحث عن مدخل يجعل الأمور في شكلها الطبيعي. أقول في السر.. القصة يجب أن تسير، الثمن المدفوع عادة من أجل الحقيقة، يجب أن يكون باهظا، لا تراجع، هي حياة واحدة وموت واحد، ولا غضاضة مطلقا من موت لا يكون مجانيا، كالموت في حوادث ساذجة، وأمراض في كثافة الغبار.

ربما لم أنتبه لنظرات محمد عثمان ساعتها، كنت مستسلما للسباحة في يأسي الساخر حد الفجيعة.

مؤكد كان ضحكي مباغتا، والحقيقة إنني بالفعل كنت أضحك؛ لأن الموضوع قد انحرف دون قصد منّا إلى حدود الفانتازيا، فلم نكتف بالتواصل مع القصة كونها جنونا، لكنها صارت أقرب لحدود العبث، والرجل القابع في الثغر، لا يمكن المصادرة عليه، لو كان بالفعل يبتغي أن ينتهي في يقين من يعرفونه كأسطورة.

هو حر على كل حال، لكن السؤال.. أي شيء في هذه الحياة لا يخلو من هذا الجنون، والعبثية المؤسسية ربما.. من يجلس على كرسي يستحقه في هذا الوطن المغبون، كيف عشنا هذه السنوات مع ذاك الكم من الارتجال والعشوائية. القاهرة نفسها التي عشنا فيها كل عمرنا، كانت تجسيدا مؤلما للجنون.

من فينا تزوج يقينا من البنت التي أحبها، ووضعها في حضنه، كي يلتمس في وجودها وجوده، كتب من أجلها، أو تمنى على الأقل أن يكون شاعرا؛ كي يكتب عنها ديوانا للخلود، يقرأ منه لأطفاله حين يكبرون، يشرح لهم كيف هو الحب، وكيف وقع في غرام أمهم ذات قدر عطوف. كلنا محاصرون بالأوهام، ومصانع لا تنتج إلا الإحباط.

لم أنسَ ما سمعته من خالي، يوم مات أبي، ظل الأطباء في الاستقبال يخدعونه، هو بخير، سيكون حتما في أحسن حال، وعندما تجرأ على لمس جسده، شعر ببرودة شديدة في جسده، وزبَدة تعلو شفتيه، وعندما قارن ما يسمعه بما يراه، قال لواحد منهم ببراءة: أشعر أن الرجل قد مات، فيرد الطبيب، ببرود كافر: إذن مات.

كل الطرق تؤدي إلى العبث، هي قصة انتحارية، سنؤديها للنهاية، فقط ننجح في اصطياد الرجل؛ كي ينفذها معنا. ومؤكد أن صاحبي أيضا لم يعد يمتلك رفاهية الاختيار، سيساعدني، وربما يشاركني الإعداد لهذه الحلقة. سنتجاوز المُعد، ليست هي المرة الأولى التي يتجاوز فيها الناس على بعضهم. سنتاجر بالقصة مهما كلفنا هذا، طالما أن في نهاية المطاف توجد جهة تراقب،

وتتابع دون أن تتدخل لإحداث أي واقع جديد على الأرض، يمنع هذه الأفكار من الوجود. للتخديم على مفكرة الوالد والزعيم.

كان الطقس وغرابة الأيام الأخيرة جالبا للإحباط، هنا، وهنا فقط. أشرت على صديقي محمد عثمان بضرورة الرحيل للإسكندرية للحديث مباشرة وبوضوح عن هذه الرغبة، لا مجال بأي حال لأن نحترم الرجل أكثر من اللازم، هو نصف مجنون، ونصف ساذج، وتافه.. لا يجب أن تأخذنا به شفقة أو رحمة، ففي هذا الزمن، الناس ليست في احتياج لمثل هذه الترهات القميئة التي تؤسس أفيونا جديدا للتضليل، فالناس مُضللة من الأساس.. أي سخرية تلك التي تنطلق من عقول شاذة ومتطرفة في سفه؟؟

في هذه اللحظة كنت أغبط سعة صدر صاحبي، وصبره، كانت لهجتي غارقة في يأس لا أعرف مداه، التفاصيل تأتي سريعة، تضغطني، تشعرني بأجواء لانهائية من التوجس.. أمي التي ليس لها بعد الله غيري، عمري الذي يتسرب كالماء من بين أصابعي، حبيبتي، أو من ظننت إنها كذلك، لم تفكر للحظة كيف هي حياتي بدونها، هي التي وعدتني أن لا تتخلى عني أبدا. الفرص وأنصاف الفرص التي جمدت حلمي عند هذا الكادر الوظيفي الذي لا يقترب بأي حال من طموحي. الطقس العام من المخنثين والمدجنين، ومدَّعي الثقافة والأفكار، الذين لم يحركوا ذرة رمل من جبل النظام. من أين تأتي الثقة في التغيير، والناس والمجتمع بكله في ظل هذا الجمود.

أشهد إنه لم يُعلق، أو يتشابك مع أفكاري اليائسة، ولم يرد حتى على تجاوزاتي التي أبديتها في حق رجل ليس بيني وبينه أي

دم، أو ثأر قديم، كل منا يسعى للقصاص له. لكننا ضحايا الوقت وتفاصيله المجحفة، والزمن الكافر في كل حركته. لذا غفر لي، وتركني على وعد أن يدبر حسب ما يتناسب معه، ومع ظروفه موعدا، نتحرك على ضوءه لإنجاز مهمتنا، التي باتت في قوة القدر الذي لا فكاك منه.

(٦)

كان من الضروري أن نتفق على عدم الاتصال بالمهدي، فقط نندفع لعنده، دون سابق إخطار، نتحدث مباشرة، إننا في طقس يجب استغلال كل ما فيه، بل ومن العدل أن ننصحه أن يستغل هذا التهافت عليه، كي يؤسس وضعا ماليا، قد يفيده في قادم أيامه.

إمعانا منا لجعل الزيارة ببعض الخصوصية، قمنا بتأجير سيارة لمدة أسبوع، تجعلنا قادرين على الانفراد بالرجل، والتحرك في دوائر أكبر من دائرة المقهى، وذلك الظل القابع في النسيان، بل ولو استطعنا أن نستأجر شقة يبيت معنا فيها؛ كي يكون شريكا لنا في كل تفاصيل يومنا، ونعيد قراءته إجمالا، قبل تأسيس القصة التي نحتاجه من أجلها.

على التوازي، بدا «محمد عثمان» مرحبا بالفكرة، وأثنى عليها، وجعل لها أهمية كبرى في شكل إدارة هذا الرجل، الغريب أنه لم يراهن على حلقة واحدة، بل ذهب لأبعد من ذلك.. إن مجرد حلقة يتيمة، طموح ساذج، ولسوف يجبرنا في زعمه على تكرار الأمر، لو في حلقة ثانية، أو ثالثة.

تبادلنا الأدوار، ومن حظي أن جاء الدور عليه في القيادة، ونحن يقينا في رحاب الإسكندرية أو نكاد، لأنه أكثر مني دراية بهذه المدينة. ولم ننتظر، بل فكرنا أن نصطحب معنا طعاما ونهبط للبدروم مباشرة.

وجدناه، وكأننا قد تركناه منذ ساعة، وليس أياما، قام لتحيتنا وبدا عليه الشعور بالاحتياج لنا، رأينا هذا المعنى يقفز من عينيه، لا ندري احتياجا أو شوقا، أو أنه بالفعل في أزمة قرار، لرجل لم يحسب أن قصته قد تصل إلى هذا المستوى من الإلحاح.

بحب بالغ، أخرج «محمد عثمان» الطعام، ودعاه للأكل، وأنا بدوري كنت جائعا لدرجة مرعبة..

لاحظنا رغم أنه قد أكل، أن شهيته للطعام لم تكن مقبلة أصلا، ولم نشأ أن نسأله عن سبب الحالة التي رأيناه عليها، أو قمنا بتأجيل السؤال.

أخبرناه أن معنا سيارة، فنحن نود الإقامة يومين أو ثلاثة، لكنه أبدى اندهاشا وقال: أفي هذا الشتاء؟

ـ نعم الشتاء، نسمع أن الإسكندرية رائعة جدا في هذا الفصل. نريد خروجك من هنا، نسمعك، ففي المرة السابقة لم نشبع، ولاسيما من هذه الأشياء المثيرة التي تحدثت فيها.

لم يكن صاحبي على استعداد لتفويت الفرصة، دون أن يسأله عن شعورنا المبدئي حيال نظرته لنا بمجرد أن رآنا. شعرنا إنه ينتظرنا، انتظار غريق ليد تخترق الموج، كي تمنحه حياة أبعد من شبح الغرق، في بحر ربما خُلق من فيض ما طرحناه عليه.

ـ نعم.. كنت انتظركم، أو أتمنى أن تكسرا الحاجز، وتأتيا مجددا للحديث عن هذه الفكرة التي عرضتماها عليَّ، والتي تركت في نفسي كل آيات الحيرة.

الشابان اللذان أسسا معي الموضوع حديثا عهد بالحياة، أو أنهما لا يعرفانها كما أعرفها، ضاعا مني في متاهات الحلم، ربما يحبان هذه النقلة، تغريهما أضواء القاهرة، وما يسمعانه عن الفرص والظهور. لكن أنا رجل قد توقف طموحي في لحظة أعرفها. الأضواء ليست صنعتي، والطموح قد توقف وانتهى كل شيء. والمؤلم أن ما تريدونه من جنوني، سيستحيل وبالا عليكم إذا سنحت لي الفرصة لأن أقول كل شيء.

مازال عقلي يقاوم في استماتة، كيف أساعدكم لتدشين جنوني، كي تربحوا الأموال، وأظل أعاني مع زمني، الذي مازال يناصبني العداء؟؟

كنا بالفعل نستمع لحالة وجع، صوته هزيل، حزين، خائب الأمل والرجاء، تضغطه غربته، وخطورة ما ينتظره من أشياء، قد تأتي على عكس ما يتمنى، من قصة صاغها كأروع ما تكون إلى الآن، مدهشة وغريبة.

دعوناه للخروج، واستجاب سريعا، لم يكن من السهل تجاوز الطريقة التي يتلقى بها تحيات من يعرفونه، فلا ندري أكان يحيي الجميع، أم تراه يبعث بإشارات لها معنى أنهم غير موجودين في ذاكرته أصلا. ربما فقط عمال المقهى الذين بادروا بتحيته بحب بالغ في الحقيقة، والغريب كان يمد يده في جيبه، ويخرج أشياء، ويضعها في يد كل عامل صادفه في هذه الأثناء، وكأنها شيء سري، أو ممنوعات.

بالفعل كان يمتلك فراسة غريبة في قراءة الوجوه والأفكار،

فبمجرد أن استقر على مقعده بجوار صاحبه، حتى راح يحكي عن هذه الأشياء التي أودعها في يد عمال المقهى، الذين تفانوا في الترحيب به، بحب ظاهر لا يمكن تجاوزه.

قال: لا تدع الفضول يقتل فيك رغبة السعي وراء التفاهات، فمنها يمكن استخلاص معان عميقة الدلالة. صدقني إن هذا العالم مدين للتفاهة والسفه ببعض الديون المستحقة.

عندما اشتدت الريح على هذا الرجل الذي يغلي الماء، طوحت عليه بعض الأوراق التي صبغت الماء بلون رآه جميلا، أخذه الفضول فتذوق طعمها، فوجدها مستساغة، ولا الرجل كان يقصد شيئا، ولا الريح بدورها قصدت، لكنه اليوم الذي عرفنا فيه الشاي.

محامي في الجوار، لا يعرف عني أكثر مما قلته عن نفسي. كنت محتاجا للمال، كتبت الكثير من المذكرات والأوراق على جهاز الكومبيوتر الخاص به، في غرفة منفصلة عن مكتبه، لا يدخل علي فيها سوى مديرة مكتبه اللعوب، تمتلك شفاه خلقت حصريا للقبلات الحارة، تمنحني الشاي والقهوة، وبعض الغواية. وفي المساء، قبل أن يغلق، وأنا بدوري أذهب، يدس في يديَّ أقراص المتعة التي لا احتاجها.

أتذكر هؤلاء العمال، وأنا أمد يدي لتناول الأقراص من ذاك المحامي الفاشل. لم أخبره خطأ تصوره في أمري، فلن أستمتع.

* * *

في حضرة البحر كان مختلفا، لا تسأل عن الوقت في حضوره، يتآكل، يذوب، فقط يسيطر عليك نهر شديد الجريان من الذكريات، تأخذك غرابة تفاصيلها، ودفئها، كيف يتم التقاطها من أرشيفه الزاخر.

كنا ننتحل المكر والخبث الشديدين؛ كي ندفعه لأن يقول نفسه. لم نفكر في الانتصار لقناعاتنا، ربما يباغتنا جنونه، أو جنون رؤيته، لذا ليس مهما أن ننتصر على ما يطرحه من أفكار.

بعد ضحكة طويلة عاد ليقول بعد أن رأى طفلا يعبر الشارع:

لم أفهم بطول عمري، سر قسوة الحكيمات في مدارسنا القديمة، وهذه الحقنة التي لم تكن إنسانية بالمرّة، والتلاميذ ينهارون من الخوف، يذهبون في البكاء لمجرد علمهم أن هناك حقنة بعد قليل، لم يكن يعتريني الخوف، لكن تظل المدرسة هي المكان الذي تعلمت فيه الغربة وانكسار القلب.

لم أفهم وقتها قيمة هذا الاختبار الذي إذا نجح فيه الفصل الثاني من الصف السادس، التحق بالفصل الأول، ومن يرسب من هذا الأخير، يرحل إلى الفصل الثاني، نجحت، وليتني ما فعلت، رحلت منفردا مع ثلاث تلميذات غيري إلى الفصل الأول، ورأيت بعيني بكاء الراحلين من الفصل الأول إلى الثاني، في واحدة من المشاهد التي كسرت قلبي وقتها. تولَّد عندي شعور بالغربة، وفقدت رغبتي في إبداء أي إجابة لسؤال يطرحه أساتذة هذا الفصل، رغم معرفتي بها. لم أخف حزني، تسللت إلى مكتب الناظرة، التي اندهشت لرغبتي في العودة إلى زملائي، الذين ظلوا معي كل هذه السنوات قبل أن يفرقنا الاختبار. أشرح لها ببراءة ما اعتقدته مأساتي،

فلقد كرهت النجاح الذي حرمني منهم. لم أجد تعاطفا يليق، ولم أفهم سر ارتباط الفصل الأول في محاولة لإغرائي بالطلبة الفائقين.

فصل؛ جعلني أرى لأول مرة، تلاميذ مسيحيين. يومها في حصة اللعب كنت مريضا، ولولا كراهيتي للتغيب، لغبت، تسللت إلى الفصل، ونمت أو أكاد. ومدرس الرياضيات المسيحي قد جمع تلاميذه، يؤدي حصة الدين في هذه الفرصة.

عندما انتبه لوجودي كانت كارثة، بدأ يضربني بعنف، ويسألني في هستريا ماذا سمعت؟

لم أسمع شيئا. لكن ظل السؤال الذي يؤرقني بطول عمري، ماذا يضير المدرس إن كنت سمعت، فالمسيحية في مصر ليست دينا سريا، يعتنقه أناس ضد القانون!!

كنت أغبط نفسي على ذاكرتي، ويبدو إنني أصبت بعارض نسيان، ذكرتني ببعض هذه القصص تلميذة لقيتها عندكم في القاهرة. التي كنت أسير في شوارعها وفق علامات وإشارات؛ كي لا أضيع.

احتجت لعلبة سجائر، فوقفت أمام كشك، صاحبه على البادي شاب بلحية، يقرأ في مصحف، أخذني بعض الخجل أن يقطع القراءة، كي يبيعني الدخان المُنكر، استسلمت للصبر والانتظار حتى ينتهي، وبعد أن انتهى حقا، باعني السجائر بأكثر من ثمنها. ضحكت، وواجهته بصبري عليه، حتى ينتهي من القراءة، فكيف تنسجم روحه أن يبيع سلعة بزيادة عن سعرها. باغتني بأن ذلك هو العادي، والقرآن وقراءته لا يغيران من الأمر شيئا. اندفعت بعيدا، فاستوقفتني هذه البنت التي صارت سيدة كبيرة.. كانت تتحدث معي بود بالغ،

وكأنها تعرفني منذ سنوات طويلة، والحقيقة نسيتها بالكلية، في حين تعلن أن شكلي مازالِ على هيئته الأولى، وحين أشارت لخطي الجميل، بدأت أحاول الارتداد لهذه المرحلة، ربما تذكرتها ولو قليلا، وإن كان اسمها ظل عصيا على التذكر. صارت أما ولها أولاد، تعمل في القاهرة، ونسيت الإسكندرية.

بسؤالها عن أحوالي وأولادي، رسمت على وجهي بعض الأسى، أبلغتها أن أسرتي، زوجتي وبناتي قد ماتوا في حادث سير أثناء عودتهم من مطروح أثناء الصيف، ومن يومها وأنا في حالة من البؤس الذي كسر القلب والروح.

توقفنا أنا ومحمد عثمان عند هذا العرض الذي انتهى مؤقتا تحت تأثير نوبة من الضحك الذي رأيناه لأول مرّة، كان ضحكه في هذه اللحظة هو أجمل ما رأيناه فعلا.. بدا كطفل متناه البراءة، صفاء نادر، الصادم في الأمر إننا وقعنا في مغبة تصديق هذه القصص بعد أن نسينا تحت غواية ما يحكيه إنه لم يتزوج من قبل، لكن كنت أغبط سرعة البديهة التي مكنته من انتحال هذه الكذبة المراوغة، وزميلته القديمة تسأله عن أسرته.

عـاد ليقـول: ما هـذا الـذي يحدث علـى الأرض. يقـرأ القرآن ويسـرقني، وما هي الأزمـة أن تعرف زميلتي إنني قـد وصلت لهذا السـن دون زواج، الأوقـع والأهـم، إنني لم أصل لهذا السـن دون حـب. الحب حالـة رائعة لا يمكـن تجاوزها، رغـم إيماني القديم أن المـرء جدا عاجز لأن ينتج عاطفة تتجه لأحد سـواه. رأيته إزاحة نفسية، تخفي الأنانية المفرطة الكامنة فينا.

لم يكن اعتقادي في قصة الخلق التي حدثت لحواء، سوى محاولة أخرى للفهم، كانت العناية قادرة حتما على صياغة قطعة أخرى من الصلصال، يُنفخ فيها من روحه فتصير حواء، لكن هذا لم يحدث، ربما حدثت غيبوبة تامة لآدم، وبعض الدخان الكثيف الذي بمجرد أن زال، ظهرت حواء، وجد آدم كمية لا بأس بها من الدم، ببراءة اعتقد أن الدم سببته مُدية أو سكين، طعنته به هذه الحواء، ربما لم تدهشه المخلوقة التي لم يرها من قبل، بقدر ما أدهشه الدم، من فعل هذا؟ هكذا بادرها بالسؤال. لاحظت غضبه، ظنت في صعود مثير للأحداث أنه قاتلها، بكت، واصطفت لها العناية سلاحا حاسما لتفادي غضبه، الرائع في هذه اللحظة أن خلق لها غير الدموع، الدلال الأنثوي الذي ساعدها لأن تغويه بلا أدنى رحمة.

بريء آدم، حُكم عليه بالنزوع؛ لذا فحبه يظل الأوقع والأعنف، فبمجرد أن أكتشف أنها من ضلوعه، حتى صار يبحث عنها بقوة، يريد أن يكتمل، وهي ضعيفة تريد أن تعود؛ كي تشعر بالأمان، هو النزوع والكيمياء.

تدرون؟

المرأة لا تحب الرجل الضعيف، ولا تعتقدوا إنها إذا سيطرت عليه، ستكون سعيدة في حياتها معه، لكنها لا تحب الرجل المفرط القوة، أو القوي في قسوة، إنه الارتباك الذي يقتل أكبر حبٍ. الحب التزام أخلاقي في زعمي..

أتذكر الرجل العظيم، الذي بلغ من العمر عتيا وزوجه العجوز، عاشا معا، وتقدما في العمر معا، كانت مُجهدة ومُتعبة إلى درجة تكاد تفتك به. دعوت له بالقوة والصبر، ولم يطرب لهذا الدعاء، قال في حدة: إن هذا هو دوره، فلم ينس كيف كانت في بداياتها، وقوتها ورعايتها لبيتها وأولادها، فلا أقل من أن يكون خادمها، وهي في ذلك الحال المتراجع.

من غرائب حركة الأقدار أن تموت في شهر أبريل، ويموت هو في شهر مايو من نفس العام. ارتباط قدري غريب، كأن الحياة التي جمعتهما ليست أشد كرما من الموت الذي جمعهما في عالم أكثر طهرا وراحة من هذا العالم.

الحب أكبر من لقاء رجل وامرأة، هو أخلاق تتحدث عن نفسها، الحب الحقيقي هو ذلك فعلا، لذا صدقت مقولة سكير قديم حين أعلنها أمامنا: إن الذين أحبوا منذ هبوط آدم للآن، ربما يعدون على أصابع اليد الواحدة.

يشرد منّا، ثم يعود ليقول بصوت متهدج:

لا أدري هل كنت طفلا؟ ما الذي دفعني لهذا المكان.

أخرج مع صديق لي عند الجلوة الشريفة التي تبدأ بجزء من القرآن، مرورا إلى بردة البوصيري، انتهاء إلى القصعة والثريد، كنت أذهب؛ كي ألتمس هذه الأجواء الغريبة، والتي لم أكن أفهمها بوضوح لحداثة سني.

لم أفهم سر بكائهم لصوتي، لستُ مُنشدا محترفا، ولا يمكن أن أضغط معان معينة أثناء إنشادي؛ كي استدر دموعهم؛ لأني لا أفهم

ما أقوله. ربما لشجن في صوتي، ورثته عن أمي. لكن الحقيقة أنهم كانوا في أشد حالات الوله بالله.

سنوات لا أعرف عددها، وصوتي الذي لم تدنسه السجائر أو الكحول، مازال يؤثر فيهم نفس التأثير، وأنا بدوري أموت حزنا على دموع العجائز الذين يريدون ختاما جيدا لحياتهم.

صادفت رجلا غريبا، جاب البلاد على سفينة يعمل بها، ارتكب كل المعاصي التي تخطر على قلب البشر، عندما كبرنا للدرجة التي نستطيع فهم ما يقول، كنت الأقرب إليه، يعاملني كابنه الذي لم ينجبه، رغم مقدرته في كل عصوره على الزواج من أجمل امرأة تمشي على الأرض، لو أراد.

عاد إلى الوطن نصف مليونير، وبلا هدف، أو طموح أو أسرة، ضاقت عليه الأرض بما رحبت، معظم جيله قد مات، وكذلك الأقارب والأصدقاء، ولم يمت فيه الحنين إلى القرآن والصلاة رغم ما عاش فيه من بوهيمية متطرفة، تجعله يضاجع امرأة في «طولون» ويغتسل في «مرسيليا».

لا يدري إذا كان رجلا أعزلا، فربما له أولاد، في ميناء من هذه الموانئ الكثيرة التي توقفت فيها سفينته ذات مرور. كان يسألني وهو يرتجف.. ترى، هل يغفر الله لي بعد كل الذي كان؟

ليس سهلا أن تجيب هذه الأسئلة، وذلك السؤال تحديدا، ففي هذه الحالة تصادر على الله رأسا، لكن خوفه ورجاؤه والتياعه، كان يدفعني لأن أؤكد له، أن الله حتما سيغفر له؛ لأنه أكرم مما يتصور، وندمه وعودته هي صكوك هذه المغفرة.. مات الشيخ «أحمد»

بعد أن عاش تجربة من التوحد الصوفي والاعتزال الكامل للحياة في ثوبها الكريه.

لم تكن الإسكندرية بهذا الزحام، رائعة وعالمية حقا، ومتعة حياتي.. السير حيث الشوارع التي لم تلوثها إرادة القبح، التي اعتملت في ضمائر الناس الموتى، فكيف أصبحنا، والله الجميل، لم ينكر يوما إنه يحب الجمال.

المؤمنون في أرض أخرى، نحن لا نعرف الله، والمسافة بين رؤوسنا وقشرة السماء، لا وجود لأي معنى يتحرك فيها. إننا القبح له ساقان، الكذابون العتاة، نقتل دون أن نعرف السبب، ونسرق لا شيء، من أجل لا هدف.

رغم ابتعادي عن منطقتنا القديمة، وسكني في هذه الغرفة، كنت أخرج ليلا كي أرى الإسكندرية. وخصوصا في الشتاء، هي رائعة في هذا الوقت حقا، ومن ثم أعود في الصباح، أجر أذيال الحسرة.

كان قرار ابتعادي عن بيتنا القديم قرارا استثنائيا. أخي يريد الشقة ليتزوج. لم أكن معترضا، رغم أحقيتي من منطلق العرف السائد.. أن شقة الأب والأم للابن الأخير. شعرت في لحظة أن هذه الشقة مكرمة لا يستحقها أخي، كان أكثرنا عقوقا، ولا تستحقها زوجته، التي إذا لم أكن أعرفها بوضوح، فعلى الأقل أعرف منبتها ومدى حقارته.

شعرت ببعض الحيرة، فلن أطيق هذه الحياة، أعتدت الوحدة، العزلة صارت جزءا من تكويني، وخصوصا الأيام الأخيرة.

أنا الأخ الأصغر، والرهان على الأعمار لن يسمح لأن أستهلك

الأيام في بيت أحد من شقيقاتي.. لا أميل لتضييع حياء وجهي مع الناس، لذا فكرت في القرار الصعب، ورحلت كرجل ضائع، فقد الأهل على أثر كارثة.

ربما لم أفهم، والرجل يحكي. لِم توقفت عيناي عند دموعه، وسيجارته المهتزة بين أصابعه، وذاك الطقس لهذيان رجل محموم. اختطفني حديثه مجددا من شرودي وعاد لينزف:

لا أشعر أن الزيادة في الأعمار لمن في ظروفي أمر جيد، أتوقع الموت بين الحين والآخر، وإن كنت في السر أتمناه، رغم إيماني أن هذه الأمنية ليست من الإيمان في شيء.

في هذه الغرفة، كانت تنتابني رغبات غريبة، أن أسجل مذكراتي ومن ثم أعود، لا أريد الضغط على الناس القليلين الذين سيقرئون هذه الأوراق الحزينة.

لم أشأ محاكمة الذين عرفتهم في رصيف الحياة، تنتابني حالة من الشوق أن أذهب لبيتنا القديم، كي ألتمس بعض الذكريات، أنفاس الغائبين، أيامي التي ذهبت ولن تعود.. كنت أحاسب نفسي في ساعة الخلوة الوحيدة قبل أن أذهب في النوم كمدا كل يوم.. لماذا لم أتزوج؟ كنت أصطنع شروطا مجحفة ولا شك. فإن تجاوزت الثلاثين دون زواج، فلا حاجة لك لأن تتزوج، ومن لم يتزوج وأمه وأبوه على قيد الحياة، رجل عابث، يصطنع فرحة لأناس لا يستحقونها، والزواج في العمر المتقدم، مصنع لإنتاج الأيتام.

لِم تأخر قرار سفري، إلى حيث أرض غريبة، مادامت مشاعر الغربة واحدة، سواء في الوطن، أو في بلاد الغير؟

ربما كنت أخشى الموت في بلاد غريبة، أثق كثيرا في تراب هذه الأرض، عطوف وطيب، لكنها في كل الأحوال قرارات مؤجلة، أُجهضت في ظروف لم أشعر بها، مذهول، مكبل بأشياء عصية على الفهم، رغم كوني في سنوات غربتي، قد نشأت بيني وبين الغربة مشاعر ألفة وانسجام، حتى ولو لم يكن كاملا.

فقدت في السنوات العشر الأخيرة أصدقاء كثر، وبمرض واحد تقريبا. كانت الانعطافة الكبرى وفاة عمي، الذي مات مرتين في يقيني، دفع ثمن أفكاره ومعتقداته في مجتمع كافر، كان يساريا عتيدا، آمن بالفكرة وعاش بها، وحرص بطول عمره قبل أن يضيع في أكبر انتكاسات عمره على تأصيلها متى استطاع.. هزمه السلام الساداتي، فامتعض وكره واغترب، وحورب في مستقبله. ولم تقف الدراما عند هذا الحد. فدخل للمعتقل في الثلث الأخير من السبعينات وخرج؛ كي نتعلم أن لا ننظر كثيرا لأصابع يده اليسرى، كي لا تصدمنا أظافره؛ التي كان خلعها التسلية الوحيدة لجلاده.

خرج كافرا رافضا، لكنه عاش معنا ما تبقى من عمره خارج الزمن.. تركهم يزوجونه، لم يعط حكم قيمة يوما في المرأة التي لا أدري للآن من اختارها له، كانت الأقدار تتعامل معه بإجحاف نادر، فلا هي بالأنثى الجميلة على أي مستوى، ولا بالإنسانية التي تستطيع استيعاب رجل مهزوم، كان يريد نحت فرحة يبتغي بها أمه، التي ما عرفت غير الحزن عليه، منذ هزمه الوطن بحساب النقاط.

لم يكن سهلا أن تتفادى شعوره بالألم، كان حطاما، ظل يتعايش مع شعوره بالاكتئاب، يمارس روتينا يكرهه، وزوجة في لزوجة

الكارثة، وولدان ظن أنهما أجمل ما يمكن تركه لهذا العالم الرافض والكاره.

سنوات طويلة، لا أدري إن كان يقاوم، أو يموت في حرب استنزاف قذرة، وذات يوم، رأيت بأم عيني الكارثة في عارض من شرود، نقلوه إلى المستشفى، قبل جلطة، لكنها لم تكن كذلك تحديدا، بل في جذع المُخ، إنقاذه لم يكن في صالحه، فالنتيجة شلل رباعي سيحيل مأساته إلى مأساة أكبر منها. من يستطيع أن يتعايش مع هذه القصة الآخذة في صعود درامي مثير وشجي، والزوجة بمجرد أن راح في غيبوبته، كانت تفتح كل الأشياء التي أغلقها قبل مرضه؛ لتستولي عليها.

لا تطيب نفسي كثيرا لأجواء المستشفيات، لكن لم أدرك إنني كنت ملزما أن أراه؛ لأن الأقدار أرادت أن تكون رؤيته في هذا الوقت رؤية أخيرة.

قاومت نفسي، وعندي من اليقين إنه لن يخرج حيا. كانت مفاجأة للجميع أن رأوني لعلمهم بطبائعي، لكن، رغم كل شيء، أزاح عن نفسه الغيبوبة، وفتح عينيه ليراني، في سابقة لم تحدث منذ دخل إلى هذا المكان.

في الليلة التالية، رأيت فيما بين الحلم واليقظة جدتي، وقد جاءت من هناك، ترتسم في ملامحها جدية وقسوة لم اعتدها، جمعت ملابسه، وحاجياته، حتى الصورة الوحيدة له على جدران البيت، لم تنتبه لي، سألتها مباشرة.. لِم؟ قالت بشدة واضحة: يكفي هذا.

لم أكن مستعدا للدخول في رهانات كثيرة على الحياة والموت، ولولا أن جدتي الراحلة هي التي تجمع أشياءه، لربما أخذني الأمل إنه سينجى، لكنه الموت الذي ضرب قلبي ساعتها؛ قبل انتصاف ليلة من ليالي مارس، الذي لم يطرح الربيع في ثوبه الاعتيادي.

كان من العار أن نستسلم رغم ضيق ذات اليد لفكرة العلاج على نفقة الدولة، رغم إيماني بجدارة الدولة لأن تعالجنا، طالما كانت الجهة الوحيدة التي منحتنا ذاك المرض اللعين. ولم أكن أدري كيف استقر في يقين أسرتي أن هذا التوجه مهين، وربما لا يليق، فالحكومة مسئولة عن علاج المتسولين. فسرتُها عزة نفس، أو كبرياء ليس هذا وقته، رغم أني كنت مقتنعا إلى حد كبير وقتها أن الإذلال الذي سنتعرض له حتى يؤذن لنا بعلاج مريضنا، سيكون مؤذيا لا محالة، جارحا ومهينا. لموظفين أعلم يقينا إنهم منتدبون من جهنم.

عندما أتذكر تفاصيل هذه التجربة، أدرك هشاشتي وضعفي، فكل الذين رأيتهم في حضرة الكيماوي، كان منظرهم يوحي بوصف لم أجد لغة تصدق ولو لحظة؛ كي تصف ما كان يتسلل لنفسي من أوجاع، الجميع في ذمة التدمير، رجال ونساء وأطفال.

هذا هو الكفر الذي كنت انتفض على تفاصيله، ففي هذه الخبرات، لا تدعي أنت أو غيرك أن ثمة ربا لهذا العالم، رغم إيماني بحضوره الدائم.

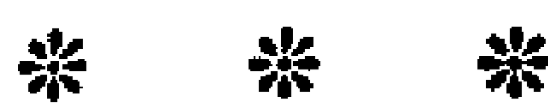
(٧)

لم نكن ندري.. هل نجحنا، والأسبوع قد أوشك على الانتهاء في اصطياده أو إقناعه، فالثلاثاء بات وشيكا.

مؤكد كنا نستفيد من حديثه، من أجل إعداد أول إطلالة. لكن يظل اجترارِه لذكرياته أمرا لا يخلو من متعة وإرباك، يصطنع لنا مداخل جديدة لإعادة كشفه، وعلى الضفة الأخرى حالة كبيرة من التيه.

لم نشعر أن هناك ثمة استفزازا، الغريب، يحكي دون أن نشعر إننا موجودون، والغرابة الأكبر. فشلنا أن نربط ما يحكيه بشيء من المنطق، وكأنه يجتر شذرات عابرة من هنا أو هناك.

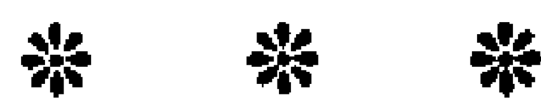
آمنا أن الرجل لا يكترث بأي معنى، يدرك ـ ربما ـ أن القصة في إطار من عبثية لا نهاية لها. لكننا كنا نضغط ما تبقى من عقولنا؛ كي نُمنطق ما يحكيه، وعلاقته بقصته التي طلع بها على العالم. لكننا نبدأ وننتهي إلى حيث مأساة مُكتملة الأركان.



بعد أجواء من الترقب والإثارة، وعدنا أن يأتي، بدت لهجته، وكأنها قرار لن يحيد عنه، مهما كلفه الأمر من مخاطر، لم يكشف لنا عنها. وأن الشابين الذين يرافقانه كالظل، سيكونان معه بشكل مؤكد.

الكـرة مازالـت في ملعبكـم.. عبارة ظـل يردها كثيـرا، لكن لا أنصحكم أن تراهنوا أو تصادروا على ما سـأقوله من خلالكم، فقط أدعوكم للتركيز الشديد، فلسوف تكون مباراة، أتمنى لكم فيها حظا طيبا.

ودعنا بدفء، ورحلنا بعد أن قمنا بترتيب أمر استقدامه عن طريق سيارة القناة، في الموعد الذي يسمح له بأن يكون على أعلى درجات الإفاقة، والتركيز فيما هو مُقدِم عليه.



كانت الأيام التي سبقت الثلاثاء، والساعات التي بقيت على موعد قدومه، كأنها القلق كله.

نتابع السائق الذي ذهب لاستحضاره كل دقيقة. ربما اختلط علينا شعور مهني، إن الحلقة لو مسجلة لتمكنّا من التحكم في مفاصلها، لكن الظهور، وعلى الهواء مباشرة، ربما عمَّق هذا التوتر. ولم نكتفِ بمتابعة السائق بقدر ما كنا نتصل بشكل دائم بواحد من الشابين بالتناوب. ونطالع الحالة المعنوية للرجل، وهل يشاركنا التوتر على البعد؟

أطلقنـا تنهيـدة عميقـة بمجـرد أن رأينا السـيارة. هبط الشـابان وبعدهمـا المُنتظر، لم تبدُ عليه أي علامـة دالة على خوف أو توتر، وكأنه اعتاد على هذا الظهور عبر الشاشات!!

لم يشأ أن يرتدي زيا أنيقا. يأخذه جلال تصدير أمر ما، يقض به مضاجع المخنثين.

في رواق الأستوديو، كان الجميع ينظرون إليه بتركيز شديد، نظرات كفيلة بإحداث حالة من الاهتزاز، لكن لم يحدث ما يشير لكون الرجل يكترث أصلا، شعرت أن ما قصه علينا عندما أراد أن يكون إنسانا رديئا في إطار تجربة ما عاشها، رغبة تعتمل في يقينه هذه اللحظة، فراح يؤكد على إكرام الشابين، ومبدئيا، يريد أن يعرف الثمن المزمع دفعه. ظل على غير ما اعتقدنا يساوم ويساوم، حتى استجبنا لما يريده.

جلس إلى المذيع اللامع المفعم بتتبع الإثارة، كان ينظر إليه بكثير من التوجس والإعجاب، مندهش حيال هذا الغريب، بعينيه وتركيزه الحاد. وبمجرد أن صار على الهواء، راح الرجل يحكي وكأنه قد خرج للتو من عالم الأساطير، يتنفس الخيال، يسخر في دواخل نفسه من الألفية الثالثة، وربما من كل مظاهر التقويم، والحضارة.

.............؟

مؤكد كنت مندهشا من هذه الأعداد الكبيرة، التي تدخل إلى الصفحة، التي أوكلت لواحد من المعجبين أمرها، وألحظ هذا الارتباك البادي على البشر، الذين أصبحوا نهبا للعديد من الهواجس، ولِم لا؟ والأسئلة مازالت كما هي بلا إجابة. السماء زرقاء بلا سبب، والناس يموتون دون أي شعور بيقين في لقاء الحقيقة. لم أكتفِ بنحت العناوين الغريبة، والأقوال المفعمة بالحكمة.. إننا الوجود ولاشيء غيرنا، الله ينتظرنا، ولن يقبلنا على هذا الاختلاف للنهاية.

بعدها كنت أبث الكثير من التعاليم التي استقيتها من أيام العزلة، وأدعمها بالكثير من المقتطفات المسجوعة التي تثير الفضول، وتنطوي على غموض حاد، وبعض الإشارات الدالة والموحية، أبث التعاليم، وأنعت أتباعي بالنيرفانيين، أسوة بالنيرفانا البوذية.

كانت المسئولية عظيمة، فبمجرد أن رأيت المليون معجب على الصفحة، أخذتني رعدة خفيفة، كنت استشعر حاجة الناس لدين، يجمع الشتات، ويبعث الطمأنينة، فاخترت أن أكون رسول هذه اللحظة بما أمتلكه من معان، وسياقات لا تبدو بعيدة عن تراث الإيمان الموجود عند الناس على اختلافهم، والغريب كنت أدشن أتباعي الذين يعرفونني بشكل شخصي، أن يبثوا عبر الصفحة أن صلاة الأمس في حدائق انطونيادس قد حضرها الآلاف، وكان منهم شابٌ بارعٌ في صياغة صورا تغطي هذه الصلاة، تعطي ملمحا لكثافة الحضور، سميتها صلاة الخضرة. وصلاة أخرى كانت للبحر. وفي المساء تنشر الصفحة نص الخطبة التي قلتها في هذه الصلوات.

.... ؟؟

من الممكن أن أتلو عليك جزءا منها.

(كان مستعدا، ولم يكد يمد يديه إلى حقيبة في جواره، حتى أخرج ورقا كثيرا ثم عاد ليقرأ ترانيمه)

«أكاد أسمع أنين الجذور، حيث تضطرب في باطن التربة، الساق والأوراق والأفرع، في بكاء مرير مرير، إنكم لا تتصورون

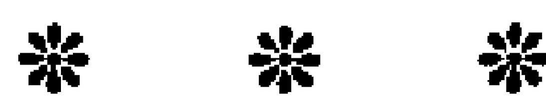
ما يحدث حولنا، الكل يتوعد من لم يجاوره عن الجحيم المتوقع، فلا جحيم للجميع على المتصور، إنما هو الجهل الصراح بنا.. نحن الذين نؤلف القلوب، أخرجنا الله من خصوصيته كونه الحصري، فحزن اليهود، ولم نشأ لأن نبقيه على الصليب أكثر من هذا، فحزن المسيحيون، ودعونا المسلمين أن يجتهدوا أكثر وأكثر؛ كي ينتفض الجميع، فلم ينتبهوا.

نحاول رغم ما يعترض نيرفانيتنا من صعاب، هكذا هي الدعوات المخلصة التي تصدم مشاعر الدهماء، عزاؤنا أن الأرض لنا، بكل ما فيها من ألوان، والسماء براح فسيح لا يملكه أحد، فطوبى للذين يفهمونها مثلنا».

ـ وقتها، لم أراهن على هذا الكم من التعليقات التي أتت على خطبة صلاة الخضرة، وصلاة البحر، كنت استهلك ساعات؛ كي أقرأ تعليقات الأتباع والمريدين.

لم يكن سهلا عليَّ أن انفلت من رسالتي التي نذرت نفسي لها، استشعر أزمة هي أكبر مما أظن. والأصدقاء الذين يديرون الصفحة، طاب لهم الأمر، وشعروا بعظيم دورهم في تأسيس ديننا.

كان ضروريا أن نعيد إنتاج فاعليتنا، ولأني منذ بواكير دعوتي اخترت أن أجلس خلف القصة لا أمامها. رحنا في تصوير مقاطع فيديو في سلسلة تحت عنوان: إلى الحياة أدلكم!!



أوقف المذيع في هذه اللحظة سيل الاعترافات، وتحجج بفاصل إعلاني.. دار نقاش حول السماح للمشاهدين بالمداخلات، لكنه تطور إلى نقاش تجاري محض، فالضيف كان لديه معلومة لا يدري مدى صحتها، أن هذه الاتصالات تدر مالا للقناة، وكاد أن ينصرف غاضبا من هذا الاستغلال الذي لا يليق. لكنه عاد بعد أن تلقى المذيع في سماعة الأذن أن إدارة القناة لم تستجب وحسب، ولكنها ستترك الحلقة في معظمها للفواصل الإعلانية، على وعد بحلقة أخرى في الأسبوع القادم.

انفرجت أسارير الضيف، لكنه أصر على استلام الثمن نقدا، حتى يسمح بمُداخلات الجماهير عبر الهاتف. واستجابت القناة التي لم تصادف هذا الكم من الاتصالات، وعدم كفاية غرفة الكنترول، وتحملها لما يحدث.

الجدال والمساومات بدت تضغطه، ليس تاجرا، ومعروف عنه كراهة المال. لكنه يفكر في زمرة الحرافيش الذين يشاهدونه على الشاشة، فلابد أن يأتي مساء الغد، بعشاء استثنائي لهؤلاء الجوعى. هو الذي قد نذر نفسه لمساكين الحي البعيد الضائع في الخبل.

عندما تجاوزت الحلقة العشرين ألفا من جنيهات الوطن المغبون، استسلم بعد عناء لأن يكرر الجلسة في حلقة أخرى.

كانت أموره تسير، بل قال قبل السفر للقاهرة: إن ما يتمناه من هذا اللقاء التليفزيوني أن يتكرر، وسألنا أن نبتهل لأن يستجيبوا لما يخطط له، فهذه القنوات تربح أموالا لو نثروها على الأرض لكفتها.

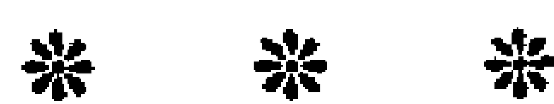
انتهى الفاصل الإعلاني، وعاد مقدم البرنامج لحديثه الذي توقف بسرعة على أثر اتصال، من السعودية!!

كان الرجل يستمع بإنصات كبير، يسمع اتهامات الكفر والزندقة تنهال كالمطر. وما بين الشرود، قاطع المذيع الاتصال بحجة أن الفكرة قد وصلت. وما بين التخيير هل يرد على المتصل، أو تجمع الاتصالات ويجيب عليها مجتمعة، اختار أن يرد عليها كلها، ويسجلها إن أمكن.

ثم تابع كلامه مكملا:

ـ إن الناس تعتقد أن الدين الصحيح سيدخلهم الجنة، القصة أكبر من ذلك، فلا يوجد دين صحيح وآخر فاسد، السماء لا تتعامل مع هذه المعالجات المشوشة. بمن تؤمن أصلا. اليهود أساءوا لموسى، والمسيحيون لعيسى، والمسلمون لمُحمد. إن كل المتدينين في العالم يواجهون السماء بسلسلة كبيرة من الإساءات. فلا اليهودية تأمر بالقتل، ولا المسيحية تدعو للكراهية، ولا الإسلام دين البدو الذي لا يصلح لإنتاج الحضارة. إنك من السهل أن تصادف في الريف رجلا ينجب طفلا مكفوفا، تدري كيف يفكر في مستقبله؟ أن يصير شيخا من حفظة كتاب الله. ما هذا التجني والاستخفاف؟ كيف تنذرون لله المعاقين وذوي العاهات؟ أو لو كان مبصرا، فلن يحفظ الكتاب؟!

ـ إننا نعبث بالإيمان والسماء، نخشى مفردات الأرض بأكبر من خشيتنا لمن بسطها ورفع سماءها. إنكم حفنة من الدجالين، تتاجرون بكل شيء، حتى علاقتكم بالله. تتزاحمون في المعابد والكنائس والمساجد، ملايين لا حصر لها، ومن صلى لله يقينا، مئات قليلة، قلوبهم هي التي كانت تصلي ساعتها.



كان منطلقا بشكل مدهش، بل كنا نستطيع أن نتبين صدى صوته، من فرط الهدوء المميت الذي ملأ الأستوديو. كنا نشعر بصدقه رغم قسوة ما يطرحه، بل إن المذيع المشاكس الذي نعرف، كان يجلس بصورة لم نعتدها يوما. مشدوها ومتجمدا. ورغم كل التفاصيل، لم نكن حتى هذه اللحظة ندرك إلى أين تذهب عيناه حين يتحدث. حسبناه ممسوسا، أو ربما يستحضر شيئا غريبا.

كانت الاتصالات ساعتها ولم يتبقَ إلا نصف ساعة أكبر مما نتصور، المدهش أن فترة الهواء قد انتهت، والاتصالات تنهال علينا من كل حدب وصوب.

خرجنا إلى الفاصل الأخير، فأخرج سيجارة راح يدخنها بشراهة. لم نرها تغادر شفتيه، يعبأ صدره منها، دون أن نرى ما ينفثه من دخانها. حاولنا استثمار الفاصل، واندفعنا إليه، تجرأ عليه واحد من عمال الأستوديو أن ما يطرحه سيودي به للقتل. ضحك ضحكة مجلجلة وقال في ثبات: هكذا مصير أصحاب الرسالات.

أشار أليَّ، ولفت نظري إنه قد نسى أن يخبرني أن لي شبها كبيرا، يربط بيني وبين صديق له مات منتحرا. ربما شعر بشيء من الكآبة التي اعترت ملامحي.. فأردف إنه كان من أعظم من قابلهم في حياته، كان شريكا للنزق. تنازل عن حبيبته لشرخ في نفسه، كانت جميلة، ومن الممكن أن تقتلها غيرته العمياء، من فرط هذا التلاقي القدري العجيب؛ بين رجل غادر الدمامة بقليل، يقع في حب امرأة حازت شطر الجمال، أو ربما الجمال كله.

راح في نوبة شرود طويلة، كنت أستطيع أن أرى لمعان عينيه

الذي ينذر ببكاء. لكنه تمتم بكلمات سمعناها.. غبي، فلقد كانت تحبه!!

لم نحصِ فناجين القهوة التي شربها في هذه الدقائق المعدودات. يداعبنا برغبته في محلول من القهوة يدخل مباشرة لأوردته، إلى حيث يستقر البن في مكانه المخصوص. وراح في نوبة ضحك، تشي برجل مجنون.

استهلك ما تبقى من الحلقة في حديثه الممتع رغم كل شيء، ووعد المذيع اللامع، وأسرة البرنامج بلقاء في الأسبوع المقبل، بنفس الموعد.

خرج ليقابل الشابين الذين أتيا معه من الإسكندرية. تناول المظروف وأخرج مالا لم يركز كثيرا في عدده. راح يضع في كل يد قابلته وقتها، حتى عمال الأستوديو، ما جادت به نفسه.

كان مندوب الإدارة حاضرا. تحدث معه عن بعض التفاصيل، فالقناة لا تحبذ أن يغادر للإسكندرية، ومن ثم يعود في موعد الحلقة المقبلة. لم تظهر عليه ملامح الانزعاج، أو الخوف، بل نظر مبتسما، ودعا الشابين لأن يلهوا في القاهرة، فربما في قادم الأيام، لن يجدوها في مكانها.

لم أستطع منع نفسي من اقتحامه، منحته أرقام تليفوناتي كلها، والتي لم أسجلها، تناولت قلما وكتبتها. وسألته متى احتاجني، لا يتردد في الاتصال بي. فالقاهرة مدينة كبيرة ومزدحمة بأشياء ربما تضايقه. لكنه طلب من مندوب الإدارة أن أظل معه دائما حتى تنتهي هذه القصة. وبمنطق التجار استجاب الرجل، وهمس لي أن أعتني به.

ركبنا سيارة القناة، وشيئا فشيئا وصلنا وسط البلد، وأشار لشاب من الشابين أن يهبط لصيدلية في الجوار، كي يأتي له بأكياس مضادة للحموضة، تحسبا لما بعد الكشري، الذي لم يفكر في عشاء غيره. ورغم كراهيتي لهذا الطعام، ولاسيما ليلا، كان إلحاح مشاركته أهم عندي من علاقتي المضطربة به. بدا لي يأكل بشهية مفتوحة. ولم يبدِ أي تعليق أو أي شيء سواء المطعم، أو السعر. لكنه كان ممتعضا إلى حد كبير. عرفت إنه يخشى للزحام ووجوه الناس، إذ يعتبرها بورتريهات حزينة ضاغطة، تشعره بغصص لا يتحملها.

توجه النبي بحديثه لي: -

لا أريد أن نأتي على وقتك، رغم علمي أن القاهريين تقريبا لا ينامون. أما أنا فلي هذا الليل، والشتاء، هكذا كانت القسمة، النهار والصيف للناس، والليل والشتاء لي. فانظر ماذا ترى، لي رغبة أن أظل للصباح جالسا إلى النيل.

قلت: رائع، أخذتها من لساني تقريبا، فلقد كنت أخشى إذا دعوتك لتمضية الليل في مقهى يرى النيل أن ترفض، لكن طالما إنك من محبي الليل، والجو شتوي رائع، فلا أقل من أن نتحرك الآن قبل أن يذهب النيل نفسه.

ضحك، وراح في نوبة سعال قاسية جدا. لكنه استجاب.

كنت أستطيع في الساعة الأولى التي جلسنا فيها قبالة النيل أن أكوِّن رأيا آخر في هذا الرجل الذي يقترب من الخمسين، ففي هذه الساعة لم يتكلم، ولأن الشابين أكثر خبرة مني، كانا منسجمين مع هذا الصمت، تجاسرت وحاولت أن أفتح أي موضوع يصلح

لاستفزازه، ولكنه لم ينظر إليّ. حاولت الدخول إلى صمت مشابه، لكن قتلني الفضول.. فنظرت إليه مباشرة وسألته.. لِم الصمت؟

لم أكن أتخيل الجواب ولا الضحك الذي قابل به سؤالي.

ما كان من الممكن أن أدعي إنني فهمت، أو أكاد هذا الرجل رغم هندامه البسيط، ولغته السهلة الخالية من التعقيد، والطيبة الحقيقية التي تشع من ملامحه، للصدق لم يكن الرجل يضغط اعتقادي وإيماني، رغم إنه قد ظهر على الناس كرجل يبشر بدين جديد. نظر إليَّ بتركيز شديد وقال: صمتي كلام. غبت عنكم، ولكن كنت في حضرة النيل استلهم آيات جديدة.

عندما علم أن عمري يقارب السبعة والعشرين عاما، قال: مازال أمامك ثلاث عشرة سنة تسمع، بعدها من الممكن أن تتكلم. لا تندفع خلف الكلام، فليس الصمت مثلبة، الناس تمتلك سوء ظن مبالغ فيه في الصامتين، الصمت ليس جهلا، الصمت احترام للمواهب والمقدرات. أعرف البعض، ممن يرون في الكلام لذة من يضاجع امرأة بارعة الجمال. رغم كونه غواية قاتلة، اللسان.. اللسان، ما أبشع هذه الآلة!!

تدري؟ أنا تكلمت وكان عندي الرغبة لأن أتكلم منذ عامين تقريبا. لم أكن ألقي السلام على الناس. لا تسألني لِم؟ لأني يقينا لا أراهم، وإن رأيتهم، لا أشعر بهم، وإن شعرت بهم، أصاب بالغثيان. وإن أصبت بالغثيان، فسوف أنتهي كما انتهى صديقي منتحرا في شقة خاوية، لم يكن هناك من يستطيع إسعافه. وخيرا فعلوا، فالعودة للحياة ليست مكافأة.

كان منظر الشمس في صباح القاهرة قد بدأ يضغطه فعلا، هنا بدا متحفزا للرحيل إلى الشقة التي منحني مفتاحها مدير المحطة، قدت السيارة بهم إلى هناك. هبط منها دون أن يسألني أي شيء، أو حتى يلقي تحية وداع. الشابان ربما أدركا غرابة ما يمارسه وهما معتادان عليه، لكنهما منحاني شعور الرضا عندما أبلغاني.. عندما ترى أول خيط من خيوط الليل، يمكنك أن تأتي إذا كنت تحب.

(٨)

لم تكن أمي نائمة كالعادة، مادمت بالخارج، ومؤكد غير إنها قلقة، ستسألني عن ضيف الحلقة التي أذعناها اليوم، والذي يؤسس دينا، يهيمن على كل المعتقدات الأرضية والسماوية. وصدق ظني، فللمرة الأولى لا تسألني عن تأخيري وأسبابه، راحت تسألني عن الرجل. وكيف جمع هذه الملايين من داخل مصر وخارجها، والتي تدعمه على أكثر من صفحة في «الفيس بوك»، وبمختلف اللغات.

لم أكن أسمعها تقريبا، كنت غارقا في ذاك النموذج الإنساني، وهذه الجسارة التي تمكن رجل في هذا العصر أن يدعي في مصر، وما أدراك ما مصر إنه يؤسس دينا. لكن أشد ما لفت انتباهي من حديث أمي الذي لم أعره أي اهتمام.. إنه رغم كل شيء يقوله من حديث، يجوز توصيفه هرطقات جنونية.. لكنها تسأل.. ما الذي يجعله مقنعا هكذا؟

ولأني لم أستطع الإجابة. أومأت بإشارات العجز والدهشة، وطلبت منها أن تمنحني الفرصة كي أنام، فالليلة كانت صعبة جدا.

كنت أكذب، لم أستطع إقناع نفسي بالنوم، ففي كل الفترة التي سبقت الإعداد للقاء الرجل، بعد أن ذاع اسمه وخبره، وجلساتي معه قبل أن يأتي إلى هنا، وأنا تقريبا في أزمة أكبر مني. فالرجل لا يضرب أي نموذج، إنه الإيمان والمعتقد، وليست المسألة في ثوب الفضول الذي يسعى لإدراك الطرافة في الموضوع، إنها أكبر من هذا بكثير، فإن تكلم، يسكتوا، وإن راح في شروده، صمتوا، وكأنه يوحى إليه.

لا يمكن تجاوز لقاءه الأول، لم يكن سهلا أن تلتمس هذا الرجل في مكان أبعد من تحت الأرض، في مقهى شديد الزحام، يقرأ في رواية مترجمة، يجلس وحيدا إلا من فناجين قهوة تتراص في استفزاز، وجريدة قديمة بها حفنة من أوراق كتبها أو يكتبها. وثلة من القطط التي تطوف من حوله، يتركنا ويتغافل عنا؛ كي يستل من كيس طعاما لها، ويقوم بعطف متطرف، يناديهم، كل واحدة باسمها، وكأننا لسنا موجودين. رغم اعترافه بسخرية مريرة.. إنه يدرك حقارة نفوسهم، وانعدام حيائهم، ففي كل ليلة تأتي قطة إلى هنا برفيقها، يضاجعها أمامه دون احتياط أو أدب. بل وربما يعلنان له، إنه المغفل الذي يطعمهم يوميا، بينما ينسى نفسه.

كان إخلاص «محمد عثمان» الذي قادنا إليه لافتا، لم يشأ أن يمنحنا أي معلومة مغلوطة عنه، لم يكن على حد قوله يمتلك حكما فيه، بل إنه موجود، وليس موجودا، يعرفه، ولا يعرفه، وأحيانا يذهب كغيره في مغبة الظن، أنهم لا يعرفونه. لا يستطيعون تحديد المهنة التي يقتات منها، لكنه في كل الأحوال لا يلجأ لأحد في أمر من أمور دنياه إلا نادرا.

لم يبدُ عليه شبق الباحث عن المال، كل ما يفهمه إنه قد صار في مقام الظاهرة، وأن هذه القنوات تكسب كثيرا حسبما يفهم، من الرعاة والإعلانات. لكنه لم يغادر التواضع، لم نشعر ونحن نتحدث معه في أي وقت إنه يدرك ما الجلبة التي أحدثها. وكانت كلمة (عادي) من أكثر الأوصاف التي يستخدمها في حديثه، ولا توجد مشكلة، والأشد قسوة.. نحن أبناء الزمن الساقط والمنحط.

ربما دفعني الفضول الشرير أن أسعى لاختراق أحد الشابين في اليوم التالي. كنت احتاج أن أفهم كيف يؤسس رجل هذه الفكرة وما الجدوى؟

أي جنون من الممكن أن نسقطه على أبطال القصة التي تبدو عبثية للنخاع؟ أهو المجنون الذي يسعى لتأسيس دينه الجديد؟ أم تراهم الملايين الذين يتابعون أقواله في الفضاء الافتراضي يوميا، بل وفي كل ساعة. والآلاف الذين يجلسون إليه في الخلاء، داخل منتزه أو حديقة مفتوحة، أو فوق رمال الشط الفسيح قبالة البحر؟؟

قمت لإعادة شحن حاسوبي المحمول، وأخذني الفضول للولوج إلى صفحته المكتظة بالمريدين. أخذتني الدهشة وأنا أرى بعض أقواله منشورة في ذات التوقيت الذي كان فيه حاضرا للقناة. وفي أكثر من تعليق، المسافة الزمنية فيما بينها لا تتعدى دقائق معدودة.

(أهزموا الكذب، فلحظة صدق وحيدة، كفيلة بأن نموت ونحن نحترم أنفسنا، الحياة صادقة.. لم تمنحنا شمسا كاذبة، ولا بحرا سرابيا، ولا سماوات في مقام الهاجس، ولا أرضا خائرة. عار على الإنسان أن يكون الكائن الحي الوحيد الذي يمارس الكذب بمثل هذه الفجاجة).

ربما لم أصادف منذ دخلت إلى مواقع التواصل الاجتماعي هذا الكم من التعليقات، والتي تجاوزت الألف ويزيد على هذا الكلمات. الغريب وجدت تعليقات تشعرني بأن الرجل يقينا يكتب وحيا. ماذا أصاب العامة؟

اختلطت عليَّ الكثير من المشاعر، مجنون كاذب، استثمر الفراغ الذي يعيشه الناس. لكن، ولِم يعيش الناس في هذا الفراغ؟

لا، إن هي إلا جسارة رجل مجنون، أو على الأقل يحتمي في الجنون، كي يهرب من تبعات ما يطرحه في زمن استقرت فيه الأديان، فما باله يقول بدين رابع؟

اندفعت أكثر، فإذا بمقطع فيديو.. لم يلفت نظري طريقة وقوفه، التي لا تعني أن الرجل ينظر لهذا الجمع الغفير، وإنما اللافت حقا صوته المُجلجل، المكسو بالعبرات التي تشير لبكاء مُحتمل، وذاك الصمت الذي يغلف المكان، ولو أن التسجيل بأدوات أكثر رقيا، فربما سمعنا أنفاس الناس، وزفراتهم الشجية المتأثرة، التي تتفاعل مع كلماته.

إلى أي جهة ينظر، عيناه لا تمنحنا الإجابة، عينان جاحظتان لرجل يقف ميتا تقريبا، يتحدث من الوضع متحسرا على شيء لم يعد من السهل استدراكه.

لم أشعر بالوقت، كانت رأسي ثقيلة جدا، ربما كنت متحفظا أكثر من اللازم، ذهبت للاعتقاد بجنونه، رغم كل ما سمعته من أحاديث تنذر بعقل واع، هذه الأعداد مؤكد فيها من عاقل. لكن أشد ما اندهشت له قبل أن أغط في النوم. أن ظللت أرد كلماته التي حفظتها عن ظهر قلب، والغريب من مجرد قراءة واحدة.



عند صلاة العصر قمت، وجدت أن هاتفي الصامت قد استقبل مكالمات لا حصر لها، لم تكن من بينها مكالمة واحدة من النبي، أو ممن معه. لم أهتم، وإن دخلني بعض الخوف والقلق، ربما عاشوا ردة فعل الحلقة عندما تم إعادتها في صباح اليوم التالي. أو سمعوا في العمارة، أو الشارع أي من تعليقات الناس عليها. أو تابعوها على مواقع التواصل.

كان مردود الحلقة على القناة كبيرا جدا، هكذا عرفت في مكالمة واحد من فريق العمل. والمحطة بدورها ملزمة بتحويل الرجل إلى ظاهرة، تستحق أكثر من حلقة؛ لأن ظروف ضغط الإعلانات، والمكالمات لن تتكرر بمثل هذه الكثافة بعد الانتهاء من أمره.

ارتديت ملابسي، لم أجد شهية مفتوحة لأن أتناول الطعام مع أمي، التي دعوتها لتأجيل أي حديث إلى وقت لاحق، وعلى مائدة الغداء وفي عجلة من أمري، حاولت ترضيتها بالأكل، شعرت أن الفضول يقتلها، فلم يكن سهلا عليها هي التي تتابع هذه المحطة، لا لأنها مميزة، وإنما لكوني أعمل بها، سألتني إذا كان من الممكن مناقشة هذا الرجل.

استمر الحديث، وأنا أحلق لحيتي واغتسل، ربما لم أكن أركز، الشاهد في كلامها، إنها ليست مقتنعة بشكل كبير، وإن أعلنت دهشتها حيال منطقه، الذي بدا يستحق الرصد والنقاش. المهم إنها تشفق عليه، تتحسس مأساة خلف حديثه وأفكاره. أخبرتها أن ظنها صحيح، فالرجل على حسب ما سمعناه، قد يكون هو في حد ذاته مأساة متحركة أو يكاد.

كأنه ينتظر اتصالي، لم انتظر طويلا على الهاتف الذي رد علينا مباشرة بـ أهلا، بنفس إيقاعها الذي سمعته من قبل. لم يبدِ ملاحظات كثيرة حول الشقة ومكانها، ولكنه أبدى ملاحظات لا تخلو من أدب عن القاهرة والطقس، والناس والزحام والضوضاء، وسألني مباشرة.. كيف للناس هنا أن تعيش وتحب، في مدينة بمثل هذا القتام؟

لم أندهش حيال ما قاله، فمثالب القاهرة قد وصلت إلى كل المحافل التي تهتم بطبائع المدن الكبيرة، التي تشاركها آفة الزحام، رغم أن زحامها مبالغ فيه وكريه. وعدته بالمرور عليه بعد ساعة قابلة للزيادة، فكل شيء مرهون بالمرور والشوارع، لكن سأحاول جاهدا أن تكون ساعة فعلا، لا أكثر.

عدتُ إلى حيث أنا، ضحكت، قلت في نفسي: الأنبياء عادة يميلون للهدوء والعزلة، لا يطربون للزحام والناس.

قبَّلت يد أمي واعتذرت لها، فالرجل قد صار أمانة في رقبتي، ومع الوقت، يُخشى عليه، من المتزمتين في كل مكان. سألتني مباشرة.. هل تراه كافرا؟

كرهت شعور الدهشة الذي انتابني بعد سماع سؤالها، لكن الرجل يذكر الله، ولم يدعِّ بأي حال إنه يتحدث باسمه، لكنه مرتاب ومتشكك من الطريقة التي يُظهرها الناس حيال الدين والإيمان. لم أستطع اتهامه بتسفيه الرموز الدينية الكبرى، ربما في قادم الأيام فهمنا.. إلى أي طريق يدعوا الناس.

مجددا كانت أمي التي أزعم إنها بريئة، تؤكد ظنوني كونه مقنعا،

ولديه حجة على ما يقوله من أفكار.. ربما هذا الذي يجعل الكثيرين يلتفون حول فكرته.

إن حديث العقل، حتى وإن انطوى على هذا الكم من الجنون، مازال يجد القبول من الذين يعيشون الجنون أصلا. فلا يوجد من تفاصيل في هذه الحياة تركن إلى أي عقل، ربما كان الرجل حصيلة نهائية لجنون نعيشه، بشكل لا يخلو من تطرف، السياسة جنون، الإعلام مجنون، الثقافة والفن والإبداع جنون في جنون، فلِم ننقم على الرجل أن يطالعنا بجنونه، الذي هو جزء من جنوننا؟!

كانت المسافة من باب الأسانسير إلى مدخل العمارة مرتبكة، وخصوصا من أولئك الذين يعرفونني بشكل جيد، كان حصارا هائلا من الأسئلة حول الدين الجديد، والنبي السكندري، ودعوته وأتباعه. طقسٌ مشحون كله بالفانتازيا.

لم تكن الجريدة المسائية لتتجاوز الإشارة للقناة، وضيفها، ورأي المشايخ الذي لم يكن، لا في صالح الرجل بكل تأكيد، ولا في صالح القناة، التي صدق فيها حدسي إنها ستتلقى اتهاما بازدراء الأديان، وتأجيج حالة من الفتنة المجتمعية.

كان ضروريا أن أمر على «محمد عثمان» الذي حالت ظروفه أن يكون حاضرا للحلقة الأولى وكواليسها. والذي لم يره منذ جاء من الإسكندرية.

على وشك أن أرن رنة واحدة تثبت لصديقي إنني قد أصبحت قريبا منه، وجدته على رأس الشارع، ركب معي، وكعادة هذا اليوم من بدايته، كان الحديث عن صاحبه الذي أحدث جدلا، في سابقة أحسبها نادرة في هذا الزمن.

بدأت أشعر بالخوف، هكذا بدأ صاحبي بمجرد أن استقر بجواري.

ـ إن هذه الثقافة التي ننتحلها لا تسمح لأي كان أن يتحمل هذا النوع من الهذيان، رغم إنني قد بدأت أشعر أن هناك شيئا مختلفا غير حديث الجنون في ثنايا ما كان يطرحه من أول دقيقة، فالرجل ممتع عندما يتحدث عن ماضيه، لكن في حديثه، وما يدعو إليه من أفكار، نجده مختلفا أشد الاختلاف.

فإما أنه يبتغي الجنون فعلا، أو إنه يصطنع حالة لم أعد أفهم هدفها.

ـ ربما استفاد من حالة الفصام الحادث على الأرض، فبعد هذه الملايين التي أصبحت تتابع الرجل، يبدو لي ظهوره على الناس في حلقة الأمس مفاجأة، الحديث والأفكار، والأهم مفاجأة التوقيت الذي يشعر فيه الناس أن خطاب الدين ـ أي دين ـ قد استقر وانتهى الأمر.

لكن شبح نهاية هذه القصة وشعوري الداخلي بالندم كان يطاردني بقسوة، خشيت أن أكون سببا لشر ينتظره، نهاية مأساوية لا تختلف بأي حال عن مأساته التي بدت واضحة، سواء في انطباعات صاحبي الأولى عليه يوم رآه منذ عشرين عاما، أو من خلال هذه الحالة التي يؤسس لها مع أتباعه، والتي مع توابع الحلقة الأولى، بدأت تدق الأبواب الموصدة بقوة مزعجة.

كان «محمد عثمان» يسمعني بتركيز، وإن لم تعطني ملامحه أي مظهر من الأمان والثقة حتى قال بهدوء مصطنع:

لم أعد أشعر بجنونه؛ إلا إذا كان الجنون هو الحُكمة في واحدة من معانيها، إننا نسمع الرجل ونرتكَب خطئا جسيما، نصادر عليه بتراث فكري لا نعرف عنه أي شيء، فلقد لاحظنا أن الرجل لا يتحدث أي لغة سلبية عن الدين - أي دين - ولا عن هؤلاء الرسل الذين مروا على تاريخ الأديان، ولم يسفه الشعائر - أي شعائر - إننا وقعنا في غواية الغرابة التي يؤسسها ببراعة، أو لم نؤصل شكل نظرتنا لفكرة التدين نفسها، والرجل قد جاء من هذا المكان الذي حسبناه بعيدا؛ كي يعري لنا الحقيقة.. إننا متجمدون وحمقى، ننتحل الدين انتحالا، ونورط أنفسنا في معان لم يعد لها وجود مطلقا. إنك لا تستطيع رغم كل ما يقوله أن تصفه ملحدا كهؤلاء الذين نلتقي بهم يوميا في ليل القاهرة.

تدري ما هو الخطأ الكبير الذي وقع فيه؟

قلت: ما هو؟

قال: لو ظل على تصدير أفكاره، لكانت الأمور أكثر يسرا، ولوجدنا ما يبرر جنونه، لكنه أصطنع شعائر وصلوات وأدعية خاصة به، وبجماعته.

هناك مغامرة قد تتساوى مع فكرة الانتحار، لأن تأسيس هذه الشعائر، يعني عند المتزمتين منا، أنه يؤسس دينا فعلا، وهنا الخطر.

لم أستطع التعليق على كلام «محمد عثمان» كان منطقيا، مؤكد هناك مغامرة تنطوي على تعاطي الرجل مع أفكاره، فهذه الشعائر ستعطي هذا المعنى لا ريب، لكنه رغم كل شيء، لا يبدو كمن يؤسس للعبث، يبتغي شيئا لا نفهمه، ولا ندرك جدواه، لابد أن في الأمر شيئا، ستكشف عنه الأيام.

وجـدت اتصالا، اكتشـفت أنه متكـرر منذ ركبنا السـيارة، ربما أذهلنـي حديـث صاحبـي أن انتبـه لـه. كان مذيع الحلقـة، والذي لمسـت من صوته ارتباكا، لا يجد الوسـيلة لاستطلاع أفكار الرجل وكشفه، فالمنطقة التي يتحرك فيها جديدة، وملامحه لا تغري، فكل مـا حدث أنه قال ما يحب أن يقوله. كانت إرادته توجه الحديث إلى حيث يريد هو.

ـ وما المشكلة إذن؟

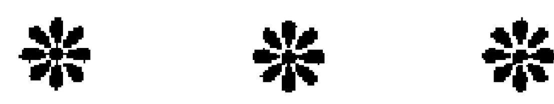
ـ المشكلة إننا لا نجيد توجيه الحديث أبعد من القناة التي تؤسس لهذه الإثارة، أو تنشد فتنة، تضرب المجتمع إجمالا.

ـ طالما أن حديث الرجل يجلب هذا الكم من الجدل، فلا أقل من أن نتركه حرا، يدير دفة اللقاء حسبما يريد، طالما أن مردود الحلقة كان كما تمنى أصحاب رأس المال.

لم أنتبه لإشارة صاحبي في الجوار أن أفتح السماعة؛ كي يسمع مخاوف وهواجس مقدم الحلقات، لكن شعرت وكأنه قد فهم من ردودي عليه الحديث وهدفه. ولم أخفِ حالة ارتباك موازية، فلم أكن أفهم كيف لنا أن نصمم أسئلة تدير اللقاء.. مؤكد كانت القناة رغم هذا الكم من الإعلانات والأرباح تدرك أن المسألة لعب بالنار، لكن كان الخوف الذي يسيطر على الجميع هو الذي يريد نحت أسئلة تحفظ طريق الرجعة. كي لا تتهم القناة بالتهمة الجاهزة.. إثارة الفتنة، وازدراء الأديان. في حين أن «محمد عثمان» كان له رأي آخر. إذ اعتقد أن مُقدم الحلقات لا يريد فقط تأمين طريق العودة من أجل اتقاء شر هذه التهم، وإنما يريد تأسيس أسئلة

تسعى لإحراج الرجل، كي يؤكد جنونه لمشاهديه، دون النظر إلى ما يطرحه من أفكار على ضوء اللحظة التي يعيشها مجتمع مهتم أن يراقب الحالة، أو على الأقل قد وضعها تحت ملاحظته.

كنت مقتنعا إلى درجة كبير بهذه التصورات، كانت أقرب في تفسيرها من كل التفسيرات التي تتحرك في ذهني منذ بدأنا، لذا نصحني مخلصا عندما اقتربت من العمارة أن أتحلى بسياسة أنتظر لترى.



رأينا الثلاثة عند باب العمارة بمجرد أن وقفنا.. عاد «محمد» إلى الخلف مع الشابين، وجلس الرجل إلى جواري، وتحركنا دون أن نحدد مبدئيا إلى أي جهة سنرحل، لكن قال دون سلام أو تحيات: أنا جائع جدا.

كنا نعرض أصنافا من الأكل، وجدنا في هذا النقاش إرباكا كنا نسيناه، لأننا لا نعرف يقينا ماذا يحب.. وإن كان يستطيع أن يتعامل مع الحمام إذا كان جيدا. والسمك لا جدال فيه. لكنه أبدى إيمانه بالتخصص، فالسمك هناك في الإسكندرية. تركنا نفكر بعيدا عن الممنوعات التي يتفاداها. ومن ثم سيطيع أي رغبة صادرة من هنا أو هناك.

قاطعنا «محمد» قائلا:

ـ الغداء على نفقتي الخاصة

وكان ذلك ترحيبا بصديقه القديم، وعلى الضفة الأخرى، لم يعلق الشابان أو ينطقا بحرف.

حاولت في الطريق أن أسأله عن ردَّة فعله حيال الحلقة التي تم إعادتها في الصباح، والغريب أبدى إنه من الخير والنفع إنه لم يشاهد الإعادة، كي لا يستدرك أخطائه، ولا يفقد إحساسه بطبيعته. فنحن في حلقة للرأي، ولسنا في معرض مسلسل، كل ممثل فيه مشغول بإتقان الدور وتجويده، يكفي التمثيل الذي يحدث في كواليس البرنامج، سواء من صاحب المحطة، الذي يمثل دور المستثمر الوطني، والجميع الذين يريدون أن أظهر كمجنون، ومدير التسويق الذي لا يريد سوى الإعلانات؛ كي تظل نسبته محفوظة، وأنت الذي تمثل انبهارك بي، رغم يقينك بنزقي وجنوني المستمد من عقدة عشتها!!

لم تمنعني دهشة حديثه من النظر في مرآةِ السيارة لوجه صاحبي الذي كانت ترتسم عليه ابتسامة عريضة وخبيثة في آنٍ شعرت في لحظة أن ظنوني المبدئية أن بالرجل مس من شيطان، لم تكن ظنونا عبثية. فلا مكالمة المُذيع معي خرجت من إشاراته، ولا حديثه عن القناة وصاحبها وموظفيها كان بها الكثير من التجني، وإن كان رأيه في وجهة نظري حياله، لم تكن ظالمة بالكلية.

عاد إلى صمته من جديد، فتح زجاج السيارة؛ كي يتمكن من تدخين سجائره، دون أن يغادر الصمت، وصلنا إلى المطعم المفضل لدى صديقه. وأشار إنه سيأكل، فلا حاجة لأن تتركوه يقول ماذا يريد، أنتم تطلبون، وما عليه سوى الانصياع لإرادة الآخرين.

كان حديث «محمد عثمان» إليه مفعم بالود والطرافة والابتسام،

يتذكرون أيامهما معا في هذه الفترة التي جاءت على حد توصيفه أصعب أيام حياته، ولولا هذه الشخوص التي عبرت إلى ذاكرته ما كان ليتذكرها أصلا. لكنه راح ليحكي مرحلة لاحقة لم يعشها معه..

ـ بعد المغادرة إلى السلوم، كنت مريضا، في قيادة الفرقة سألوني ماذا تفعل غير أنك من حملة المؤهلات العليا. فقلت: صياد. ثم انصرفت، وجدت ثورة تريد السيطرة عليَّ، فالجندي الذي سجل بياناتي، كتب بدلا من صياد؛ خطاطا. مهنة في مقام الندرة، حاولت تصحيح الخطأ، لم يصدقني، فالسكندريون كذابون. أخذني قائد الكتيبة التي سيتم توزيعي عليها. تعاطف مع مرضي، ولم يمنحني إجازة، في الكتيبة الطبية، لم أضحك في حياتي مثلما ضحكت، اكتشفت أن أي مرض يُعالج بأقراص أربعة.. كانت الحياة حيث هذه الصحراء الممتدة سيئة جدا، وظروفي المالية أثناء الخدمة بالغة السوء.

يضحك، ثم يعود لحكايته عندما يتذكر الرجل الذي عالج حالة الملل التي تنتاب بوسطجي «يحيي حقي» الشهير، فكيف يشعر بالملل وأسرار القرية كلها تحت يديه.

ـ تعلَّمت التزوير، وخصوصا توقيعات القادة الكبار، أربعون جنيها للإجازة، ومائتا جنيها للمأمورية الطويلة في حراسة شاليهات القادة، أو في حراسة المحجر. وثلاثمائة جنيه للفرقة التعليمية.

كنت حريصا أن أخرج من هذه التجربة كنذل حقير بامتياز، فالريفيون يكرهون الإسكندرية وأهلها بلا سبب، فقررت أن يكرهوني بسبب.

مازالت أذكر العريف «الشهاوي» الذي كان يسجل تزويري في دفتر أوامر الكتيبة، عند خروجي لآخر مرة من هناك، لم أبحث عنه بقصد توديعه، وجدني عند الباب أركض؛ كي ألحق بحافلة الإسكندرية، عاتبني على جحودي، تعللت بضيق الوقت، أريد اللحاق بنفسي التي دفنتها قبل الدخول لهنا، فلستُ أنا، الحقيقي مازال مدفونا هناك، خارج هذا السلك، وأريد أن ألحقه قبل أن يموت.. النذل والحقير، أحدٌ غيري. ضحك العريف، لكني كنت أعني كل كلمة. فلم أكن أنا الذي خاض معهم هذه التجربة.

لم يكترث الشابان بالقصة التي كنا نسمعها بتركيز مبهر، ربما سمعاها من قبل، و«محمد عثمان» كان مشدودا لها، وأنا لم أكن أفهم كيف استقامت الرغبة في يقينه لأن يكون حقيرا بإرادته، كان المعنى يضغطني بشدة، ولولا أن سمعت منه هذا التبرير الذي ساقه للعريف، فربما ذهبت نفسي لتصورات قد تظلمه، فلم يكن حقيرا بقدر ما كان واعيا أن الجزء الحقيقي فيه مدفون خارج الأسلاك.. ربما لأني وحيد، ولم ألتحق بالخدمة العسكرية من الأساس، لم أمتلك تحليلا لكل تفاصيل ما قاله، وحياته في هذه الفترة، لكن يظل الشاهد الذي لم أستطع إنكاره؛ أن هذا الرجل لا يجد غضاضة في فضح نفسه، وبصدق طاعن في الحقيقة.

على الرغم من ذلك، لم تبدُ شهيته مفتوحة، ويده لا تذهب صوب الطعام كثيرا، لكنه لم ينس الشابين، الذين نصحهما أن يأكلا؛ لأن اليوم طويل، ولا يضمن العشاء على حساب من سيكون.

(٩)

ربما لم أتلق اتصالا كعادة الرجل منذ أتى للقاهرة، أو أي من الشابين، وعندما شرعت في الوصول إلى حيث العمارة، دخلني الشك إنهم موجودون من الأساس، فلم يقفوا بحكم التعود في المدخل، انتظارا لقدومي، زاد الأمور إرباكا وغموضا، هواتفهم المُغلقة، لم تأخذني رغبة الصعود، لثقة غريبة لا أعرف سببها، إنهم ليسوا بالأعلى، وسؤال حارس العقار عن أي جديد حيال الرجل، ربما لن يسفر عن شيء.

كانت الأمور في طي التوتر والانشغال بهذه النقلة النوعية في حياتنا، التي بدأت تنذر بحضورنا المميز على حسابه. هو يؤسس جنونه، ونحن نجني الأرباح. الرعاة والإعلانات. ومحبو الرجل ومريدوه، يشعرون أنهم قد صاروا ملء السمع والبصر.

حال سمعنا إنه بصدد السفر للإسكندرية، لم نجد الأسباب المقنعة التي دعته لهذا، وخصوصا قبل الحلقة الثانية بيومين.

حدث على هامش رغبته حالة من اللغط. لم نذهب للاعتقاد إنه بصدد الانفلات من مغبة هذا الظهور، الذي شكل صدمة للكثيرين على اختلافهم، لكننا لم نشأ أن نصادر على نواياه، في العودة لمسقط رأسه لأمر يخصه. وحسبُنا إنه قد ترك الشابين؛ لقتل هذه الظنون، متى تسللت لنفوسنا حيال سفره.

رجوناه أن يرد على الهاتف مهما كلفه هذا، لأن إغلاقه، أو عدم الرد سيسبب لنا قلقا عليه، أكبر بكثير من قلقنا حيال الحلقة، والمشاهدين، وكل من يتابع قصته عبر نافذتنا. أشار لنا بإيماءة الرضا والقبول، وودعناه في رمسيس، ولوَّح لنا في طريقه إلى القطار.

لا نعرف ما الذي جعل ملامحه في هذه اللحظة تبدو مضطربة، ووجهه مُعتلا، ذائغ البصر، وميالا للصمت أكثر من سمته الصامت المعتاد.

ربما جاءته إشارة أن أحدا من أسرته في أزمة، أو قريبا من نفسه، ويريد أن يكون حاضرا في إطار ما يحدث، هو هكذا دائما حيال من يحبهم. هكذا قال لنا واحد من الشابين الذين ظلا معنا، والآخر حين ظهر، يؤكد وكأنه يدرك مخاوفنا إنه حتما سيعود، هو يتجنب تلقائيا توريط أحد، ولو على حساب نفسه وحياته، لو تتطلب الأمر ذلك.

كنا على درجات متباينة من القلق.. ربما كان «محمد عثمان» مطمئنا إلى عودته، مازال يحمل له إشارات قديمة تثبت وفاءه، وعدم تخليه، مهما كانت الأمور في ثوب الصعوبة، الغريب أن الليلتين اللتين سبقتا الحلقة الثانية معه كانتا الأصعب، ويجوز الاعتراف؛ إنه كان الفرد الأهم في هذه الأيام، بدونه بدت الساعات فارغة من معناها وثقيلة، ولولا مخافة إحراج أحد، لانصرفنا، كلٌ إلى بيته. لكن خشينا أن يفهم الشابان أنهما مُجرد ديكور يكمل الصورة، ولا يُجملها. رغم حرص الرجل البالغ منذ عرفناه، أن يؤسس كل شيء، وحركة، وفاعلية في وجوديهما. كشريكين مُخلصين، لا يمكن

تجاوزهما. لذا لم نفكر في تغيير طقوسنا التي اعتدنا عليها، سواء الرجل موجود، أو غائب لأي سبب.

كان المدهش إنه لم يخبر أحدا بأسبابه، فقط يريد الذهاب إلى الإسكندرية، وسيعود سريعا، وقبل الحلقة بوقت كاف. ربما كانت الفرصة سانحة لأن نعرف كيف دخلا الشابان إلى هذه القصة.

لم نخطئ في تصوراتنا المبدئية التي شعرنا بها حيالهما، فـ«التابعي» هو الأقرب إلى نفسه، والحقيقة أنه الوجه الأكثر راحة والأعمق ألفة، ومؤسس النافذة التي يطل منها الرجل على العالم الافتراضي، كونه البارع والحاذق في التعامل مع هذه النافذة. بينما الآخر لا يعادله، يتحدث كثيرا في حال غياب الرجل، ولا تبدو عليه إمارات الإخلاص الكبير للفكرة، شعور لم نستطع الانفلات منه مطلقا.

لم يطلب شيئا لنفسه، كل ما حاول انتحاله من سمت التجار، وآليات المساومة وغيرها، كان يبتغي به هذين الشابين، يريد أن يترك لهما أي شيء ينفعهما بعد زوال قصته، أو عند نهايتها. وظني أنه كان يعني بشكل حصري التابعي دون الآخر، فيا ربما كنت أشارك النبي في السر التعاطف حيال هذا الشاب.. وحيد أبويه مثلي، والذي خرج لمعترك الحياة؛ كي يبحث عن أخٍ لم تلده أمه.

تبلورت بعض الحقائق، فلم يكونا يعرفانه، ولم يسعيا في البدايات أن يجلسا معه، كان مجرد طيف يمر على الناس، أدهشتهما الطريقة التي يتعامل بها عمال المقهى حال رأوه.

تداخلت حوله التفاسير، فهو صديق حميم لصاحبها، وربما يخشون أن ينتج شكوى، أو إشارة سلبية حيال أدائهم وتعاملهم مع الزبائن. أو له من القبول الذي يجعل الجميع مرتاحا لخدمته.

يُعلق نور الدين عن هذا:

كنا نتابع على البعد هذه الإشارات. لكن يظل صاحب صالون الحلاقة الذي يأتي في الجوار، وطريقة تعامله مع هذا الطيف، هي المعنى الذي حرك عندنا الفضول لأن نسأله ذات يوم.. لماذا يقبِّل يده عندما يراه؟

فالأمر لا يحتاج هذه الصورة التي لا يمكن تفسيرها سوى كونها تمثيلية كوميدية، متفق عليها ومكشوفة، فلست أنت ـ مؤكد ـ في مقام الابن، وليس هو بالضرورة رجلا طاعنا في العمر ينفع أن يكون أبوك.

الغريب أن قال صاحب الصالون في جدية واضحة: إنه أجدر من أبيه لأن يحدث معه هذا التصرف، فمادمت قد رأيته في الجوار، أو في المقهى فلا أقل من ذلك. فهذا الرجل طيب وحقيقي، لا يمكن مقارنته، أو مصادفة من يشبهه.

بدا الرد، ليس فقط جديا، لكنه وضع إشارة أن صاحب الصالون يعرفه بشكل أكبر من غيره، ومنا تحديدا. رغم هذا الكم من الحرج الذي كنا نشعر به عندما يندفع إلى تقبيل يده، وغالبا أمام الناس.

لم نكن نركز في أبعد من رؤيته في نفس المكان الذي نجلس فيه، رغم ندرة ظهوره، حين نسمع عمال المقهى يطلبون طلبا مشفوعا باسمه، ندرك وجوده، دون أن نراه، أو نحدد أين يجلس.

حتى حدث ذات يوم أن وجدناه إلى جوارنا تقريبا، يجالس رجلا كبيرا، يرتدي ملابس جعلتنا نشك إنه أجنبي، لم نكن وحدنا يومها، اجتمعنا على قلب رجل واحد؛ كي نرهف السمع، ونرى في أي حديث يخوضون.

يتدخل التابعي ليكمل:

لاحظت أنه لا يملك مبادرة أو مبادأة لأي كلام سمعناه، وكأن من يجالسه يسأل، وهو بدوره يجيب، وبشكل قاطع ومختصر. لا زيادة فيه، ولا يمكن ربط لغته وأسلوبه الذي يتحدث به، بأي أسلوب آخر سمعناه، منذ جلسنا في هذا المكان، الأغرب شكل ردود الفعل التي تصدر من جليسه، والتي لا تبعد عن إطار الإعجاب والدهشة، والإقرار والموافقة، بأنه قد أصاب كبد الحقيقة، عندما قال كذا وكذا.. كنت أضحك في السر لهذا الذي يجلس إليه، فلقد كان شخصية غريبة، سواء لغته وأسلوبه، وهندامه. بينما الرجل المُشكل بالنسبة لنا، نتابعه بفضول لم نكن نفهم سببه.

قاما من جوارنا وتبادلا التحيات، ورحلا كلٌ في طريقه. هذه الليلة لم يكن الرجل يقدم نفسه كرجل مثقف، لكنه منحنا إحساسا حاسما بأنه مختلف.

في زاوية أخرى من زوايا المشهد التي جمعتنا به، قبل أن نتواصل معه إلى الدرجة التي يجوز توصيفها حميمة وقوية. يوم كان يجلس إلى جوار الصالون أبعد قليلا من المقهى. حاولت ساعتها استثمار تدخينه، وأشعل سيجارتي من سيجارته، لكنه أخرج ولاعة، ومنحها لي دون أن ينظر إلي، أو يمنحني سيجارته.

كالمتبع في عُرف المدخنين. لم أمنع نفسي من سؤاله.. لِم لا ترضى بإشعال سيجارتي من سيجارتك؟ صدمتني إجابته، والتي لم تخرج من مزاج الغرابة الذي يتحرك فيه.. قال: ناري تخصني وحدي، فلِم أحرقك بها؟!

لم أجد أي قدرة على التعليق، لم أجد كلاما أصلا أرد به على غرابة ما أسمع. شكرته دون أن أسمع منه أي شيء آخر. وعندما جاء «التابعي» أخبرته بهذا الموقف الذي قابله بضحك ودهشة.

كنا نجلس عند الشجرة التي تأتي قبالة مدخل البدروم، وفينا شاب بدا إنه يعرفه، انتفض قائما وتركنا، وذهب إليه لتحيته. كانت المرة الأولى التي نرى فيها ملامحه تحمل هذه الابتسامة الخفيفة، ومشاعر الحب تتدفق من وجهه حيال هذا الشاب، الذي عانقه عناقا دالا ومُعبرا. وسمعنا على البعد سؤالا عن الوالد والأسرة، وأين أنت الآن من هذه الحياة، وغيرها من هذه الكلمات. ثم ضغط كتفه بحب، ودعاه للجلوس، وأشار لعامل المقهى أن يرحب به، وعلى حسابه.

عاد إلينا الشاب ليخبرنا من نافذة أخرى، من هذا الرجل الذي لا يضحك للخبز الساخن، ولا يلقي أي تحية، ولا يرد إن ألقيت عليه. عرفنا بعد أن استقر على الكرسي، إنه صديق قديم لوالده، والذي احتاجه يوم كانت الثانوية العامة تحتفل بنظام التحسين، فطلب منه أن يراجع له منهج الفلسفة مرة أخرى لكونه في المرة الأولى لم يتجاوز حاجز الأربعين درجة. يعترف إنه في البدايات استهتر به، وشعر أن أباه ربما جلبه، لا للتحسين، وإنما دعما لظروفه الصعبة.

المدهش أن رأى الثقة حاضرة عنده، مدرس حقيقي، يسأله في أول لقاء كطبيب يسأل مريضه.. مم تشتكي؟ شرحه بسيط وممتع، وأمثلته التي يسوقها رائعة، وقصصه ونوادره التي يكسر بها ملل الحصة أكثر إمتاعا.

سألناه في صوت واحد عن الدرجة التي حصل عليها من بعد أن أعطاه، فكانت تسعة وأربعون من أصل خمسين، المدهش أن إحساسه بمساعدة أبيه له بهذا الدرس قد تبخر، عندما علم بأنه لم يأخذ مليما واحدا؛ إكراما للتاريخ الذي يربطهما معا.

لم نستطع الخروج من غواية الفضول الساعي للبحث في أمره، دون أن نفهم سر سيطرته علينا، رغم كونه رجلا عاديا، عاديا في كل شيء.

يذكر «نور الدين» أن جاءت به سيارة بعد الثانية فجرا وهبط منها.. كانت هيئته ساعتها خروجا على المألوف، بدا في منتهى الأناقة، ويفوح منه عطر غالي الثمن، لم نندهش وحدنا، بل إن عمال المقهى الساهرين شاركونا الدهشة، وأنتجوا بعض الدعابات الخفيفة، والتي استقبلها بابتسامة لم تكن عريضة. ربما ربطنا هذا التحول عندما انطلقت السيارة التي كشفت عن سيدة فائقة الجمال تقودها.

لم يجلس في أي جزء من المكان، وإن انطلق إلى شارع في الجوار، عرفنا إنه يسكن في منتصفه تقريبا.

تضغطنا في هذا الرجل أشياء كثيرة، فالناس ليسوا سواء، يصطفي من يتحدث إليه، أو يجلس معه، وجهه ليس واحدا حيال من ينظر إليه،

عابث متجهم على الأغلب، وحيال أناس بعينهم مع التكرار، ندرك إنهم الأقرب إلى قلبه. قال لنا بعد شهور طويلة، وبعد أن توطدت العلاقة معه: إن ابتسامته وسلامه وحديثه، مكافأة يجب أن تمنح لمن يستحقها، رغم أن كل سكان المنطقة يعرفهم تقريبا، لكنهم لا يستحقون إجمالا أي نوع من الاحترام.

كانت الانعطافة المهمة في شكل معرفتهم به ـ على حد نور الدين ـ عندما سقط مغشيا عليه أو يكاد على أثر مغص حاد، داهمه بعد أن تناول طعاما سبب إثارة لمعدته المريضة، بدا عليه الشحوب والألـم، ومع ذلك لم يترك لأحد فرصة إسعافه، دعانا لأن ننادي الحلاق بسرعة، اعتدل في جلسته، وإن ظل مقوَّسا لتفادي الألـم المتزايد، جاءه الحلاق بسرعة وبسيارة أجرة تحركا إلى حيث مستشفى أو مستوصف يستطيع إزالة آلامه.

يتداخل «التابعي» هنا ليؤكد أن ما قاله بعد هذه الأزمة عن عدم ثقته بالآخرين كان يستدعي في ذاكرتهم ما حدث في هذه الأزمة، رغم أن معظم من شاهده يتألم، كان يعرض خدماته بإخلاص، الطريف في هذا الموقف، أن الزبون الذي ظل على كرسيه في صالون الحلاقة لا يدري أين ذهب الحلاق، والذي لم يكلف نفسه عناء الاعتذار، أو الاستئذان لظرف قاهر، ومن ثم سيعود.

رأيناه في مساء اليوم التالي، وآثار ليلة أمس تاركة ملامحها عليه، نخشى أن نسأله كيف هي صحته الآن؟ ربما عاتبنا أنفسنا لِم نخشاه، وماذا يضيرنا لو اقتحمناه، وسألناه دفعة واحدة عن صحته، ولاسيما إنه قد سقط أمامنا مريضا متألما، هل من السهل عليه

إحراجنا ونحن نمارس الاطمئنان عليه. مؤكد رجل كهذا لا ينقصه الأدب، ويستطيع أن يجيب على سؤالنا. ذهبنا مباشرة وسألناه.. قال: الحمد لله أفضل، كفاكم الله شر الأكل في الشارع.

مرت الثواني كدهر، ماذا سنقول وماذا ننتظر منه أن يقوله، دعانا إلى الجلوس ورحب بنا.. اكتشفنا في أنفسنا إننا أبرياء، فالرجل لا يتكلم طواعية، ونحن أعجز من استفزازه لأن يتكلم، كنا نهذي في كلام روتيني.. نحن من سكان المنطقة هذه، نعرف شارع كذا، وذاك يسكن هنا، فيرد هاهنا، إنه كان يعرف فلانا، وربما يتذكر آخر، وكلام على هذه الشاكلة، حتى جاء باقي أصدقائنا، وبمجرد اقترابهم من المائدة التي كنا نجلس عليها، كان الرجل يعيد كرسيه إلى الخلف، ويطلب الاستئذان، قام وكأن زحام المقهى قد ابتلعه.

من العدل والثقة أن نعترف إنه ارتاح لنا وحدنا، وخصوصا بعد اتساع دائرة الذين مع الوقت جلسوا معنا. والغريب أن مشهد استئذانه المباغت كان سمتا مكررا، تجاسرت عليه وسألته عن السر، فأجاب..

إن الأجيال مختلفة، والاختلاف ينشأ لغة بالضرورة مختلفة، وطالما إنكم مدركون فارق السن الكبير بيني وبينكم، فمؤكد سيكون هذا بمثابة حاجز يمنعكم من التواصل مع مواضيعكم المعتادة، أو مواضيع سنكم، فلِم أتواجد، ووجودي قد يمنع الحديث من انسيابه. مازلت مؤمنا أن لا ذنب لكم أن وُلدت قبلكم، وإنكم قد جئتم بعدي. ثم ضحك، وانصرف كالعادة في صمت مباغت.

لم نكن نفهم إشاراته أن الناس كائنات زجاجية لا يحتاج لوقت كي يفهمهم، فهم واضحون بشكل مستفز، إيقاع أنفاسهم إشارة، حركة عيونهم، وعدم استقرارها معنى له دلالة.

يتداخل «نور الدين» مقاطعا، لم نلمس يوما رأيا قاله في واحد من أصدقائنا، إلا وكان رأيا صائبا بشكل معجز، يحذرنا منهم، ويحدد لنا الأخطاء المتوقعة، التي من الممكن أن يرتكبوها في قادم الأيام، الغريب تأتي تحذيراته على قياس ما قاله تماما.

(١٠)

كان حديث الشابين المنساب عن الرجل في ذاك الجزء المعتم الذي لا نعرفه، دالا ومعبرا، لكنه مخيف أيضا. لذا لم يتوقف فضول «محمد عثمان» الساعي لأن يسمع ما يحمله هذان الشابان من انطباعات. فأشار للتابعي بطريقة مباغتة وأنت ما كانت مشكلتك؟

يقول:

كانت أزمتنا في العجز البريء، الذي يمكننا من إقامة الحد الفاصل بين جده وهزله، ولا إدراك كينونة الطاقة الفائقة، القادرة على خلق النكتة من رحم حالة مغرقة في الحزن، دون أن تبدو عليه أي ردَّة فعل، تثبت الدهشة البالغة حيال نكاته الطاعنة في السخرية. لم نكن ننافسه في هذه المَلكة، والحقيقة التي ظلت ترهقنا: المختصر المفيد. لأنه لا يتحدث كثيرا، ولا يجيب أسئلتنا بأسلوب فضفاض ومسهب بغير احتياط. ذكاؤنا لم يكن على درجة كافية أن نفهم عباراته الموجزة، ولطالما اختلط علينا هذا المعنى.. كيف يكون مدرسا متميزا، ويكون زاهدا في الكلام لهذه الدرجة؟ ولماذا لا يتعامل معنا كتلاميذ تريد أن تفهم؟

لم يكن يعلِّق على ما يسمعه من نزق نمارسه.. أذكر بعد أن عدنا من القاهرة، وعرف ما أصاب زميلنا في سهرة أقيمت لنا، ليلتها تعرَّض لانتكاسة مخيفة، متأثرا بكمية الشراب التي تناولها يومها.

كان ينصت باهتمام بالغ. حدد لنا سبب هذا التعب المفاجئ الذي تعرض له صاحبنا. أشار أن الكحول ليس كله شيئا واحدا، بل هو عائلات، وكل عائلة لها ميزتها، التعب يأتي عندما تتداخل العائلات، إذا شربت من عائلة في أول الليل، يجب أن تنتهي عندها، لأن لو لم يحدث، فهنا الخطر، لتضارب الأهداف والمصالح.

المشكل، ورغم غرابة ما يقوله، لكن حال صاحبنا في هذه الأمسية كان إشارة أن الرجل لا يهذي، فكل الذين شربوا أكثر من نوع قد تعرضوا لهذه الانتكاسة. بينما أصحاب البيت كانوا حريصين على نوع واحد، بدءوا به، وانتهوا عليه، لذلك ظلوا للنهاية أكثرنا تركيزا، رغم كونهم قد شربوا كثيرا. لكنه عاد وأردف..

أولاد العرب يسيئون استخدام الخمر، فكما أن لكل عائلة من عائلات الكحول سمات، لها أيضا أهداف ووظائف، منها ما هو ضروري قبل الأكل، ومنها ما هو رائع بعده، من الحرص أن لا يشرب المرء، ومعدته خاوية أو ممتلئة بالطعام، لأن ذلك ضار جدا.

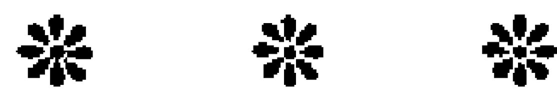
لم تكن حداثة سننا تجعلنا أبعد من ذلك التصور، فلا يمكن أن يكون هناك فصل تعليمي حصل عليه؛ كي يتحدث إلينا عن الخمر بهذا الثبات والتركيز والإحاطة، لذا فعندما أدرك بفطنته دهشتنا حيال ما يقوله. قال في أسى موجع: ليس كثيرا على رجل يعاني اعتلالا في كبده، وإن كنت لا أتورط أبدا في نصيحة أي إنسان أن يتوقف عن الكحول إذا كان يشربه. لا لشيء، فاقد الشيء لا يعطيه، والنصيحة إن لم تكن مدعومة بواقع يؤيدها، فلا طائل منها، الأب الذي يلج لبيته مترنحا، لا يمكن أن ينصح ولده أن لا يقرب الخمر أبدا.

يردف التابعي:

اتسعت دائرة المعجبين به يوما بعد يوم، أعظم ما حصلنا عليه من هذا المقهى أن عرفناه. ونلمح في عيون رواد المكان دهشة أن يروه معنا، هو الزاهد في الناس والكلام. وأكثرنا حرصا على الأفكار كانوا يستغلونه بحب، اعتبروه أكثر وفرا للوقت، فرغم الشحَ في كلامه، لكن إن تكلم يعدل كتابا نقرأه، لديه إجابات حتى على الأسئلة التي لا نعرف كيف نطرحها. حتى الأسئلة التي تبدو على درجة من الإحراج، النساء وتفاصيلهن، القبلة وآثارها، الحضن المؤثر، والمكان المناسب لوضع رأس الحبيبة في أي جزء من الصدر.. ورغم ما يبدو عليه من تفاصيل أقل من عادية، لرجل عاش الظل وأحبه، كان يستثمر فراغ البدروم، ويعلمنا كيف نستدعي فتاة للرقص، وكيف نرقص أصلا. ورغم ما يبدو عليه من اعتلال خفيف للصحة، كان ينهض من كرسيه، ويجرب معنا بشكل عملي. كنت بشكل شخصي أراقبه.. تنهار كل أفكارنا حياله لدرجة أن يشطح خيالنا إنه ليس عربيا. كل الأغاني الأجنبية القديمة يحفظها عن ظهر قلب، ذاكرة حافظة بشكل مدهش، يرى أن هوليود هي أعظم تراث صاغته أمريكا، هذه الدولة التي عمرها ربما أقل من عُمر بناية قديمة في شارع فؤاد.

عندما أردت تتبع النساء الذي حددهن لنا كأكثر النساء جمالا في نظره، أذهلتنا اختياراته، فمن وجهة نظرنا لم نجدهن مثيرات، أو من الممكن النظر إليهن كنساء فراش، يحققن حالة إشباع ما لرجل شرقي. لكنهن بريئات، ورقيقات، لم تكن تعجبه «مارلين مونرو» أو «أفا جاردنر» رغم اعترافه أن الأخيرة امرأة مثيرة للغاية.

لكنه كان يتيه في «أودري هيبورن» يراها ملاكا قد ضل طريقه إلى الأرض. وأداء وتمثيل «فيفيان لي» جعله يكره كل ممثلات العرب البدينات والمتكلفات.



كنا نسمع الشابين دون أن نشعر كم استهلكنا من وقت، ربما لم يقولا شيئا أبعد كثيرا مما يعرفه «محمد عثمان» عنه، لكنها بالفعل زاوية رؤية جديدة، لرجل لم يخفِ عشقه للظل، والابتعاد عن الناس وضجيجهم.

في هذه الأثناء تلقينا اتصالا منه، يطمئن علينا ويطمئنا عليه، يؤكد أنه بصدد العودة سريعا إلى القاهرة، فالأمر الذي لم يفصح لنا عنه على وشك الانتهاء.

ربما أعدنا اكتشاف الشابين في هذه الأمسية، ومؤكد شاركني صاحبي إحساس الحيرة حيال «نور الدين» تحديدا، بينما «التابعي» ظل كما تصورنا في البدايات؛ الأكثر قربا من النبي، بريء، وإن لم يكن ساذجا. يتحدث عن الرحل بحب صادق.. مؤكد انبهروا به لقلة خبرتهم، أو لأن الصدق يحتم علينا الاعتراف بقدرة الرجل على الإبهار. نحن أيضا لم نسلم من مغبة الدهشة، حال تواصلنا مع أفكاره وآراءه.

لا أدري لماذا صوَّب صاحبي هذا السؤال المباغت.. هل تريانه مجنونا؟

صادفنا ضحكا مختلفا من الشابين الذين ظلا ينظران لنا

ولبعضهما البعض، في دهشة ساخرة، وأعادا لنا السؤال.. وهل تعتقدان ذلك؟

قلنا: إننا نشعر بشيء يريد إيصاله لأحد، لا ندري ما هو، وغرابة ما نرى، التوقيت الذي لا يسمح بهذه الهرطقات، فدين جديد، وأتباع ومريدون وشعائر، مسائل كلها تصب في صالح التفسير الجنوني لحركته وأهدافها. والغريب إنكما انسجمتما مع ما يقول، دون تفكير أو مراجعة. وكأنكما لم تشعرا بخطورة خطوة كهذه، فهل الانبهار والإعجاب يدفعاكما للمضي في هذا دون النظر للنتائج؟

قال «نور الدين» في صوت منزعج:

إننا لم ننبهر بهذا الرجل، وإذا كان هناك هدف، أو رسالة يريد بثها، فنحن ندرك ذلك، بغض النظر عنها وعن محتواها. لم يخدعنا، قالها صريحة إنه بصدد كارثة. وعندما اندهشنا للمصطلح، وجدناه مصمما على هذا المعنى. لم يخفِ علينا إحساسه القديم بتفاهة العالم، يريد مخلصا أن يعيد اكتشاف القبح، لم يراهن على شيء غيره، لم نسر معه كالعميان؛ لأن في كل مرحلة من المراحل، كنا نجلس معه، يشرح الخطوة وأهدافها، والنتائج المتوقعة منها.

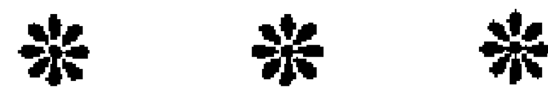
يتدخل «التابعي»: إنني لا أدعي الإحاطة والفهم للقرآن، ولا يمكن الحكم على كل ما كنت أسمعه، عندما كان يسأله أحدنا حول آية مستغلقة، أو معنى غامض، يفسره لنا بحرص بالغ، وفي الناحية الأخرى نستطيع الجزم أنه يفسر ما غمض علينا باحترام، وحب بالغ لهذا الكتاب، لم تذهب ظنوننا فيه كونه كافرا، وعلاقته بالسماء تعاني الارتباك، أذكر عندما قام بترتيب من يحبهم،

الذين يحتلون قلبه بالكلية، فكان الله، والرسول وأمه الراحلة، وجزء لا يستهان به لأخيه.

إننا ندرك رسالة يريد توصيلها، لكن ما هي، ربما لا نعرفها بالتحديد، يريد أن نرى أنفسنا من الخارج، ونضحك عليها. أحسبه يريد ذلك فعلا.. لأي هدف، ولإدراك أي نتيجة، لسنا متأكدين. وبالمناسبة؛ وصفه بالجنون ليس غريبا علينا، كنا نسمعه من أناس يشاهدوننا معه. يقولونها بغير احتياط، إنكم تجالسون مجنونا، لكن إذا كان هذا هو الجنون، فلا أقل من أن نغبطه. لقد قالها لنا بعد أن رأيناكم أول مرة.. للصدق لم يجرِّح أحدا، فالأستاذ»محمد« بريء في الزمن الخطأ، لكن أنت لم يكن يرى فيك سوى رجل تائه، مطعون، حزين، وفيك انكسار اليتم وهوانه. وقد تُدهش إذا أخبرتك الآن، ودون أن تحزن لهذا.. إن هذه القصة تتم من أجلك. رأى في عينيك سطوة الطموح الجامح؛ لأن تربح كثيرا من وراء لقاءه، وتؤسس مجدك الشخصي في معركة وجود. لا تظن أن هذا الرجل قد يضعف أمام المال، والأضواء والضجيج، لم يخفِ يوما كراهيته للقاهرة، وإحساسه أن كل سكانها مأزومون. الرجل لم يجرب يوما أن يعيش لنفسه، رضي أن يكون في الظل، ليس حبا في الظل، ولكنه يكره أن تلوثه الشمس التي تشرق فوق رؤوسكم كل يوم، لأنها شمس كاذبة وحقيرة.

ثم أردف: كنا نضحك لأنه راهن إنكم لن ترضوا بحلقة واحدة، ويدرك إنكم ستتاجرون به، وأن شغلكم الشاغل تصديره للناس كمجنون، لأنكم ـ عفوا ـ أجبن من تحمل مسئولية ما يقوله وهو

يقينا في ذمة العقل، وقال بلهجة تحد ما رأيناها في عينيه من قبل: المهم من يضحك أخيرا.



ربما في هذه اللحظة أدركت لماذا «التابعي» دون الآخر له هذه الحظوة، وهذا الشعور الصادق بالقرب، لم يكن صمته منتحلا، فمساحات الثقة حتى على مستوى الاثنين في هذا الرجل بدا لي متطرفا. لا غضاضة أن أفصحوا عن تلك الكواليس، التي تتم بليل. حاولت التكبر والوقوف كضد لما طرحاه بشأني، والرجل.. يا لقسوة الغباء!! قد قال في إيجاز رأيا أراه صائبا، ولو على مستوى الظرف الذي أعيشه، منذ تواصلت مع قصته. يراني مطعونا وحزينا، وفي عيني انكسار اليتم. نعم نتاجر به، لكن إلى حين، نستطيع فيه أن نفهم إلى أي جهة سيأخذنا. القصة من أجلي يتحرك فيها لإنجاز طموحي أنا!!

كان «محمد عثمان» أكثر مني سعادة، انتصرت قناعاته، كل تصوراته صحيحة، آرائه المبدئية، حتى على مستوى الشابين صائبة، أكثرهم صمتا، أعلاهم فهما للرجل ولأهدافه، تعامل معنا بكرم أخلاق زائد ربما. كان يمتلك رفضا حاسما لأي شيء طرحناه عليه، ويكفي أن تعاطف القدر، وجعله يرى صديقا قديما كانت تربطهما علاقة حتى لو كانت عابرة.

الليلة الطويلة دفعتنا لأن نرحم الشابين الذين يعانيان يتما عارضا بعد غياب نبيِّهما، تحيات ووداع، نزلنا إلى الشارع نكاد لا نتحدث.

صادم وغريب ما سمعناه، لمحت دموعا في عيون صاحبي، لا أدري حزنا أو ندما أو شعورا بورطة كبيرة لرجل يظل أضعف من هذا الزمن الذي شاء قدره التعيس أن يقذفه في تفاصيله، ركبنا السيارة، ولم ننطق، القاهرة كما هي، لم أشأ دعوته لاستكمال ما تبقى من ساعات على الصبح، تركته عند بيته، ورحلت عائدا إلى أمي؛ التي منذ بدأنا قصتنا لم تعد تنام في موعدها.



في عصر اليوم التالي، وعلى ضوء آخر رد فعل رأيته على وجه صاحبي سعيت للاتصال به، لا أدري لماذا كنت حريصا على هذه الخطوة، رغم أن الشابين يقينا لم يقصدا تجريحا، قالا الحقيقة كما سمعاها بدون تزييف، والحقيقة هي كذلك دائما، طاعنة وقاتلة.

لم يرد على اتصالي في البداية ومع التكرار، ربما أجاب بعد فترة لا أعرف مقدارها.. في هذه الأثناء تناولت غدائي مع أمي، وهبطت إلى الشارع، وقررت دون تفكير الذهاب إليه، لم يكن رهاني على شيء أبعد من الحالة التي تلبست الجميع في ليلة أمس.

كان وصف النبي لـ محمد عثمان حاسما ومقتضبا، مأزوم وجاء في الوقت الخطأ، وزعمي أن هذا النبي نفسه قد جاء في ذات الوقت، لكن ما حدث كان مؤكد أكبر مني، فمنذ ساعة تقريبا كان نبي الإسكندرية ليس فقط في القاهرة، لكنه كان يزور محمد عثمان في بيته منفردا، وبدون الشابين لأول مرة.

لم أرَ صاحبي في حال دهشته، وكأنه تعود على هذه الأشياء، لم أستطع تفسير الحالة الشجية التي اعترته بالكلية، ولا يدري أهناك

ثمة خيانة لو أطلعني على أسباب زيارة الرجل. أو حتى مجرد إبداء السبب الأساسي الذي جعله يرحل. وجدت اضطرابا، لكنه أشار إلى كيس من البلاستيك من هذه الأنواع التي تحمل شعار الأسواق الحرة، يحملها المسافرون. بها أوراق كثيرة جدا، وكشاكيل وكراسات، ومعظم الأوراق مجمعة في ملازم، ومحكومة بدبوس أو إبرة. حاولت التدقيق، أو تناول شيء لاستطلاعه، فرفض في حسم.. فالرجل لم يترك هذه الأوراق؛ كي تقرأ الآن، أو أن أطلع عليها في حال وجوده، بل هي أمانات أودعها عنده، وربما سيأتي يوم نعرف المكتوب فيها. ثم راح في نوبة بكاء مكتوم، وأشهد أن رأيت انكسارا وحزنا لم أره في صاحبي منذ وفاة أمه. لم أحتج لدليل على سبب زيارة الإسكندرية المفاجأة، لكن تبدى لي شيء غريب؛ أن يحرص على السفر، واستحضار هذه الأوراق في هذا الوقت، وعندما تجاسرت على طرح السؤال، فكانت الإجابة التي توقعتها.. بِم يشعر هذا الرجل، ولِم الآن؟ فرد صاحبي: ربما الخطر!!

إذن فهناك ثمة خطر، يتعايش مع الموقف، ويفكر ويخطط للحظة، ربما لن نتمكن فيها من معرفته بوضوح، فرحل إلى الإسكندرية بهذا الشكل المفاجئ ليحضر لنا الأوراق التي تؤسس ماضيه الذي لا نعرفه أو نعرف بعضه. وهل كان من الحكمة أن يترك أوراقه لهذين الشابين؟

ربما كان في الأوراق ثمة لعنة، يشفق عليهما منها، أو إنها أكبر من أن يتحملا ما فيها، لا أدري إذا كنت أقول التفسير الصحيح للأمر، أو هي محاولة لأن يندفع «محمد» لقراءة هذه الأوراق قبل

أن يختفي صاحبها، أو ينزوي بعيدا كما كان من قبل أن نلتقي به على هامش دعوته.

استفزني صمت صاحبي الذي لم يخفِ خوفه. الغريب، لم يعلق على أي فكرة طرحتها حيال مستجدات الأمر، والتي بدت غريبة فعلا، وإن كنت آمنت إنه ربما أخذه الفضول، وقرأ شيئا هو الذي يؤسس هذه الحالة من الحزن، وحين شعر بوخز الضمير وخيانة العهد، أعاد كل شيء للكيس، احتراما لثقة الرجل الذي اصطفاه لأن يترك له أوراقه.

بعد تزاحم الأجواء بالحيرة والدهشة، نظر إلي نظرة طويلة وابتهل في رجاء أن أتركه وحده؛ لأنه يحتاج هذا الشعور ـ الآن ـ بشكل أكثر إلحاحا، بل لربما يحتاج أن ينام، فالأمور كلها تضغطه.

لم أشأ مناقشة الرغبة، ولا أن ألجأ إلى تقويته وتشجيعه، خرجت من عنده دون النظر إليه، أو توديعه، وإن كنت لم أمنع نفسي من إلقاء نظرة طويلة ومتسائلة لكيس الأوراق، التي دفعت النبي لأن يرحل سريعا ويعود؛ كي يتركها للرجل الذي يزعم إنه قادر على الحفاظ عليها، متى حدث في الأمر شيء.

(١١)

كانت الرهبة قد زالت عن الرجل، هبط من سيارة القناة بثقة وثبات، لم ينظر إلى أحد، تأبط ذراع محمد عثمان، وصعد، كانت الحلقة الثانية والتي أتت بعد جدل عنيف، انتحل فيه كل آليات التاجر الحاذق بدون الشابين الذي حسبناهما ظلا له. ولم نشأ أن نسأل عن سر غيابهما.

الكواليس بدأت تدخل لإطار العادة، فناجين كثيرة وسجائر أكثر.

تلقى تحية عابرة من المذيع الكبير، وأخرى مني، ونهض إلى تحية مدير المحطة، ابتسامات وتحيات متبادلة على البعد، مع شباب العاملين في الأستوديو. يدرك أن هناك ساعتين، لم ينس الاتفاق الذي كان بعد الحلقة الأولى؛ بدا إنه قد نام جيدا، ملامحه تمنحنا هذا الشعور بالاستعداد والتركيز، وإن كان الأخير حاضرا دائما مهما بلغت درجات تعبه.

لا أدري ماذا اعتراني، ففي بداية الهواء، والمذيع يصوغ التقدمة، تداعت عندي العديد من التفاصيل، يعلن للشابين إنه بصدد صناعة كارثة، ولِم كارثة؟

يسافر للإسكندرية وحده، دون سبب، ويعود سريعا بكيس محمل بالأوراق، يتركها أمانة في ذمة صاحبه، يتخلى عن الحرص، وينتحل ثقة وثبات غريب مباغت، لذلك حرصت أن لا يشغلني سواه، وأنا أراقبه من غرفة الكنترول، وأزعم أن لو جاء من يريد

قطع جزء من جسمي، لم أكن لأشعر به. تركيز وتوثب لما سيقوله في الساعتين المقبلتين.

بدأ مقدم الحلقة..... لعلك تراقب حركة الجماهير التي تنظر لك الآن، أغلبها ليس في صالحك، فأنت نبي لمجموعة من السفهاء ـ عفوا ـ تمارسون جنونا غير مبرر، فبم ترد على من يرى ذلك؟

ـ ومن قال إني النبي، ومن يتحمل أن يأتيه رجل، يدعي أنه مندوب السماء إلى الأرض، وهل تم استهلاك وتنفيذ ما قاله النبي الأخير الذي سبقني؟

الناس من قديم تتحدث هذه اللغة، لا يقرون بجهلهم، يتورطون في أشياء هي السفه. أيهما أكثر يسرا وتحريا للشرف وأمانة الحياة.. أن تعلن المرأة إنها قد ضاقت بحياتها معك، ولم يعد شيء يدفعها للاستمرار، ترى في طلاقها الحل لأزمات عشرتها معك، أم إنها تستمر رغم كل هذا، تؤسس لعلاقة مخفية، ترى فيها ما يخفف من أزماتها في حظيرة الزوجية..

جلسات الكهرباء مسألة قاسية جدا، لكنها علاج. البتر أمرٌ بشع، لكنه ضروري لحياة باقي الجسد. الدواء مرٌ أحيانا، لكنه مهم لزوال الألم الأكثر مرارة. أنا ودعوتي كل هذه الأشياء. الدواء المُر، والبتر، وجلسات الكهرباء. لابد منا كي ينتبه الناس.

ـ لكأنك قد شخصت المرض؟

ـ المرض؟ إنك تسأل وكأنك قد انتقلت إلى الرفيق الأعلى. إن الذين يسألون هذه الأسئلة يعانون التبلد، ماتوا إكلينيكيا، عندما طالعنا قصة المرأة التي قتلت زوجها وأبنها بالاتفاق مع عشيقها،

كنت أسمع رد فعل الناس حيال الجريمة، وحديث الناس لا يخرج عن كونها سطوة الشهوة والشر، والشيطان الذي يغوي، ويدفع لهذه الجرائم البشعة. كنت تائها في تفسير ما أسمع، أتفرس ملامح هذه الزوجة وعشيقها في الصحف، لم أشأ نعتهما حيوانات؛ كي لا أظلم هذه الكائنات البريئة، لم أجد وصفا، سمعت من صعاليك المقهى الذي أجلس فيه.. أن الشيطان بريء من هذه الجريمة، فالشيطان أب وله أولاد، يدرك قدسية هذه العلاقة. مُحال أن يوسوس لهذه المرأة أن تقتل أبنها، ربما زوجها، لكن أبنها مسألة فاقت قدرات الشيطان الذي لا يراهن إن وسوس؛ تستمع له. شرورنا باتت أكبر، كيدنا صار أشد تطرفا، نحترف الانحطاط، وكأنه وسيلة للاسترزاق، مشغولون بتجويد القبح، وابتكار أدوات جديدة للضلال.

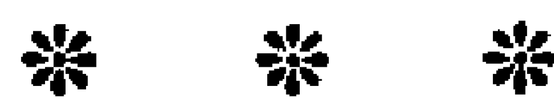
لا يوجد إله مرتش، والآلهة الأرضيون كما ترى، ينتحلون سمتا مغايرا للإله المثالي، فمن يجلس على منصة القضاء إله، فهل حكم بالعدل؟ يقضي هنا ويقضي هناك، وفينا من يعرف التسلل إليه حيث هو.. عندما تسمرت في مكاني، والضابط ومخبروه يحيطون بالمكان، لا أدري لماذا أمتعض وكره، لم أره الإله الذي وجب أن نفر من قضاءه، أهانني، لا لشيء، لكنه أصر أن يهزئ بي، لكوني لم أركض كغيري. وهل كان ضروريا أن أركض هربا. كيف يُفسر احترامنا له بركضنا المُهين؟ أوراقي صحيحة، خدمت الوطن، وأنهيت خدمتي الحسنة، لم أدخل قسم شرطة لغير إنجاز وثائقي، لِم أركض؟ ولِم أعاقب؟ أي صولجان يحمله على كاهله يدفعه لأن يرانا هكذا؟

إيهما أقرب للإنسانية أن أدفع تأمين المستشفى، أو نرى حال مريضنا الذي يوشك على الهلاك؟

الـمُعلـم الذي يسـتهلك الوقت فـي مدارس الحكومـة في ذاك التهريج المنظم، ويبتز الآباء المسـاكين خارج الأروقة. كيف يتعلم الفقراء في ذلك الطقس الرديء؟

المرض؟!!

الـمرض توصيف بسيط لـما نـحن فيـه.. أدران، طفيليات، فيروسات، كائنات هلامية تتحرك في لا شيء، لإنجاز لا هدف، نحن اللون الذي أساء إلى اللوحة، والنغمة النشاز التي أفقدت اللحن معناه، حفنة الغبار التي لوثت الهواء، السم الزعاف الذي تسلل إلى الماء، فماتت مخلوقات لا ذنب لها أو جريرة، فقط.. قدرها الصعب حكم عليها أن تجاورنا في ذلك الكون الفسيح. صفحات مسيئة في كتاب تحدث بالطهر، الشطرة المكسورة في نشيد تردده الملائكة. الدم الفاسد في شرايين حياة، كان من الأفضل لها أن لا ترانا. الدنيا القذرة التي تزاحم الصوفي المريد الباحث عن الحقيقة.



قبـل الفاصل الإعلانـي الأول الذي خرج به مقـدم الحلقة، كنا نبحـث عنه، لم نجـده، كان إيقاع الرجـل في هذه الأثنـاء مختلفا، عبـارات حاسـمة، صادمة ومريـرة، كنت أختلس النظـر لصاحبي، شـعرت إنه يقف على أطـراف أصابعه، يتابع مبـاراة مثيرة، للاعب

هـداف متطـرف المهـارة، الصمت يخيم علـى المكان. أشـهد إنه الضيف الوحيد الذي استلب الجميع؛ لكي ينظروا إليه ويسمعوه، في محطتنا الفاشلة. وما بين مقدم الحلقة الذي بدا مرهقا، والضيف الذي لم يبرح سـجائره، رأينا على البعد مدير القناة قادما إلينا. ربما كان يبحث عني، ذهبت إليه، ودعاني بشكل شخصي للجلوس معه بعد انتهاء الحلقة وبعيدا عن المحطة.

عدت سريعا للحلقة، تابعت الغمز واللمز الذي يغبط المُلاك على هذا الكم من الإعلانات والرعاة، في سابقة هي الأولى.

بعد العودة من الفاصل تعامل مع الاتصالات بأدب جم، رغم أن معظمها لـم يخلُ من استفزاز وإهانة. رد عليها كلها، تعليقات عابرة، أو بدون تعليق.

أتـت مكالمة تشـير لرؤيتـه القاتمة التـي لا ترى نورا فـي نهاية النفق.. قال:

ـ في ناحية قريبة من منطقتنا، مات رجل كان جدًّا لمجموعة كبيرة من الأحفاد، ميسور، له ثروة متنوعة من أراض، وعقارات. مات في بيت أبنه الصغير، الذي توفى قبله بسنوات. وإمعانا في سرد قصة هذا الموت المثير، بحسبي أن أخبرك.. أن الرجل الذي أنسل إلى جثمانه، قد وجد إبهامه مكسورا وملطخا بالحبر.

لـم تكن المسـألة تحتاج شـرحا، فالأحفاد انتبهـوا لوضع مالي يجب ترسـيمه قبـل دفنه، تجمـدت الجثـة، ولم يجدوا غير كسـر إبهامه، واسـتحضار الحبر؛ كـي يبصم على عقود البيـع الابتدائي، يتنـازل فيهـا عـن بعـض ممتلكاتـه لأحفـاده مـن أبنـه الراحـل،

ولأن الرجل الذي مارس تغسـيل الموتى كقربى لله، لا يأخذ مليما من أجل ذلك. وجد في نهاية الغسل مظروفا به ألف من الجنيهات، وإشارة أن لا يخبر أحدا بما رآه في جثة جدهم.

القتام؟؟

في ركن من الليل جاءني شاب أعرف أباه كان مسلما ولا أعرف من أين حصل على رخصة لبيع الخمور. ولأنه ليس أخا شقيقا للشاب الذي يدير المحل الآن، والذي توقف عن بيع الخمر بعد وفاة الأب، حدث تحايل من زوجة أبيه وأبنها على المال الذي تركه الوالد.

أعـرف الأم وولدها، ويريد مني أن أضغط؛ لعودة الحقوق لأصحابها.

بدت الأمور ملتبسة، عن أي مال يتحدث الشاب المغبون؟

اعترتني مثالية حاولت تصديرها، إن هذا المال لعنة، مدخرات قديمة، أتت من بيع الخمر الذي مارسه الأب لسنوات، مال حرام، من تجارة هي حتما حرام. الغريب أن قال: إن أموال عمه الآخر جاءتِ من بيع المخدرات، ومع ذلك تم توزيعها بالعدل، ولم يحدث هذه الغبن الذي حدث معه من أخيه وزوجة أبيه!!

قلت: مـا هذه العائلة، مدخراتها كلها مـن المخدرات والخمر، انتحلـت المثالية للنهايـة.. اعتمادا على نص مقـدس يحرم الخمر تصريحـا دون المخـدرات.. دعوتـه للتنازل عن هـذا المال، ووأد الصـراع، حول مـال ملعون، حسـبني مجنونا. كنت ملزمـا بتقديم دفوعـي، فدعوته للنظر لموت أبيـه الذي أذله المـرض، بينما عمه

تاجر المخدرات، قد مات بعد العودة من الحج، وبدأ يظهر في المساجد، كان وجهه يشع نورا في أيامه الأخيرة، بينما ظل أبوه للنهاية مُغبر الوجه، مؤبلس الملامح.

القتام؟؟

ليس سهلا أن ترى يد القدر تحقق لعينيك آية تدرك مغزاها. فلا ينبغي لرجل مهما بلغ يقينه في تاريخ أي إنسان، أن يوقف محاولة إنقاذ أب من أبنه الذي يثقل عليه بالضرب، لمجرد إنه شاهد هذا الأب ذات يوم يضرب أباه. أهذه هي العدالة؟ كل هؤلاء ينظرون للمشهد فقط كإشارة للعدل، الابن يضرب أباه مثلما فعل الأب منذ زمن مع أبيه.. إن الضمائر قد ماتت. فلِم نندهش حيال القتام.

الشذوذ أكثر إلحاحا وظهورا، لا نرى كل الصورة، مؤكد هناك بعض الضوء والطهر والخشية، لكنها ملامح ضائعة.

عندما راح الرجل العظيم في غيبوبة، ولن أذكر اسمه، بات على أمر ربما أورده الهلاك، الذي ألم به حتى النهاية، كنا نعرف زوجته، ومؤكد لو كانت تسمعنا، لأدركت إننا نتحدث عنها.. تلقينا اتصالا يدفعنا لإسعافه، عرفنا ساعتها أن سائق عربة الإسعاف هو في الأساس سمسار، يحاسب إدارة المستشفى التي يتوقف عندها المريض، لم نهتم، اتصلنا بأصدقائه، أخبرونا إنها مستشفى المواساة التي تتعامل مع موظفي الشركة، رأينا غرفة العناية الفائقة وتفاصيلها، لم نكترث، مات الرجل من الإهمال، أمرُ الله على كل حال، لكن أين زوجته، وأولاده.

بعد يومين، اتصل بي شقيقه، بدت عليه آيات التأثر، لم يشر إلى مصاريف الجنازة، اعتبر أن أخاه موظفا، والشركة ستتحمل، ومن العيب أن يتحدث في هذه أمور، لكن بحكم أنه كبيرهُ، كان يضع عنده مدخراته، ما يربو على الثلاثين ألفا من الجنيهات، ولا يدري مصير الأموال بعد هذه الوفاة المباغتة، والتي حالت ظروف أخيه القابع في الغيبوبة، أن يعطي إشارة ضمنية لزوجته، أو لواحد من المقربين، ما يُلمِّح لهذه الأمانة.

لم يكن ثمة شاهد على الحديث سواه وأخته. بحثنا الأمر وقتها فوجدنا زميلا لأخيه، لديه معرفة بالأمر.. على موعد تحركنا لأرملته، انتظرنا كثيرا أن يبدأ أخوه الكلام، لم يفعل، والزوجة بملامحها الجامدة، لا تكترث، بعد سلسلة طويلة من الكلام الممل، سألها أن تعطيه صورة أبيه الراحل، فالصورة نادرة، وما كان لها أن تترك البيت القديم، وطالما أن أخاه قد مات، فلا أقل من عودة الصورة.

اندهشنا والمرأة نفسها شاركتنا الدهشة، بدت غير مقتنعة بهذا الطلب الذي كان من الضروري أن يؤلمها، كون صورة الجد في بيت أحفاده. أشارت إليه من مكانها أن يرفعها من الحائط، ودعت أبنا لها أن يأتي بكيس لعمه؛ كي يضع فيه صورة جدهم.

خرجنا دون أن نفهم أي شيء، أخذنا الشك في أخيه. سألنا في صوت واحد بمجرد هبوطنا إلى الشارع.. أين حديثك عن المال؟ والأمانات؟ لم يرد.

هل تحركنا من هناك لهنا؛ كي نأتي بصورة؟ فينظر إلينا بدهشة، ولا يجيب.

استأذن صديق أخيه؛ فاندفع في الكلام، وبكى بكاءً مريرا، يسأل في استغراب.. مات أخي من أيام معدودة، وكل شيء في البيت جديد جدا، هذه الستائر جديدة، الثلاجة جديدة، هذا المصاغ الذي ترتديه أحسبه جديدا، وهواتف الأولاد المحمولة.. ربما فكرت عند سماع ما يقوله الأخ المغبون أن نعود مجددا للمرأة، لكن صدمتني رؤيته، فدعاني بإلحاح أن ننسى الموضوع، فليس سهلا إحداث شرخ في نفوس أولاده، حين يعلمون أن أمهم سارقة، لم تحترم موت أبيهم، ولم تحترم من أودعوه أماناتهم.

القتام؟؟

كانت هذه الساعة التي يضعها في معصمه لافتة جدا في آخر زيارة له، ليس فقط كساعة غالية الثمن، لكنها كفالة بنكية، هكذا نعرف، الغريب أن هذا الرجل القادم من بلاد الرومان لم يزر مصر أبدا، المؤسف عندما أدرك اقتراب أجله متأثرا بسرطان المعدة، أخذه الحنين للزيارة.. مات الرجل ودُفن هناك.

لا أدري لماذا تأخذني هذه المثالية، فلقد كانت الساعة الثمينة كفيلة بتكاليف نقل جثمانه إلى هنا، وتزيد ربما. سألت أخاه الذي كان شريكا لغربته، وتجاسرت لأن أطرح عليه هذا التصور، ولاسيما بعد أن رأيت الساعة نفسها في معصمه.. رد أن الأرض كلها لله، فصحت في ثورة: ومن قال إنها أرض الشيطان.. لكن هنا، قد يصادف من يدعو له حال رأينا اسمه على شاهد قبره، وجدته مُصرا أن نهديه الفاتحة حيث هو.. وعندما يئست، أشرت أن هذه الساعة رائعة، فمن الواجب أن يحافظ عليها.

القتام؟ لربما نحتاج فعلا لأن نعيد ضبط مصطلحاتنا. !!

(١٢)

إن جلال الثقة الذي يتحرك به في إطار لعبته، كان يُشكل حالة من الضغط على معنى الفصام الذي تجلى من خلال الجلسات الكثيرة، التي تعقب الحلقة المنتهية، واستقبال الحلقة الجديدة، وحتى قبل أن يأتي للقاهرة. فالرجل قد فهم الدنيا لدرجة؛ أنتج معها حالة احتقار لكل التفاصيل، آمن بالعبثية، وانعدام الجدوى. وأن اليقين الذي يعتمل في قلب كل أصحاب الديانات.. أن هناك ثمة محرقة تنتظر الجميع. ولا يوجد من يطفئها.

لم يكن «محمد عثمان» بنفس ذات الحالة التي بدأنا بها، آمن أن جنونه خدعنا، أو إنه يعاقبنا بمزيد من العقل الذي يخلق هذه الأطروحات المجنونة بطبيعتها. فنحن الجبناء الذين لا يمكن لنا أن ندافع عن آراءه، إذا غادرت الهذيان، لصالح منطق يريد أن يصطنعه.

كعادته منذ عرفناه، راح يحكي ذكرياته بدون رابط، أو حبكة تحكمها، كأن الماضي قد ارتدى ثوب الهذيان أيضا. لكنها الدراما التي ما كنا نملك حيالها سوى الصمت. كان مخيفا وعنيدا في طور الاستعداد للقاء الثالث الذي بات على بعد يومين.

كنت أريد تصميم إشكالية أورطه فيها، تكشف وتحدد كيف يرانا فيما هو أبعد من هذه الترهات.

كانت الظلال الصعيدية التي مازلت عالقة فينا تضع اللمسات المتحفظة حيال علاقاتنا بالأقباط. لم أجد غضاضة في الجانب الإنساني، فليس مسموحا أن أفكر لما هو أبعد من كونهم موجودين

في محيط العمل والحياة. وإن كنت أشعر بشيء لا أستطيع فهمه حيال المفاتيح التي تأسس على ضوءها اليقين المسيحي نفسه. ولا أدري لِم أخذني الأمل أن أجده على الأقل يفكر بطريقتي. أو لا يخالفني مخالفة حاسمة حيال هؤلاء الذين يشاركوننا الحياة.

لم أجد حرجا لأن أسأله عنهم، كيف يراهم، هو الذي فهمت إن أصوله صعيدية أيضا. لكن، كان سؤالي في هذه الأثناء يسجل في قناعاتي وتصوراتي حياله معنى آخر لم ألمسه في البدايات.. فهذا الطيف لا يجيب الأسئلة، بقدر ما يحكي شواهد الإجابة، ولم أكُ أعرف كيمياء هذه الحالة. وعلى الضفة الأخرى، لستُ من أولئك الذين يتركون الصدفة تؤسس لهم رؤيتهم لأمر يبدو ضاغطا، يريدون فهمه: تركته يشعل سيجارة، وراقبته يضغط جبينه، كمن يريد يقظة يحتاجها. وراح يحكي، وكأننا لسنا موجودين...

ـ لا تنشغلوا بالله كي تفهموه، لن نستطيع إنجاز هذا الهدف؛ هو فكرة أكبر من مقدرات بحثنا في شأنه. الأزمة ليست أزمة إيمان، بقدر ما هي في المؤمنين على اختلافهم.

لم أرَ القرية البعيدة المعتمة رأي العين، هناك تحطمت أولى ثنائيات الحيرة. كيف يستقيم الحرص على التملك، ونضيع كل شيء في عارض سفه، ليس له سبب؟؟

كنت أستطيع أن أغفر لهذا الرجل الريفي بيع الفدادين الأربعة، لو كانت الحياة في ثوب الضرورة قد دفعته لذلك. لكن أحاديث الليل التي سمعتها طفلا، من وراء حجاب. تشير لمقايضة قد حدثت أثناء البيع الذي ارتدى ثوب التفريط. فلم يكن نظير مال، بل جاء معظمه.. الأرض في مقابل الأفيون.

لم أجد ما يرضي فضولي، ولا الرواة الذين عاشوا المسألة عن قرب يمتلكون أكثر من هذا. رحل الريفي المُسرف إلى المدينة الأقرب إلى نفسه، وبآخر ما تبقى من حصيلة ما باعه، ومن حسن الطالع أن كانت الإسكندرية.

من الحكمة أن يتحلى الراوي ببعض الحيادية. فهذا الرجل غير معروف.. كيف تزوج من هذه الفتاة البالغة الحسن. والتي تنحدر من أسرة، لا تمارس غير التجارة، وبناء البيوت. ولم يجيبوا كذلك عن سؤال المهنة التي احترفها في المدينة، فكيف يكون عامل كهرباء، والناس في أغلبها لا يعرفون غير زيت القنديل، والظلام الحالك إذا نفد؟

تطورت الأجواء الدرامية في حياته، والتحق بقصر من القصور الملكية بالإسكندرية.

الفن إطار جامع لحالة تتسم بالابتكار والإدهاش، فالأب كان حاذقا في صنعته، وأولاده الثلاثة كانوا في كل مجال احترفوه بارعين حقا. فالكبير في البستنة، والثاني في تشكيل المعادن، والأخير في صناعة الورق. لكنهم عاشوا فكرة الكفاح لمنتهاها، بعد أن ضاعت الأرض، وجذورهم. ولم يأخذوا ثمن ما تم بيعه، غير الشعور بالنفي. والإيمان الذي لا يلين بأن كيمياء النزق مُهلكة لا محالة.

كانت الآية في الابن الأخير، ماتت أمه بمجرد ولادته، في واحدة من النكبات الكثيرة التي حدثت لهذا الابن الذي مات، دون أن يعرف من يسجل عليه هذه التفاصيل.

عندما أتسلل لسماته التي أعرفها، كنت أسأل.. كيف ظل هذا الرجل بريئا، رغم كل ما صادفه من ظروف كفيلة بقتل البراءة؟

لم تكن أزمة اليتم في ذاتها أزمة، وزمنه لم يعرف حليب الأطفال بعد، والذي تقتتل ناس هذه الأيام لتحصيله.

كان لزاما من سيدة ولدت حديثا، كي ترضع الغلام. لم تكن هذه هي المشكلة التي يستطيع رضيع أن يقيم حيالها حكما على أبيه. الذي قرر في لحظة اعتراها الخوف أن يهرب بأولاده قبل أن يتهمه أهل زوجته الحسناء بأنه قتلها. من السهل اختلاق مشاعر غيرة قد سيطرت عليه؛ فحدث ما توهمهُ.

الثابت إنها ماتت في حمى النفاث، والتاريخ الشخصي لذاك الابن يشير لرحيل تم على سبيل الهرب. والواقع يقول: إن البحث الذي لا يمكن التفريط فيه، أن يجدوا هذه السيدة التي تستطيع إرضاع الطفل. فكانت امرأة «بولس» تجربة رضاعة أنتجت شقيقا مسيحيا يدعى «نجيب».. الفضل لا يجابه إلا بالفضل، فما كان ليراها اليتيم المسلم سوى أخوة عصب ودم. وبولس وامرأته، أبوه وأمه إلى النهاية.

ظلت كلمة أبي وأمي تضغط الرجل وامرأته، فأسمه كان مُسلما صرفا. فاتفقوا على حل يعيد ضبط العلاقة التي بدت حقيقية إلى أقصى درجة. ينادونه باسمه في غياب الأغراب، وفي وجود المسيحيين من أهل «بولس» فهو بالضرورة «وصفي» دفعا للإحراج.

يردف النبي:

لا، ليس اجترار هذا الماضي لتأسيس حقيقة على الأرض، كيف كان الحال في الماضي البعيد. فموت «بولس» نفسه كان آية أخرى. فعندما اشتد المرض عليه، كان يشتاق كثيرا لرؤية ابنه المُسلم. تسارعت الأحداث، وصار المرض احتضارا. فذهب «نجيب» ليخبر أخاه، أن أباه يريد رؤيته.

لم يستطع الطفل الذي صار شابا يافعا أن يتحمل هذا المشهد الرهيب للموت. ظل يبكي على الرجل، ولم يكن هناك من يدعوه للصبر والتجلد والثبات غير «بولس» نفسه. الذي أبدى أن الموت ليس سيئا، بل هو مَكرمة كبيرة، سيضعنا أمام الله وجهها لوجه. والدنيا ما كانت، إلا لإنجاز هذه الرغبة، أن يلتحق بالله في نهاية المطاف.

عندما تتداعى هذه الأحاديث، فإن اليقين نفسه في طائلة النظر، وطريقة تعاطي الرجل لفعل الموت، وتوصيفه الصوفي المُربك للابن المسلم، الذي يدرك في دواخل نفسه أن الجحيم.. هكذا يقول شيوخه، ينتظر أباه «بولس» فهنا معضلة لا تعدلها معضلة أخرى. فلقد رأى هذا الشاب بعد أن وصل للثمانين، أن هناك شيئا ما غامض، فالرجل لم يرَ الله سوى مكافأة، فكيف يقابله بهذا الجحيم المقيم؟؟

كنت أستطيع الربط بين القصة التي تتحدث بالنيابة عن مصر أخرى لا نعرفها. وقصة أخرى أتت من ماضي هذا الابن الذي فكر ذات رغبة يائسة أن يضغط أخواله المسلمين بواحدة من الزيارات

التي تبحث عن جذور أمه التي لم يرها. الغريب؛ وجد الجحود في انتظاره، وربما بعض النكران الخفيف والدهشة، التي تحولت إلى هواجس مُخيفة، أن يكون الشاب الجميل لم يأتِ للزيارة، وإنما بحثا عن ميراث أمه المتوفاة.

في سيل ذكريات هذا الابن الطاعن في العمر. ينخرط في تفاصيل قصة هي أغرب مما كان يتصور عقله ساعتها، فلم يحسب أن الأبوة معنى يعاني التضارب، أو يعتريه المصالح.

كان قانون المرحلة أن يدفع الشاب الذي يستحق أن يُجند مبلغا من المال يقال عنه «بدلية»، ظل الابن يدفع لأبيه بشكل دوري هذا المبلغ، حتى أكتمل، وبدلا من أن يدفعها لإعفاء ابنه من هذه الخدمة الإلزامية، دفعها لشقيقه الآخر، الذي كانت له حظوة لدى أبيه، دون سبب ظاهر.

فكَّر الابن في الانتقام من أبيه بطريقته، فقرر أن يحرمه من مساعداته، بالدخول طوعا لأداء الخدمة، كي يحقق له خسارة بفقدانه ما كان يدعمه به من أموال. تتصاعد الدراما حين يذهب للكشف الطبي، فيخرج معافا طبيا لنحافته الشديدة.

يذهب إلى المقهى حيث يجلس أبوه مع مجموعة من أصدقائه، يصرخ في وجهه ويهتف به.. أألله أكبر، أم كيدك أيها الظالم؟؟

راح يبكي في ارتعاش، والناس بعد أن فهمت ثورة الابن، تعاتب أباه الذي طعن معنى الأبوة في عين ولده، باقترافه ظلما وتفريقا، ما كان له أن يحدث، رغم أن زوجة «بولس» في الماضي البعيد قد وهبت ثدييها بلا حساب.

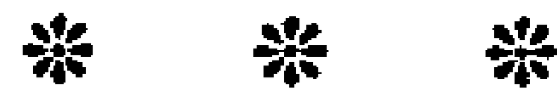
المأساة، أن هناك من يريد إشعال الدنيا قبل الآخرة، مازلت أعجب كيف عاش الناس في الإسكندرية التي وصفها لي والدي، كل هذه الطوائف والمِلَل، من يؤمنون بالله ورسالاته، والذين لا يؤمنون بأي شيء. غادرنا اليهود، وتركانا نهبا لأفكار بائسة. الفتنة في كل تفاصيلنا. الكل مسئول، قساوسة الدجل، وشيوخ القصعة والثريد. ثمة قوة تدير هذه الجدليات لخدمة التيه، وشعار الدين لله والوطن للجميع، هراء صراح، فلا ثقة، ولا إصرار على تصدير أجمل ما في الدين للآخر. إساءات في كثافة الغبار، محلات تجارية هي أقرب للكنائس إذا كان من يمتلكها مسيحيا. من الصعب أن تجد مسلما واحدا يأكل معهم خبزهم وملحهم، بينما المسلم ـ صدقا ـ قد لا يهتم بهذا التوحد. إذا أنجب بنتا فهي «مريم» لكنهم لا يتورطون في أسماء قد تحمل معنى إسلاميا بأي حال.

لم أكن أدري ما الضغط الذي تعرضت له أسرة «إيهاب خلف» زميل دراسة قديم أن يجاهد مع أخته (أميمة)، كي تصير (منى) رغم مضايقات الروتين الكريه في أروقة مكاتب السجلات المدنية. مكثت فترة أخايل فراغي العتيد بالبحث في ذاك الاسم الذي حرَّض أسرة بكاملها أن تسعى لتغييره. استثمرت جهدي في غواية اللغة كي أجد مخرجا للهروب من ذاك الاسم الذي يبدو لي تصغيرا لكلمة أمة، وكأن المسيحية لا تحتفل بهذا المصطلح. لم أصادف بطول عمري مدرسا مسيحيا للغة العربية، أو لقاء أحد على الأقل مهتم بهذه اللغة، ألأنها على الشائع لغة القرآن؟

لكننا لا نجد غضاضة أن نتناول الإنجيل ونقرأه متى شعرنا

بالرغبة في ذلك. مازلت أذكر أستاذ الفلسفة المسيحية المسلم، الذي طابت نفسي كثيرا عندما سمعته يشرح نظرية الحب في متن العقيدة المسيحية بأسلوبه الأخاذ.

من يؤسس فينا هذه الكراهية، والقصة في منتهاها في يد من صاغها من الأزل؟؟ وننقم على اليهود قولهم بالشعب المختار.. كل أصحاب الأديان عنصريون، ساديون، أسسوا وجودهم بكم هائل من الدم. كلٌ يزعم في مواجهة الآخر امتلاكه للحقيقة، يتوعد المخالفين بالنار. يؤسسون لإله واحد يدير مملكة من الشظايا. وكلمة سواء تجمعنا، سنسمعها عنده. إننا أجبن من أن نقولها. تحكمنا رغبات في غواية السراب، وتفتننا حقارة يسمونها الحياة.



لم أكن أبحث بعد كل ما سمعته عن شيء يدحض ما يقوله هذا الرجل الذي يتنفس مرارة، تفاصيل الامتعاض في كل ملامحه، صوته الذي يشبه الفوضي التي نعيشها. وحجية غريبة، تُجهد من يريد استخلاص ما ينفيها.

شعرت بتنميل غريب في رأسي بعد أن سمعت هذا النذر من سردياته القاتلة، قمت دون أن أجد ما يشفي الغليل، أو يمنحني حجة صادقة أتعاطاها مع أمي المتوجسة من نصارى البلد، رغم اعترافها أن المسلمين مسئولون عن نصف الصورة المشوه.

أشرت لـ«محمد عثمان» أن نضع الرجل أمام العمارة ونرحل سريعا، فهذا اليوم مضافا إلى ما يحرص عليه النبي من توجهات،

بـدت جديدة، وبلهجـة غير معتـادة، تجعل الاقتراب منـه في هذه الأيـام البينية، التي تفصل هذه الحلقة عن تلك، صورة من اسـتفزاز غيـر معروف بوصلته. فلأول مرة نصل لشـعور متطرف من خوف. ركبنا السـيارة. وأن تجد من له جسـارة كسـر الصمت الذي سـيطر علـى الجميع منذ ركبنا إلى أن وصلنا لمدخل العمارة التي اختارتها المحطة لسكناه، وكأنك تبحث عن الحقيقة في نهار أثينا.

حتى كلمات الوداع المعتادة لم نسمعها، لا من الرجل بحكم العادة، ولا من الشابين الذين كان يعوضانا هذا التجاهل، رغم اعتيادنا عليه. لكنه أشاح بنظره بعيدا، بعد لحظة وقوف سريعة، ثم عاد لينظر لصاحبه نظرة، لم نكن لنخطئ الأسى والحزن الذي ينطلق منها، بشكل ربما دفع بسيارتنا للمضي، دون أن نتجرأ ونسأل، أو على الأقل يهبط «محمد» منفردا؛ ليسأله إذا كان في الأمر شيء.

(١٣)

في عصر اليوم بدا لي؛ لم ينم، مؤرق، تبدو عليه إمارات التعب. شعرت أنه قد حمل سنوات إضافية على ظلال هذه التجربة، جعلته شيخا طاعنا في العمر بشكل لافت.

الغريب، رغم إنه قد حدد برنامج اليوم سلفا، حيث سنصطحب الشابين؛ كي نشتري لهما ملابس وأحذية من أماكن، لها في تتبع الموضة. لكنه تراجع في آخر لحظة، كنا على وشك تركه وحيدا، ونذهب نحن فيما أتفقنا عليه، لكن، لست أدري.. لِم وبشكل لا إرادي منحت مفاتيح السيارة لمحمد عثمان، وطلبت أن أظل مع صاحبه.

ربما خشيت أن أثقل عليه، فألمحت إنني بصدد البقاء معه، إذا لم يكن يضايقه هذا التصرف. وبأريحية وود، أشار لي بالبقاء، صرَّح ساعتها إنه يحتاج لأن يتحدث معي بشكل منفرد. نسيت أو تناسيت ما كان يقف خلف رغبتي للبقاء، ورحت في رحلة بحث. في أي موضوع سيتحدث معي، فعلى الغالب كل أموره في دائرة الانضباط أو تكاد، يؤسس أسطورته، ويجني مالا ينفع مريديه؟؟

تركني وقام لعمل قهوة، أشهد كانت جديرة برجل يمارس شربها كهواية مُحببة. وعندما استقر فوق أريكة بدت مريحة له. نظر لي بأسى بالغ. وصمت قطعه بقوله:

لم أكن أتخيل أن تضيع الأمانات حال حياتي، ولا أدري لِم تعْجل صاحبك في قراءة الأوراق التي ناشدته أن يقرأها إذا ما حدث شيء، أو بالأحرى موتي. لعلك تلاحظ أنه لم يعد يراهن على أبعد من نهاية ما يحدث، وليس ما هو متحقق فعلا من القصة.

بعد أن استقر جالسا قال: كنت أتمنى أن أفهمكم بشكل خاطئ، أشعر إنني قد أسأت تفسير طويتكم، لكنكم أبناء هذا الزمن، رغم كل شيء أحسنتم تدبيره من أجل إقناعي. هكذا أنا دائما، خاسر عتيد في رهاناتي على الناس.

سمعته وأنا شبه عاجز أن أدافع عن صاحبي، وإن كنت لا أملك دليلا إنه لم يفعل، لكن في البداية، عندما عاد من الإسكندرية وأودعه الأوراق، راح شكي لهذا الأمر، مازالت ملامحه يومها تنذر بحدوث نوع من الفضول دفعه لأن يقرأ، ولو بعضها. وجدتني أعترف بهذه الهواجس، وإن كنت لا أملك القسم على إنه لم يفعل، ولو على سبيل الأوراق إجمالا. لكن سألته بوضوح جارح.. ما الذي يوجد أصلا في أوراقه، ويخشى أن يُقرأ الآن؟

أعاد لي السؤال ولِماذا تُقرأ الآن.. أنا معكم، ربما غدا سيحدث في الأمور مستجدات قد تدفعكم، أما لإعادة النظر في مسألتي أو تجاوزها، شريطة غيابي، الذي سيحميكم مغبة التورط معي في تفاصيل أراها من الآن صعبة وفوق تحملكم.

إن الشابين رفضا في صوت واحد أن يحتفظا بها، لا لشيء، شعرا أن الأوراق أكبر منهما، لن يستفيدا منها، أو لن يحسنا فهمها،

وما جاء فيها من تفاصيل تخص القصة، لكن في إطار كواليس لم يكن يعرفها غيري.

على كل الأحوال، صاحبك على الراجح قد قرأ ما يجعل من ملامحه على هذا النحو، والتي تغيرت، بمجرد أن تركته في شقته يومها. لكن إذا جاز لي أن أسديك النصيحة.. فلتجعله يتوقف، والآن؛ لأن القادم سيكون صعبا، وصعبا جدا.

* * *

لم أشعر أنه يبالغ، مارس علينا لعبة تأديب يدركها بمهارة. لم أعلق. لكن واجهته برأيه فيَّ، وانتحلت حالة من الصدمة والدهشة حيال ما سمعته من الشابين. وعلام أسس هذا الرأي؟؟

لم أجد مفاجأة في ملامحه، بدت لي حالة من الأسى وبعض الخجل، أن علمت بما قاله عني، رغم كوني أدرك صواب ما قاله.

قال ساعتها في خجل:

ـ ربما لا تعرف بعضا من ـ مجازا ـ مواهبي، أنت أتيت للإسكندرية، ليس مبدئيا كي أكون ضيفك في برنامج تعمل فيه. لكنك كنت تسخر مني، تؤمن في دواخل نفسك إني مجنون، أو سفيه، أو رجل ضائع يقتله التهميش، تعبث برأسه المخدرات. لكنك لم تفهم ما هو أبعد من هذا التصور.

ثم تابع:

يا بني.. أن القصة والمأساة أنا. كنت أستطيع أن أوقف سيل الفهم الذي حدث مني صوب دنياكم؛ كي لا تهزمني التفاصيل المجحفة،

وأعيش حياتي حسب ما تقتضيه غريزة القطيع. أتزوج كما الناس، أنجب أطفالا، أربيهم في حدود الممكن، وفي وقت الفراغ إذا كان هناك ثمة فراغ، أذهب لقراءة كتاب أرضي به فضولي. كل هذا ما كان ليرضيني، أتنقم عليَّ شعوري بكارثة تطل علينا من وراء البحر، وهبوطا من الجو، وربما من تحت الأرض. إن كآبتي لا تليق إلا بأجواء حرب أعيشها.

لم أكن معتادا على تقلبات الزمن، أسرة واضحة المعالم، أب حقيقي، وأم اصطفاها القدر العطوف، ربما كان أصعب ما في تصوري، أن ذاتي التي أعرفها تعاني بعض القلق والتوتر، لا أعرف سببه. لا أتهم قناعاتي بالسطحية، استهلكت ما أمسكت به من عمري في قراءة الحياة حسبما فهمت، أرهفت السمع لأحاديث الكبار، دون أن أفهم سر هذا الشبق الذي يعتريني؛ كي أفهم كل شيء وبسرعة. ربما هاجس الموت.

مشغول بتتبع النهايات، والتفاصيل، أفلسف الظروف، قد أقع في براجماتية هي ليست ديدني، لكن كنت كما الفراشة التي تهوى الوصول إلى الضوء مع يقينها في الاحتراق. أبحث عن شيء في ندرة الجحيم، أصادف أزمة فهم، أو اتساق مع العالم، أنا بينكم، وإن كنت غريبا عنكم، لم أشعر إني صغير جدا، إلا عندما ماتت أمي، وبموتها أخطأت حساب عدد المصابيح التي انطفأت في عيني فجأة.

الموت حدثٌ جلل، والإنسان جدا ضعيف، حاولت التجاوز، فلم أرَ غير دموع لا تريد السقوط؛ إمعانا في تضليل من أحبهم،

لم أقدر على نحت طريق الهروب من هذا الشجن الذي تسلل لنفسي، وأعمدة الحياة التي تأسست عليها، تنهار أمامي.

هبطتْ إلى الروح زاوية أخرى للنظر إلى الناس، الكون، وما وراءه، الأصدقاء، المعاني. كل شيء يكشف نفسه بطريقة تدفعني دفعا لأن أكره حياتي.

لم يكن سهلا مراودة الجحود الذي وجدته من بعض الأصدقاء، قايضوني الوفاء بقدر كبير من الخديعة. أسعى لحتفي بإخلاص يريد تطهيري من وزر البقاء في ذلك الطقس البغيض.

ارتبكت علاقتي بالنهار، والأصدقاء، أصطنع غيبوبة أريدها أكبر مما أنا فيه. لجأت لأوراقي التي كنت أسجلها بعيدا عن أعين العالم، وجدتُ الجراحات والآلام. لم ينصفني القدر بكتف أخٍ ألقي عليه جسدي المتعب.

النافذة تضيق، قضبان سجن يقترب مني شيئا فشيئا. الهروب الذي لم يكن جزءا من تكويني، يصبح ملاذا من السهل أن أدفع عمري؛ كي أحصل عليه.

لأي حياة طوحتني الأقدار؟

في سكون الليل، الضجيج مختلف، الأصوات تغادر بعض عصبيتها، بيد أن الملامح تشي بواقع مأزوم، لا يختلف عن الأزمة التي جعلت مني كائنا ليليا، لم أراهن في هذا الطقس أن أرى نفسي بهذا الكم من الهشاشة.

ربما جلست مدة طويلة لا أرى النهار، وذلك يؤلمني، استيقظ عند شروق الشمس على أرض ليست هذه الأرض، ولم يكن ذلك

ديدني، اجتر الشهور الأخيرة من براثن ذاكرتي، وأفشل في الوصول إلى معنى.

هل أنا ابن هذه الحياة، كيف يتماهى الخيال مع الحقيقة حتى تستحيل التفاصيل إلى ما يشبه الأسطورة؟؟

صرتُ مولعا بقراءة حركة الأقدار التي تتجلى أمامي بوضوح، كأنها رسائل لابد أن تُقرأ. أجنحتي هيضت دون أن أشعر فداحة ما حدث، إلا في ساعات التوحد مع الليل، هل كنت نائما، أو في حالة يقظة تعيد عرض هذا الفيلم الميلودرامي المؤثر..

أعرف أن هذا الطقس سيهلكني، لا شيء يثير حفيظتي أن أركض كطفل، يمسك بذيل فستان الدنيا كي يعيش، لم أكن زاهدا، لكني حاولت أن لا أنظر لأي معنى قد يعوق خلاص روحي من هذه الدوائر الرمادية.

انطلقت كالعسس ألتمس دنيا أخرى، غيبوبة تخرجني من التفكير فيما حدث.. سياحة على المقاهي، والأرصفة، التي تحوي كل أنماط البشر والتشرد والضياع، المجانين الذين يفترشون الأرض، ويلتحفون بالسماء، فتاة هاربة من جحيم لا أعرفه، رجل خرج إلى الفراغ عندما اشتدت عليه الضغوط.. ربما دخلتني رغبة تسجيل هذه المشاهد، تسلية تقتل الساعات الثقيلة، لكن ماذا أسجل؟

من خلف زجاج المقهى، رأيت فتاة تسأل الله.. لا أدري إذا كانت متشردة، أو بها مس من جنون، وإن كان كل شيء يخفي خلفه فتاة، لولا ظروفها لكانت أجمل، أسقطت جنيها في يدها وانصرفتْ.

لا أدري كم مرَّ من وقت، فلقد طوحت الريح صوت ارتطام أفزعني، سيارة يقودها سكران ألقى بالفتاة بعد دهْسِها لحديقة الأبدية.

لم يكن الناس على مستوى الصوت، الفراغ، ورجلان هبَّا إلى حيث استقرت على الإسفلت، وأنا الرابع الذي لا يعرف لماذا دقق في ملامحها بعد أن أخذت جنيها بطعم الوداع. ابتلعت الريح السيارة، ماتت البنت ميتة مجانية، في ساعة من ساعات ليل، لا يريد أن ينتهي.

فقدت شهيتي لاستئناف ما تبقى من وقت، فكرت بالعودة إلى غرفتي، وشيطاني يأبى عليَّ هذا القرار.

تحركت إلى مكان أكثر ضجيجا من هذا الصمت، رحلت سريعا، دلفت إلى مقهى به شيخان طاعنان في العمر، وآخر يبدو على البعد غائبا عن الوعي، يقرأ في كتاب لم أتبين عنوانه من مكاني، يدخن مثلي بشراهة، وفنجان قهوة يقف كشاهد قبر.

انتابني نـدم أن تجاوزت بائع الجرائد الليلي، ولم أشـترِ جريدة أقتـل بها الوقـت، حرضني مشـهد الرجل الذي ينغمـس في كتابه، وأحاديـث العجائز ليسـت ممتعة دائمـا؛ كي ألقي أذنـي لمتابعة ما يتسامرون فيه.

لا أدري ماذا شربت، خرجت للشارع؛ أشعر بضيق صدري، بدأ صراخ سائقي الأجـرة.. القاهرة رمسيس، أدركـت أن النهار على وشك الوصول، تحركت مجددا، لكن إلى البيت، شعرت بشيخوخة، لم أقـدر على صعود السلم، مرهق ومتعب دون سبب واضح، المشهد بعد الدخول إلى البيت سيكون ضاغطا،

ألقي السلام، والوحدة ترد بضيق لافت. سقطت على أريكة كانت مريحة منذ فترة.. ولا أدري أين ذهبتُ، ربما إلى النوم.

فيما يشبه الحلم، أمي تدعوني للأكل، هل أكلت؟ لا أدري، شعرت بلمس قبلة منها، فهل كانت كذلك فعلا؟ وقع يديها تهدهدني أن استمر في الأكل، فهل أمي كانت موجودة يقينا؟ أم إنها ماتت، وأنا فقط أرفض هذه الحقيقة؟؟

لا إجابة تحسم السَكرة، تداخلت المشاهد، وظلال أستار، أرى الدنيا من خلفها. ملامح باهتة، ضباب كثيف، يقظة صادمة، وأراني في وضوح مؤلم، ربما نسيت ملامحي، فلستُ أنا الذي يظهر في المرآة..

أنهض كالممسوس، أرتدي ملابسي، وكأن هناك من يساعدني على ذلك، ولا أراه، أهبط إلى السلم، دون أن أرى شيئا، أو أرد تحية لا ألمح صاحبها، أركض في الشارع وكأنه صحراء، لا شيء فيها غير الرمال والسراب، أدلف إلى القطار، دون اليقين في جهة تستطيع استقبال غيبوبتي، ربما انتبه للطريق بحكم العادة، رغم كوني تائها في شوارع ما عدت أذكر أسمائها.

عند بائع الجرائد، وقفت أتخير ما يمكن قراءته من صحف الأفيون، حين جلست في نفس مقهى أمس أدركت فداحة ما اقترفته عندما أردت اقتناء جريدة لقتل الوقت، فقتلتني بأخبارها، كتابها المدجنون الذين باعوا الوهم للناس في الزمن الرديء.. استقبل الرئيس ضيف مصر الكبير، وانتهى اللقاء إلى قطيعة، سقوط عقار جديد، ووفاة معظم سكانه. غرق سفينة قبالة السواحل الإيطالية

تقل اليائسين، حكمة العدد: الكل باطل. انتقل إلى رحمة الله، وانتقلت للأمجاد السماوية. فوز كاتب السلطة بجائزة الدولة على ما أنجزه..؟؟

ثلث الوطن لا يقرأ، والثلث الآخر يعبث، والأخير يرتدي ثياب القتال، يجابه الفقر في حرب ليست متكافئة.. تبا لهذا المسخ والعبث المنظم!!

التفاصيل الصغيرة تعملقت أمامي، ضئيلٌ أنا، وكل الطرق تؤدي للاختناق، وعجائز المقهى جزء من ديكور المكان، ورجل منتصف العمر في مكانه المقدس، يقرأ نفس كتاب أمس، ويدخن بنفس الطريقة.

كنت أصارع رغبتين.. أثبت في مكاني، واستهلك الوقت وكفى، أو أن أسعى للاقتراب من هذا الشبح الذي يجلس في ثالوث معروف.. سجائر، قهوة، كتاب.. لم أراهن على أشياء تجدد هذا الشعور بالضيق وتكسره، لو اقتربت، فلا جديد، فالبؤس ينطلق نحوي قادما من حيث يجلس، بدت لي رغبة الاقتراب منه هي الأقرب، لم أشأ أن أقترب أكثر مما يجب، بحسبي أن أسمعه بوضوح لو اشتبكت معه في حديث. الاقتراب لم يمنحني يُسر اقتحامه، من بعيد كانت الصورة أكثر تشجيعا، بالاقتراب وجدت الكآبة شاخصة بوضوح، ذهول أو نصف غيبوبة. ورغبة حادة في الانفصال عن الناس.. دخلني بعض الندم، وقبل الاستسلام إلى هذا المعنى سألته مباشرة ماذا تقرأ؟

ـ رواية مترجمة.

ـ ولماذا مترجمة؟
ـ لا أثق في حكايات العرب.
ـ ألا يعجبك أحد؟
ـ كثيرون. لكنهم لا يكتبوني، فانصرفت عنهم رغم إعجابي ببعضهم.
ـ لا يكتبونك؟!
ـ الواقع هذه الأيام قشور، هناك واقع لا نعرفه.
ـ أي واقع؟
ـ كيف يمكن تأليف الأزمة..
ـ أتسكن هذه النواحي؟
ـ لا...
ـ ولِم تأتي هنا ـ عفوا ـ للسؤال.
ـ من الحكمة أن تجلس بعيدا عمن يعرفونك.
ـ ألك مشاكل مع أحد؟
ـ أنا المشكلة..
ـ لا أريد استلابك من الرواية.. استمر واغفر لي اقتحامك.
ـ لا بأس.
لم يتكلف أي إجابة، صادق وصادم، بدا كشريك، مأزوم وضائع، ليس لديه أي طاقة للتواصل، حتى في ظل هذا المقهى الغريب.
جلستُ أفكر في قادم أيامي، أريد مخلصا تجاوز هذا الوضع، حاولت التواصل مع مصيبته التي كشفتها إجاباته، ربما بدت كأدوات للتخفيف، غدا قد أستطيع اصطياده، فلم أجد التشجيع

الكافي؛ كي استخدمه في قتل الوقت هذه الأمسية. وبينما أنا مستغرق في أفكاري، قام الطيف يدفع حسابه، وحمل حقيبته، وألقى إيماءة تحية الانصراف. يركز في الأرض، وكأنه يبحث عن شيء قد سقط منه.

لم أسع للانشغال به، رغم ما يحمله من غواية، تدفعني لأن أصطنع منه تسلية، لهذه الساعات الثقيلة. لم تأخذني هذه الرغبة، لكن ما حدث في الأيام التالية كان غريبا، فقدت التركيز، ولم أفقد الوصول لهذا المقهى، والرهان على وجوده، وفي نفس المكان، وربما نفس الكتاب.

عندما قرر هو أن يقتحم عالمي، آمنت إنه على علم كبير إني مأزوم. حياني على البعد. ذهبت إليه، شربنا. بدا لي أقل تحفظا، كأنه يريد أن يعرفني، في رغبة معكوسة مني؛ كي أعرفه.

أشتكى لي جوعا سببته القهوة الكثيرة التي شربها، خرج إلى مطعم قريب، سألني إذا كان من الممكن أن أشاركه الأكل، استجبت، لا لجوع شعرت به يدفعني لذلك، فكرت أن أزيل ما يحول دون التواصل معه. ثم أسأل نفسي، وما حاجتي للتواصل؟

عاد وأكلنا، مرت اللحظات سريعة، لم يتركها بدون إشاراته الغريبة، أن ما يصنعه معي ـ الآن ـ نادرا ما يحدث، لأنه لا يأكل مع الغرباء.

الخبز والملح مسئولية كبيرة. عاد ليؤكد لي حسن قراءته لأفكاري، أسهب في شرح المعنى الذي يعني أن الأكل مع الناس هو عهد ضمني أن لا يخون أو يخدع.

خرجنا بعد حديث لم أتبين منه شيئا، عابر وقصير، ربما ندم أن خرج معي، ودعني سريعا، رحل لمحطة القطار التي تأتي على رأس الشارع، لم أتجاسر على سؤاله أين يسكن، وبدوره لم ينظر خلفه، سار دون النظر لأي شيء.

لم تكن الليلة تريد لأن تنتهي نهاية تقليدية. فبمجرد ابتعادي، انتبهت لنسياني هاتفي المحمول، عدت سريعا، وجدته، وفي نفس مكانه، أخذتني رغبة لتجاوز هذا التصرف الغريب، ولم أشأ إعطاءه أي إشارة لغرابة أن يمنحني معنى الرحيل، ومن ثم يعود لاستئناف جلسته. فنسيت إنه موجود. ورحلت سريعا.

في المسافة من هذا المكان إلى البيت كنت أفكر في علة هذا، لم أستطع مغادرة إحساسي بالضيق، هو من دعاني للأكل، وشربنا معا، وقمنا بعد حديث عابر، كنت حريصا على السير معه لو أراد، سواء كانت جهته في طريقي، أو ضدها. ماذا اعتراه، أشعره بالضيق مني. هل تورط في دعوتي للأكل؟

في الأمسية التالية عبرت من المكان، لم أشأ الدخول، لكن بحثت بنظري عنه ولم أجده، أكملت ساعات الليل في مكان آخر، كان أكثر حركة. تغيرت نيتي، لم أذهب للجلوس هناك. ولم تتغير رغبتي في اختلاس النظر إلى حيث موقعه، دون معرفة السبب، في أيام لا أذكر عددها، ربما اقتربت من شهر، لم أجده في مكانه. هل كنت آسفا عليه. لا أدري. أو كان من الضروري أن أتجاوز وأسأله عن سر عودته في هذه الليلة. ربما.

دخلت إلى المقهى الساهر، دعوت السفرجي، وسمعت على البعد همهمة العجائز.. ها قد عاد الرجل الذي يتحدث إلى نفسه.

كانت المرة الأولى التي أصادف فيها ذاك السقوط البشع لإحباطي، أمسك بأول خيط في جنوني.. عدت للبدروم، وأنا عاقد العزم أن أصطنع كارثتي دفعا لجنون لا استحقه.



اعترف بضعفي حيال ما سمعت. كان القصف أكبر مني، لأول مرة، أنا الذي اتهمت نفسي ذات يوم بصلابة القلب، وبدموعي التي تقبع خلف حدود الشمس، أجدني بهذا القدر من الهشاشة.

لا، لا أدعي أن ما اعتراني كان البكاء، بل انهيار، كراهية لنفسي، ولمحمد عثمان الذي شعرت حينئذ إنه خدعني، رغم إخلاصه في وصف الرجل وصفا يليق، أو يقترب من بعض الحقيقة.

حاولت التوسل إليه أكثر من مرة أن يتوقف، وهيهات أن أنفلت، أخذتني حالة من التأمل فيما يقول، هو الذي اختار أن يضع عقله في دثار من جنون، وجنونه في دائرة المأساة التي ما تركت له دقيقة دون أن يشعر بالكارثة. منحني فسحة ألملم نفسي، ومن ثم أعود. قام لغير جهة محدودة في البداية، توجه إلى الشرفة التي تطل على نيل المنيل، كان يبكي بكله، وهو ينظر لليل القاهرة، المدينة التي لم يتعاطف معها، واعتبرها النموذج الحي للإحباط.

لست أدري أعشرين عاما كفيلة لأن أراه في هذه الأثناء أبي، بالفعل شعرت بهزيمته، لم أتعاطف معه من قبل بمثل هذه الدرجة، أدعوه للهدوء، وانتحل مناورة تعيده سيرته الأولى، هذا الحكاء البارع، الذي يجتر الماضي المعذب، ويحيله إلى دروس.

استحال الكون في ملامحه لعين تبكي بلا توقف. مددت يدي إليه، وعبر معي إلى حيث الأريكة التي يجلس عليها. لم يشأ أن ينظر لي؛ كي لا تتجدد الحالة التي طالت علينا. وسؤال مرهق.. من يكون هذا الرجل؟

(١٤)

قمت بدوري لصناعة فنجانين من القهوة، أحسبنا في أمس الحاجة لها. اختلس النظر إليه، فأجده يلتهم السجائر.. عدت إليه وجدته يدعوني للنزول..

الهواء هنا قد بدأ في التضاؤل والثقل، أشعر بالاختناق. شربنا قهوتنا وهبطنا إلى الشارع، سألني إذا كانت المسافة لأقرب مقهى تستحق المشي أو الركوب إلى حيث هي. لكنه تذكر في آخر لحظة أن الحكمة تتطلب أن ننتظر صاحبه، والشابين في مقهى يقبع في مكان واضح وسهل الوصول إليه. ركبنا سيارة أجرة، ولم يشأ أن يجلس بجوار السائق، وظل في الخلف يرمقه، وينظر إليه بإشفاق غريب. هل كان جائعا. لا أدري لِماذا لم أسأله. مؤكد بعد هذا الحديث قد فقد شهيته.

هبطنا إلى حيث ساقته قدماه، جلس بذات السرعة التي جاء بها عامل المقهى الذي سأله عن طلبه، فكانت القهوة مجددا. بينما تأخرت في إبداء ما أطلب؛ شعرت بجوع قاتل.

سألني بوضوح ما هي أزمتك؟

أجبت: قبل أن نعرفك ونؤسس لهذه الإطلالة، كنت خارجا للتو من قصة حب حسبتها عميقة وكبيرة. فتاتي صاحبة طموح عريض، ربما يجعلها تفكر فيما هو أبعد من الحب. بينما كنت مجمدا عند مستوى معين من الطموح، لا يتغير صعودا أو هبوطا.

اختلفنا ـ ربما ـ على الآليات، وحسابات الوقت، مؤكد حسبتْ استسلامي رضا، أو قد صرتُ قنوعا حيال وضعي، رغم أن هذا لم يكن صحيحا. آمنت إنني في حياتها أقوم بدور المُعطل لأحلامها، فانصرفت عني، وبطريقة ناعمة، قد تعطي الملمح أن ما بيننا اختلافا، وليست قطيعة دائمة. لم أستوعب القصة، فقررت الانسحاب، وتمنيتهُ نهائيا.

أنهيت حديثي ومن ثم وجدته بحكم العادة ينطلق لاوعيا في اتجاهات شتى، لا أدري إن كان يقوم بتوصيف العلاج أو يعلق، لكنه على الغالب يحكي شواهد لإجابة يريدها أن تصل دون أن تسبب أي جرح. صوَّب نظراته إلى حيث البعيد، وراح لينزف مجددا وبصوته المتهدج..

ـ عندما تزاحمت الأسئلة مع التقدم في العمر، شعرت بكم من الغصص. كان أخي حرفيا ومتعلما، بطول فترة وجوده هنا لم يشتكِ عوزا. لا أدري أكان السفر للعراق موضة ينتحلها شباب هذه الفترة، أم هي تمرد على وضع يستحق، لكن في ارض هي بالضرورة لا تختلف عن أي أرض تنطق الضاد، فالمأساة العربية واحدة، حتى مع الفقر هنا، أو تدفق الزيت هناك.. العربي مأزوم ربما بقوة القدر، أو بطريقته الكريهة في إدارة حياته.

سافر أخي، والأخبار التي تأتي من بلاد الرافدين تكاد تقتلنا رعبا في حربٍ، منتمية كذلك لعلامات الاستفهام الكثيرة التي لا تجد أي إجابة. عمَّق المأساة أن السنة التي عاشها هناك كانت بمدينة البصرة التي تأتي في مرمى التدمير الإيراني. في حرب الثماني سنوات.

زهدت أمي فضول المتابعة لنشرات الأخبار، التي لا تحمل سوى مزيد من الرعب. حيث انتشرت وقتها موضة التوابيت الطائرة.

عاد أخي، واستأنف حياته على مضض.

حتى هذه اللحظة لم أكن مؤمنا بالحب من النظرة الأولى، لكن هذا ما حدث، كانت شقيقة صديقة حميمة لأختي. تمتلك تفاصيل، ربما تفوق معايير الجمال التقليدية. أنثى مكتملة، مناسبة تماما لذوق الرجل الشرقي. خفيفة الروح، لها من القبول الآسر الكثير. همس لشقيقته أنه يريدها، وعليها أن تتحدث معها وتخبرها عن نفسه وعن طموحه، والطريقة أو الطرق الكثيرة التي يقتات منها، وكلها منطلقة من موهبته.

كان متفائلا لدرجة خشيت معها أن ترفضه الفتاة لأي سبب، يسكنني هاجس الرفض، فالفتاة بمجرد أن ترى نفسها في المرآة، تدرك أن هذا الجمال ربما يؤسس لطموح هو بالضرورة أكبر من أخي، الجمال عندما يصل لهذا المستوى، ينتج ثقة فارهة، تجعلها ممتلكة رفاهية الاختيار، والمفاضلة بين من يتقدمون لطلب يدها. لا توجد أزمة بوار مُحتملة، في مستهل العشرينات، وتحوز مركبات أنثى جميلة، تريد رجلا على قياس حلمها، ينطوي في دواخله على مركبات تضاهي ما تحمله من ملامح امرأة بالغة الحسن.

كنت أشفق عليه، أنا الذي اعتدت أن أصدق شيطاني، رفضت في حسم صياغة مقدمات تدعوه لعدم التطرف في الأمل إنها سترحب، وتريد مخلصة الارتباط به، جمالها لن يقيم وزنا لمسألة شقيقتنا التي تربطها بشقيقتها صداقة متينة.

حدثت مماطلة أحسبها مقصودة. أو حالة رفض تضغط بعامل الوقت. الغريب أن شقيقتنا هي الأخرى رأت أن تتجاوز هذه المقدمات التي تعني لا نصيب، حتى ضغطت، فسمعت الرفض حاسما، ويخلو من التلميح أو المجاز. وجدت حكمة بالغة انتحلتها شقيقتنا التي وضعت الصداقة في ركن شديد، لا يتأثر بأي حال بهذا الرفض الذي وجدنا فيه بعض التعاطي المهين، فلقد أعلنت الفتاة احتياجها لزوج ذي مركز وظيفي مرموق. طبيب، ضابط، مستشار. أو كادر يقترب أو يعلو من هذه الكوادر.

عندما أعود بالذاكرة لهذه الأيام لا أستطيع إحصاء المدة التي تلت هذا الرفض، ربما بضعة شهور، لكن ما أذكره جيدا مفاجأة الأسرة كلها وقت علمت أنه بصدد السفر، والذي كان قد تبقى على موعده يومان. لم أكن ميالا للربط بين قرار السفر والرفض، حسبت أن أخي أقوى من هذا. ولاسيما امتلاكه للكثير من فرص الرزق، لكن ملامحه، وشروده، وانكسار نفسه، هذا الإحباط الذي بدأ يتسلل لنا من ملامحه، كان يؤكد رغم تعنتي الشخصي حيال الأمر أن في المسألة حبا قد حدث.

الدراما الحقيقية في هذه القصة لم تكن مفاصلها على طرفي صراع بين الجمال الواثق، وحركة الأقدار التي ستأتي لها بالرجل الملائم لطموحها. سافر أخي، وعاد بعد عشرين سنة، وفي أول لقاء له مع شقيقته هذه، سألها مباشرة أين «نبيلة» الآن؟

في الماضي كنت قادرا على الرهان برفضها لأخي حال طلبها. لكن لم أراهن أن أسمع إنها للآن بلا زواج. اندفعت لغرفتي

لا أستطيع تفسير ما أسمع. فعلى الراجح إننا وحدنا من استطعنا رؤيتها بهذا القدر من الجمال، وبطول العشرين سنة، تصادف عالما من العميان، أو أنها رأت جمالها أكبر من كل الذين حرصوا لأن يرتبطوا بها، أخذها الوقت في ربط الثمن بمواهبها، فتطاول عليها الزمن، حتى صارت في حكم من فاتها القطار أو يكاد.

بعد صمت عاد النبي ليقول:

ـ التقيت وفاءين في عمري، الأولى كانت في عمري تقريبا، لا أدعي بعد هذا الزمن أن مشاعري نحوها لم تكن حقيقية، وقعت في حبها. أخذني التصور أنها لن تجد أزمة إيجاد من يستحقها حقا، ولأنها من عمري، ما كان لي أن أقبل فكرة انتظارها لظروف تبدو لي في ذمة غيب، عوَّدني على بعض الإجحاف.. وحتى تستقر الأمور، سيكون العمر قد ركض بنا، ولن يسمح لها محيطها العائلي أن تمارس انتظاري بدون ضغوط. تصارحنا، ودعوتها باستسلام أن تنطلق في حياتها، فلي معرفة سابقة بهذا الشاب الذي تقدم لها مؤخرا، وعلمي أن الأسرة كلها تعيش في واحدة من بلاد الزيت، وطموحه في دائرة التحقق أو يكاد.

كانت تنظر لي بدهشة غريبة، رغم أن مبرراتي، منزعها حبي لها، حب لا يدفعني للإبقاء عليها في مغامرة أعرف نتائجها. أجمل ما لمسته أن وجدتها متسامحة مع فكرة التخلي عنها، لم تحقد عليَّ، أو تتهمني بالمتاجرة بها وبمشاعرها، افترقنا كصديقين حالت أقدارهما أن يجتمعا. عندما أتذكر ابتعادها في الطريق، وتضاءل جسمها مع المسافات التي تتزايد ابتعادا. لا أذكرني بكيت،

وإنمـا وجدتني كمـن يغادر فكرة أبعد من الحياة، ربما سـعيت لأن أركـض خلفها، ودعوْتها لأن تنسـى كل ما قلته، فالحياة مسـتحيلة حال غيابها.

قابلـت «وفـاء» الثانية بعـد أن تغيرت قناعاتي فـي الحب، فبعد الأربعين، حسـبته قرارا، وليس مجرد حالة تتسـق مـع الأقدار التي تسـوق هذه أو تلك في طريقك. الغريب كنت مسـتعدا لإنجاز هذه العاطفـة، وبلورتهـا لما هو أبعد مـنَ لقاء يائس، بيـن رجل غادرته الفـرص، وامرأة بات عامـل الوقت يضغطها لدرجـة أن زِواجنا إن حـدث، ربما لن يأتـي لنا بأطفال. لكـن حتى هـذا المعنى لم يكن يرهقنـي التفكيـر فيه. بيـد أن الأزمة كانت فـي افتقادهـا للطبيعية، والبساطة لغة مفقودة، شعرت أنها تنتحل صورة مثالية لا تؤمن بها، تمثـل بقدر أكبر من إظهار قناعاتها، وأنا أكره هذه التفاصيل. أجمل امرأة مـن الممكن أن تصادفها.. البسـيطة والبريئـة، والذكية، التي تنتـزع منك قدرات لانهائية، ليس من بينهـا التخلي عنها أو خيانتها لأي سـبب، تستفز يقينك أن مسـألة تجاوزها حماقة، والبحث عن بديـل لها محض عبث. كنت أسـتطيع في البدايـات أن ألتمس هذه الأشـياء في صوتها، الذي لم أكن أعرف سـواه، لكـن حين ألتقيتها لأول وآخـر مـرة، أدركـت إنني على خشـبة مسـرح، يأتـي بأدوار تدمرني، تقتل الوقت وتقتلني في آن.

يا بني.. هناك محطات من الصعب الآن التوقف عندها. لكنها بدت لي كومضات لا تحرك شيئا في القلب الذي توقف، أو تم استهلاكه لحساب أشياء لم يعد من العقل التفكير فيها.. إن الوحدة

صارت هي القدر الأولى بالبقاء. حتى شعور الأبوة الذي يخايل ابن آدم دائما لم يكن مُلحا. الحياة التي فشلت في حسن استقبالي، تمتلك نفس الشعور حيال ذريتي.

أسمعني جيدا..

إنك لم تحب هـذه الفتاة، أو أن العاطفة التي كانت تتجه نحوها كانـت منقوصة لأي سـبب، وألا لكنت انسـجمت مـع طموحها، وقمت بتبريره بمقتضى الحال. فمادمت لا تقوى على أن تسامحها؛ فهنا الحب على المحك، أنت مشروخ بصورة أكبر من التحلي بهذا السمت.

كان ضروريا أن تسمعها، لكنك انزويت بعيدا عن فكرة تواصل، يأخذ شكل الاستجداء، نظرت لطموحها وكأنه أكبر منك، أو خطوة على طريق تجاوزك. تدري؟؟ الناس خارج ثقافتنا لا يرون في هذه التفاصيل أي شيء يعوق المشاعر أو يشوهها، بل يعتبر نفسه شريكا لها في أي إنجاز تحققه على هامش العلاقة التي تربطهما.

مشكلتنا أن أزماتنا الشخصية تؤسس قناعتنا، نتورط في تعميم مجحف وغير منطقي، تجربة شاردة ترسم حياة ممتدة. نظلم أنفسنا ونظلم الذي كانوا على أتم الاستعداد أن يحبونا بإخلاص.

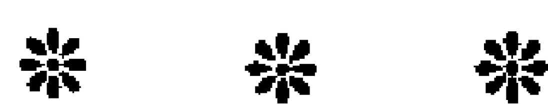
مع «صفية» كانت التجربة ملتهبة جدا، فتاة جريئة ومُقتحِمة، هـددت فتاة كنت أعرفها بالقتل إن فكرت في استلابي منها، وهددتني أن حتفي سيكون ثمن انصرافي عنها.

كنت أغبط هذه المعاني التي تصل لي من محبتها، لم أكن أشعر بعظيم ما أحمله نحوها من مشاعر، هي يقينا بين بين، لا أكرهها،

وإن سألني أي كان هل تحبها، ربما شعرت ببعض التردد. لكن بلا شك كنت أحب محبتها لي بشكل يبدو لي متطرفا. أزمتنا إننا اصطنعنا الرهان على قادم أيامنا معا، لم أرها منتهى ما أريده، ولم ترني هذا الرجل الذي يستطيع أن يبلور مشاعره لأبعد من حالة الحب نفسها. لم تسمع مني مصطلح زواج أبدا. بيت وأطفال وحياة. أدركتْ أن صراعها من أجلي سيكون عبثيا. وفكرة أن تتركني لغيرها، والتي تستطيع أن تحارب العالم كي لا تحدث بلا فائدة.. لذا رغم سخونة مشاعرها نحوي، خرجت من حياتي، دون أن تنظر خلفها، وبقوة مدهشة. وحتى في أي لقاء قدري يجمعنا، لم أرَ في عينيها مسحة من احترام لما كان بيننا في الماضي. وكأنها شاءت أن تعاقبني على ما كنت أعيشه معها من تفاصيل، لم تأتِ بما كانت تتمناه مني.

لِم كنت أتألم وأنا أعرف منتهى كل القصص.. من فيهن كنت أحبها فعلا، فمنعني حبها مزاحمة غيرها في قلبي ومشاعري وقتها؟

أستطيع الإقرار لوفاء الأولى بشيء كبير كنت أحمله لها. لكن«صفية» كانت النموذج الذي لا يمكن الانفلات من منطقه الغريب في إبداء الحب. ماذا يحتاج المرء منّا سوى امرأة تحبه، وتريد أن تحافظ عليه، حتى لو كلفها هذا القتال من أجله. ربما إذا حسبتها الآن بأعصاب هادئة لاعترفت بحب كبير لوفاء، وبندم أكبر أن تركتني صفية. لكن مقتضى الحال أنهما قد خرجا من حياتي وللأبد.



من الصدق بمكان أن أعترف أن الدخول في جدال مع ذاك الرجل لم يكن يفيد، لكنه نزيه، لم يورط أي منهن في أزمة سببوها له. هو المخطئ باعترافه. لم يحسن تفسير مشاعره نحوهن. وحساباته حيالهن كانت تفتقد للمنطق. بدا لي لا يثق كثيرا في مشاعره. حسبته من أولئك الناس الذي امتد شعور عدم الثقة حتى طال ثقته في نفسه، ولم يجد فيها ما يدفع بهن لأن يلتمسن المعنى الغامض والمكنون في ذاته.

لم تكن تنقصه على ما يتبدى من ملامحه المتسقة الآن مع عمره إنه فقير في منحى الوجه المقبول، بل متى اهتم بمظهره، سيكون وجيها فعلا. لست أدري كيف امتد التواضع؛ كي يشمل شكله وهندامه. تحسبه غريبا، ليس من أولاد العرب، قادم من بلاد بعيدة، هو كما حسبه البعض أجنبيا طابت لها الحياة هنا، فاختار أن لا يعود. رغم عشقه الجارف للصعيد الذي منه خرجت أسرته راحلة للشمال، ولم ينسَ جذوره هناك بأي حال.

غبت عنه، أو ربما ذهبت في غفوة بعيدة، ولم يشأ أن يوقظني، يفهم إنني على الراجح أفكر فيما قاله، أحلل منطقه، أعيد ربط ما طرحه من أفكار بما حدث معي. كنا نختلس النظرات دون أن يتجاسر واحد منا على استئناف الحديث، حتى جاء «محمد عثمان» والشابان حسب الموعد والمكان المحددين.

تحركنا إلى مقهى آخر بجوار مطعم نثق به. لم نكن نحتاج دليلا على جوع قاتل في هذه الساعة. تركناه مع الشابين ورحلنا سريعا.

في منتصف الطريق، اعترانا التوتر، وقعنا في خطأ كبير عندما تركناه في هذا المقهى، دون أن نحدد له أين يجلس، والخطأ إننا ضعنا في متاهات اعتذار، أنتجت ردود أفعال غريبة وغاضبة ليست صادرة منه، بقدر ما كانت منّا حيال أزمة نسيان لا أكثر.. فمع وقوفنا أمام المطعم تذكرنا المكان الذي جلسوا فيه، وخشينا من إدراكه لطبيعته، أو أن روادِ هذا الجزء سينجحون في تصدير حقيقة الجالسين بوضوح، لا يعتريه شك.

عدنا سريعا لنجد ما كنا نخشاه، لكن ليس لمعرفته حقيقة الجالسين، بل لأنه بدا متداخلا، على عكس ما توقعنا في أحاديث مع بعضهم، دعوناه للقيام ومغادرة هذا المكان، واعتذرنا بهدوء؛ لأن هذا الجزء من المقهى مؤكد قد فهم أنه مخصص للشواذ، الغريب إنه لم يبدِ اكتراثه بهذه المسألة، حتى الشابين ضحكا ضحكة سخرية واضحة، والأغرب أن بعض الشواذ من الجالسين قد ضحكوا أيضا لحالة الخوف والاشمئزاز التي بدت على وجوهنا.

حالة من الصمت مرَّت سريعا حتى دعانا لأن نأكل، لأنه أكتشف جوعه الشديد حقا. انتهينا من الأكل وبدأنا مرحلة جديدة من هذه السهرة الممتدة في ليل القاهرة.

ظل صاحبه كالعادة منذ أن رافقنا ميالا لتحريضه؛ لأن يدلوا بدلوه في كل شيء حتى هذا الخطأ الغير مقصود الذي جعلنا ننسى أن هذا الجزء من المقهى حصريا للشواذ.

لم يبدِ أي تعليق، ولم يستجب لأن يقوم من المكان. ربما أطل علينا جزء من شخصيته لم نلحظه في البدايات؛ حيث يتركنا نتكلم،

ثم يبدأ هو في الحديث، لكنه رغم كل هذا ظل صامتا، ولم ينجح صاحبه في تحريضه لأن يتحدث. لكنه اشتبك في قصة أخرى بعيدة كل البعد عن إطار التعليق على الموقف، الذي كنا نشعر إنه محرض فعلا، أو هكذا كنا نظن.

لم يكن حديث النبي على قياس ما نشعر به ونلمسه في هذه اللحظة، حتى قال:

الموت لغز الألغاز، الغموض المطلق، مخيف، تنكسر عنده مقولات الخبرة، فلا يمكن أن تسمع.. هذا الرجل قد مات من قبل، ولديه الخبرة الكافية لأن يحدثنا عن هذه التجربة.

لا أذكر أن رأيت عيني صاحبي تنتج دموعا بهذه الغزارة، كنت غائبا، ولي زمن لا أتابع أحدا من جيلي.

رأيته، سألت عن شقيقه، أين هو الآن؟

ربما لم يخبروني لعلمهم مقداره عندي. كان ضابطا احتياطيا، أثناء خدمته اتهموه بالسرقة أو الاختلاس، لم أفهم. لكنه يعرف نفسه، وتربيته، لم يتحمل التهمة، سويعات قليلة ووجدوه ميتا في فراشه، لا أدري هل الموت قرار والقلب يتوقف عن النبض عندما لا نجد المشهد قابلا للحياة؟

عندما أتذكر عيني «كمال» كنت أرى الدنيا، رغبة الباحث عن طموح كبير، يتحرك في تفاصيله وفق خطة يعرفها وتعرفه. فلِم تجاسر على تعاطي الموت، ورفض لأن يقوم من موته؛ كي يدفع عن نفسه هذا الاتهام؟

كان في مقام أبي، لم أكن حاضرا مسألة موته ودفنه لنفس الأسباب التي حرمتني وداع «كمال».

قيل: ذهب لأخوته الذي هو كبيرهم لتصفية بعض الحسابات.. أخوته؟؟

ما أصعب هذه الكلمة ودرامياتها الصعبة!!

أول جريمة قتل على ظهر هذا الكوكب كانت أخ قتل أخاه.. لم يسفر الحساب عن شيء، مماطلة وكذب وتضليل، وبعض الغصص.

عاد حزينا، لكنه مصدوم، هو الكبير الذي ضحى وعلَّم وأسس، والآن يجد كل هذا الجحود. كادت الأمور أن تمضي، لكنه عاد ليكرر القصة على زوجته. الراجح أنها واجهته بعتاب لم يتحمله قلبه المعتل. صباح اليوم التالي وفي دراما غريبة، ذهب للمستشفى على قدميه بعد شكوى عارضة بغصة وألم جهة قلبه. تحدث للجميع، وضحك معهم، نظر لولده الكبير نظرة طويلة، ثم ذهب إلى حيث مكان يريده.

هو الثقل الإنساني، لرجل أتعب زمنه وكل من أحبوه، ظل واحد منا متعاطفا معه كل التعاطف، نسينا عيوبه إكراما له، تنازلنا عن حقوقنا عنده؛ لأن صاحبه سيدفع عنه، كنا نسأل دائما.. أين هو الجانب المضيء الذي يجعل من صاحبنا متعاطفا مع هذا الثقيل والثقيل جدا والمُجهد معا؟؟

في أمسية غريبة من بدايتها. وصلنا نبأ موته، موت الرجل الذي أرهق الجميع، وآذاهم، ذهبنا كي نخبر صاحبه الذي ذاق ويلات

كثيرة من وراء تعاطفه معه، دخلنا إلى الغرفة التي يرقد فيها جثمانه. كانت الدراما ستنتهي عند أمر الموت الذي لا جدال فيه، لكن ما لم أراهن عليه أن يتوجه إليه بصفعة أيقظت الليل من حولنا. سمعت سبابا ولعنات تدعوه لأن يقوم من نومته الأبدية.. قم أدفع عن نفسك الموت أيها الحقير.. فلكم أرهقت الناس وأتعبتهم. قم أيها الكذاب.. كفاك دجلا!!

ثمة أشياء لا تُفسر، أكثرنا تعاطفا معه طيلة حياته، كان أكثرنا حقدا وغيظا عليه، وهو جثة هامدة تقف على أول درجة سلم للصعود إلى حيث الحساب على كل ما فات. لم يكن يدعوه لأن يقوم، بقدر ما كانت إقرارا بالعجز حيال الموت نفسه.

فلِم الهرب، هو الذي ضايق الهواء الذي يتنفسه الناس، وكان ثقيلا حتى على الأرض التي تحمله.

إننا لا نعبث مع الموت بقدر عبثيته بنا، هو الأقوى، يحدد شكل اللعبة، وطريقتها، سقوط من برج عال إلى الأرض، حادثة سير، سم زعاف، هبوط في القلب، صعود الضغط، توقف الدم، الموت دراما مثيرة، نشاهد خواتيمها وآثارها، لكننا لا نعرفها، هو لغز كبير كبير.

ماذا بعد الموت من تفاصيل. لم يمت أحد نثق به، عاد ليخبرنا ماذا رأى؟

نتحسس الدود الذي يخرج من أجسادنا، عاش معنا، وبالموت خرج منا، نشرد في خيالاتنا وكأننا نراه. نرى العظام شاخصة كالزمن، ملامحنا إلى زوال، نشبه ورقة نقدية، بالموت نتحول لقروش من عفن، دون أن نفهم ما هو الموت، وماذا بعده؟ وظلت

الكارثة الأبدية إننا لن نفهم الموت إلا إذا متنا، التجربة غير قابلة للتعلم، أو تؤصلها الخبرة.

بعد صمت عابر يعترف في صدمة لنا:

لم أجـذع من جلوسـي فـي ذلك الجـزء المخصص للشـواذ، رغم جـدارة الفكرة لأن يحـدث هذا كما يحدث مـع الدود، الذي يأكل أجسـادنا تحت التـراب، ولأننا عاجزون عـن إدراك الموت، فإننا نعجز عن إدراك السـبب الذي جعل هـؤلاء يقايضون الرجولة أو علـى الأقـل يقايضون إحساسـهم الطبيعـي، بمعنى اسـتثنائي، بطـول عمري عندما ألتقي بواحد منهم، تأخذني الشـفقة عليه، ولـم استصدر حكما حيال ما يؤمن به ويعتقده في نفسه، رأيته يعيش حالة تشـبه الموت، لغز الألغاز، كي أفهمه لابد وأن أموت، ولكي أعرف كيف هو الشـذوذ الذي يصيب الناس حيـال لقاؤه بالتقزز، لا بد أن تكون شاذا؛ كي تفهم لِم كانت القصة؟

لكن في غياهب هذا الليل، ركن آخر، بدا لي بوضوح للعاهرات. لم يكن المشهد على الرصيف يحتاج دليلا إنكم تركتمونا في رصيف مُشكل. محاصر بالشواذ من ناحية، والعاهرات والقوادين من الأخرى. لا أستطيع الربط بين الموت والشذوذ والعهر، ففي كل الأحوال هو الضمير.

أزمتي الغموض. لم يكن سهلا لقاء هذه السيدة على هامش غربتي الطويلة، كنت سكيرا فقط، أصطنع قصصا عاطفية ملتهبة تنتهي غالبا عند الفراش ودون التورط في المعصية الكبرى، كثيرا سئلت هذا السؤال.. ما الغضاضة في النساء إذا كنت سكيرا؟

لم تكن أزمتي مع هذا السؤال، بل في كيمياء المعصية.. أرى الخمر مسألة أكثر رحمة من هذا الفعل، نرقص نلهو، أضغط بأناملي في أماكن خاصة، اعترف كنت أقبِّل بشكل جيد، أنظر لعين المرأة نظرات عاشق متيم، لكن معظمهن كنَّ يردن ما هو أكبر من النظرات والقبلات، يردن الفراش. والمسألة في ثوبها المكتمل.

الانفلات من هذه الرغبة سينتج رأيا جارحا فيهن، وربما ينطلق بدوره لأن ينالني هذا التجريح، أو يضع رجولتي على المحك. فأنا شيطان مريد في كل التفاصيل إلا هنا. كنت ضعيفا، ولكني أخاف الله.

تدرون؟؟

لم يكن أبي يكتئب أبدا إلا إذا سمع إنني التقيت أحدا من أصحابه القدامى. يراهن على تاريخ سيتم سرده في هذه اللقاءات. لا يود أن يتطرق حديثهم عن الماضي ليطوله في نظري، ولما استبد به اليأس، أعلنها صريحة: أي ماضي سيحدثونك عنه، هو صحيح بالضرورة وليغفر الله لي، فقط أريدك أن تفهم شيئا واحدا، لم أكن زانيا ما حييت، ولم تأكل أنت أو أحد من أخوتك كسرة خبز من حرام.

لم يكن حرص الرجل على هذه الحقائق الثابتة من وجهة نظره إلا لخطورة أن أفهم أنه قد صنع كل ألوان المعاصي، رغم يقيني أنه بدون الإشارة إلى هذا المعنى، لم يفعل هذا الجرم الكبير؛ مساحة الستر التي عاش فيها، هي الدليل إنه لم يكن زانيا، رغم أنه لم يركع ركعة واحدة لله. لكن للنهاية ظل وجهه يشع نورا غريبا، لم أصادفه في وِجوه أناس أراهم في ساحات المساجد ليلا ونهارا.

العهر كفر، والمعصية فضيحة، فبمجرد أن أكل آدم من هذه الشجرة، لم يكن قد أقترف ذنبا، لكنه خرق قانون الإقامة، فاستحق الطرد والفضيحة.

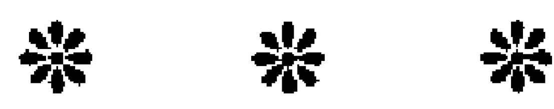
حديث القواد مع العاهرة عن حصيلة اليوم الذي فات، كان صادما أكثر من لقاء الشواذ في ركنهم، إشارات فساد السوق، ضربت عندي كل المعاني، فالشذوذ إذا كان عصيا على الفهم والإدراك؛ فإن العاهرة التي تقتات من جسدها في هذا الليل ليست لغزا.

كانت تستطيع أن تعمل بشرف، لكنها عالجت القصة فيما هو أبعد، دخلت فراش من يمتلك ثمن المتعة، ولم تستمتع، لا سعادة في ظلام، ولا متعة في حرام، لكنها الجنيهات، تأتي بمتطلبات الحياة كلها، إلا الاحترام.

إن هذا الرجل الذي كان يحمل لقب أبي، ليس ملزما بتوضيح الماضي؛ كي يدحض شكوكي فيه، لكن الحرص على الصورة المنقولة عنه، أن تظل نقية. كنت أفكر بذات الطريقة فاللقاء للحساب على الخمر، سيظل أهون من اللقاء للحساب على امرأة من هذا الرصيف.

الشواذ أسقطوا المعنى الطبيعي للرجولة، والعاهرات أسقطن الشرف، بيدٍ ما كان لها أن ترتعش. عادت من العمل، هكذا آمنت هذه العاهرة الجالسة في الجوار، أنتجت التبريرات السوقية لشح المبالغ التي حصلت عليها، والقواد ظل يعاتبها، دون أن نعرف هنا أيهما كان صادقا.. العاهرة أم السوق؟

هي العواصم التي تحتفل بمثل هذا العبث والتناقض والضجيج، لن يحسبنا أحدا على معسكر الشواذ إلا إذا أخبرنا الناس، ولن نكون مجموعة قوادين، ننتظر عودة عاهرة بحصيلة ترضينا. نحن جزء من المشهد، نتحرك معه وعلى ظلاله، دون أن نتبرع دقيقة؛ كي نشرح للناس ولأنفسنا.. ما هو الشرف؟!



لاحظ الناس حولنا أن الرجل لم يقاطعه أحد، ظل يتحدث منفردا دون أي تدخل منا، ولم يكن صوته الأجش بخفيض، كان مسموعا بوضوح، ربما أشتبك معه هؤلاء الذين شملهم الحديث.. كنت ألحظ ذلك، وبطرف خفي أشير لمحمد عثمان بهذا الانطباع الذي يتركه حديثه في نفوس أناس يعنيهم ما يقوله.. إن القواد الذي يجلس عند هذه الطاولة لم يغادر وجهه التركيز لحظة، هذه الطاولة العامرة بمجموعة من الشواذ أعرفهم، لم تتحدث أبدا بقدر ما سيطرت عليها حالة صمت دفعتها لأن تسمع، كيف تناولهم رأي الرجل، والذي جاء متعاطفا مشفقا، رغم أن المأساة تحرض على الجذع والنفور والامتعاض.. كنت أشعر أن هذا الرجل ما كان له أن يشتبك مع حياته من وراء حجاب؛ لا لشيء، لكنه قد كوَّن وجهة نظره، وفهم، وعندما بلغ التمام، قرر الانسحاب.

كان الصباح قد أوشك أن يزيح هذه الليلة الظلماء، كنا مدركين كراهيته للنهار، وصدمة الشمس إذا طلعت وهو خارج فراشه، سيتعب، وربما شعر ببعض الغثيان؛ لم نرد الضغط عليه.

الليلة لم تشأ أن تنتهي إلا قبل أن تعطينا درسا غريبا، فبمجرد ذهاب صاحبه لدفع الحساب، وقيام الرجل والشابين معه، وجدنا بعضا من هؤلاء الشواذ قد قاموا لتحيته بمحبة وإكبار، حتى ذلك القواد المعروف لدينا، قد أشار إليه على البعد بإيماءة إعجاب، وابتسامة رضا، ظلت آثارها باقية في مخيلتي، حتى بعد أن ذهبت إلى البيت، وقبل أن أغط في نوم عميق، يشبه عمق ما كنا نسمعه من رجل استقر في يقين من يعرفونه؛ أنه نصف مجنون، كنت أتمتم: مستحيل أن ينتج الظل والغياب وحدهما كل هذه الأفكار الغريبة.

(١٥)

لـم يتبقَ شـيء من حديثه الغريب عن الموت، سوى بضعة أوصاف، وتخريجات تشبهه، لكنه نجح في تصدير ما يشبه الموت، لون أو رائحة، أو مجرد صوت، وإنذار إنه ربما يفارقنا عما قريب. فحتى موعد اللقاء القادم، بدا الرجل وكأنه يودع القاهرة، رغم كراهيته المُعلنة لهذه المدينة.

كانت الأيام، وكأنها برنامج مضغوط لسائح لا يمتلك وقتا كافيا؛ أن يرى كل شيء. الغريب أن ذلك التوقيت كان أكبر مما تصورنا، ونحن نطالع حركته، وأفكاره التي بدت لنا كرجل عاش التجربة وحسب، مع تركيزه، أنتج ما نسمعه من آراء غريبة حقا.

لـم يكـن حديثه عـن الأزمـات التي تعترض الناس مفاجئة، ولاسيما أنها خارجة من رجل لم يغادر الرصيف. لم نكن نُدهش من حديثه الطاعن في كل شيء.

مع الوقت كنا حريصين لأن نلج لكهفه، أسانيده التي يؤسس على ضوءها هذه الآراء، وهل كانت منتمية للرصيف، رغم كل ما تبدى لرجل شديد الولع بالقراءة؟

كان السؤال يلح علينا دائما، ولكننا لم نمتلك في أي وقت لا الفرصة، ولا الجسارة لأن نسأل، بعد أن سيطر علينا بما يريد صياغته من كارثة ممهورة بالجنون.

في صحن الأزهر بدا الرجل وكأنه يدخل إلى صفحات من أسطورة، وكانت المفاجأة إنه لم يأتِ للقاهرة من قبل هذا اللقاء، يرى هذه الأشياء والتفاصيل لأول مرَّة.

لم نفهم في البداية ماذا قَصَد بالقدور النحاسية التي تشبه عنده هذه البلد. وحين أسهب، كانت كل الطرق تؤدي إلى الإدهاش. مصر تستطيع أن تبتلع أي ثقافة ولا تبدي أي تأثر، كأنها تضلل القادمين لها. القِدْر النحاس للمأكولات التي تحتاج تمام النضج، وفي الغالب طعام مميز، وممتع، حال وصوله إلى النضج المطلوب، ومن يستعصى على أن ينضج ويتماهى مع باقي مكونات القدْر، يُلقى خارجا، وهذا ما حدث مع مصر، تمصَر الأغراب، ولا تتغرب.

هذا الأزهر حالة، أُسس للتشيُع، تطاول الزمن وصار هذا الجامع هو حصن أهل السنة. لم نأخذ من الفاطميين سوى حشو البطون، حلاوة المولد والعروسة والحصان، وفانوس رمضان. لم نتخل عن الحسين؛ كي نلطم الخدود، لكننا احتفلنا بمولده كما ينبغي الاحتفال.

خرجنا إلى الشارع ولمحنا على غير العادة مشهدين على درجة كبيرة من التباين.. أمطار في سماء القاهرة، وفرحة طفولية تتراقص في عين الرجل الذي لم يكترث برغم التعب البادي عليه بأن يختبئ لحين انتهاء هذه النوبة. كان طفلا، حتى «محمد عثمان» ابتهج، لا بمنظر المطر، بقدر ابتهاجه بأن الرجل ـ أخيرا ـ قد أعاد اكتشاف نفسه كطفل أرهقته المنافي.

لم نتعب في إيجاد مقهى يسهر في هذا الطقس الذي لا يخلو

من برودة. جلسنا كلنا، ولم نشأ أن نتصل معه بأي حديث، قد يزيل هذه الملامح التي نادرا ما نراها. لكنه ارتد سريعا وعاد ليسألنا سؤالا مباغتا وغريبا.. لو أنشأت رهانا معكم على شكل نهايتي ماذا ترونها؟

اعترانا صمت كبير، بدا وكأنه قد صفعنا صفعة واحدة، فأصابت الجميع في نفس الوقت.. بادره صاحبي.. ماذا تقصد؟

فأجاب: أقصد المعنى الذي وصلك. معك الوقت الكافي أن تفكر في إجابة، أو توقع نهاية، حتى أشرب فنجانا من القهوة، وأدخن ما تيسر لي من سجائر.

ظل الشابان في صمتهما، ولم تظهر عليهما إي إشارة لدهشة أكبر من دهشتنا، وكأنهما قد اعتادا هذه المداخلات التي يتطرق لها نبيَّهُم. على الجانب الآخر، لست أدري ما الذي جعلني أشعر بانقباضة، واضطراب طال جسدي كله.

لمست الصدق في حديث صاحبي، كان حزينا، يشفق عليه من ذاك الشعور الذي دفعه لأن يسألنا رهانا بهذا المعنى. فالنهاية قد بدت مرتبكة في يقينه، يشعر أن هناك ثمة صعودا دراميا مثيرا في هذه القصة التي راح في تنفيذها، دون أن يصادر على حركة الأقدار التي أسست انحرافا للبوصلة، وأرهقت الطريق الذي سار فيه منفردا، حتى التقى بنا، فأخذت القصة هذا المسار. بعد صمت متصل، تعاطف معنا، أدرك قسوة رهان بهذا المعنى.

ظل ينظر بطرف خفي بعد أن دعانا لأن ننسى الأمر كله إلى «نور الدين» نظرة ما كنا لنخطئها، دالة وموحية، ولولا ما قاله على سبيل الدعابة المكشوفة، وموجها حديثه بشكل حصري له:

ربما هذا العشاء لن يكون الأخير، لكني مازلت فاشلا في إقناع شيطاني أن يهوذا أحد غيرك.

لست أدري أي غباء هذا الذي دعا الشاب أن يضحك، رغم أن الإشارة كانت واضحة بشكل مستفز، أن هناك ثمة خيانة قادمة من عنده، بل ولو كنت مكانه ما تقبَّلتها، حتى لو أقسم الرجل أغلظ الإيمان أنها دعابة.

حين أشحت بوجهي نحو «التابعي» كنت أرى ردة الفعل الطبيعية التي تتناسب مع معنى الإشارة التي تنذر بخيانة متوقعة من رفيقه، الذي ظل معه دائما.. الغريب أن الرجل بذكاء شديد تملص بالكلية من هذا الطقس، وعاد إلى ما سبق وأن عاهدناه فيه من فيوضات، كلها إشارات تريد شيئين، أحسبني فهمتهما بقوة.. أن نعرفه أكثر وأكثر، وفي ذات الوقت يصطنع حالة من الإصرار على تصدير عتاب مُغلف لصاحبه الذي بدا على درجة من اليقين، وكأنه قد فتح الكيس، وأطلع على الأوراق التي سبق وأن أودعها عنده، وعنده وحده.

كان يوجه حديثه حصريا إليه.. ينظر إليه وكأنه يسمعه وحده. لم أكن هذه اللحظة أستطيع استجلاء المنطقة التي تشكل المادة الخام لأفكاره. فقط كنت أظنه مُجربا، خبر الحياة وأرهقته وأرهقها. لكنه على الغالب عودني أن الرهان عليه محض عبث. فلديه دائما ما يريد قوله، يستجلي من الظروف معان، ربما لم نصادفها، هو الغريب في كل شيء.

تذكرت مقولة محمد عثمان.. إن العمر في يقين رجل بهذا

الشكل لا يمكن الوثوق فيه، عمره إشكالية أكبر منه، لكنه ممتعض، يطوي الحقيقة في نفسه، دون أن يتجاسر لأن ينتج حكم قيمة في شيء. وكانت هذه الميزة هي أكثر ما يعجبني فيه. وتكشف عن تواضع جم.

ربما أراد أن يذهب في حديث يزيل به آثار ما قاله علينا في هذه اللحظات، ذهب في شرود بعيد؛ ثم خرج علينا بما هو أشد من القتل..

ـ لم يكن عندي رغبة بطول عمري، تسعي كي أنظر للواقع، حتى وأنا انتحل هذه التجربة.

حاولت تفكيك المشهد وفشلت، الصورة لا تحتاج ذلك، لأنها مفككة أصلا. الإهتراء هو الأصل.

مجتمع سفسطائي، يعيش على هامش انتكاسة. بعد هزيمة أثينا الفلاسفة، أمام اسبرطة الغوغاء، ضاع اليقين، انتشر الشك. انحدر الإبداع. غاب المعيار، شاع التقليد، ارتدى المجد بإرادة القبح الكامن فينا معناه المبتذل. وباتت المهارة الأثيرة.. كيف يمكنك خداع الناس بأقل قدر من الجهد.

حتى على مستوى الإيمان، نَمتْ ظواهر الكفر الصراح، والإلحاد المقنع الذي يخشى أصحابه مواجهة الآخر بحقيقة ما يعتقدونه. أين الناس؟

أين المثقفون؟ باعوا قضايانا، في أكبر عملية خيانة حدثت.

في هذيان البحث عن الحقيقة.. أصرخ في ظلام الوحدة.. من يستهدفنا بهذا الإحباط؟

لِم يؤسس الاستبداد هذا المفهوم الذي يحيل حياة الناس إلى قتام، لا يمكن تفسيره؟؟

إن الأب الغني الذي يترك للمشاهد رؤية واحد من أبناءه فقيرا، لا يستدعي وصف الأب بالفقير يقينا، إنما لكونه ليس عادلا، وخصوصا إذا صادفنا أبنا آخر لا يعرف في أي صوب ينفق ماله. أين العدالة؟

ثمة قوة قاهرة تدبر كل شيء، تنكل برغبات الناس البريئة والبسيطة.

تم استثمار الألفة التي ربطت بين جُل المجتمع والفقر، بات شعور الناس بطفرة جالبا للضرر، فالضمير الشعبي قد صمم الحكمة: الناس لا يتحسن حالهم مع شعور الكفاية والرخاء!!

لم يكن الناس يمارسون افتئاتا على اللغة، عندما يصفون رحيلهم للقاهرة إنه رحيل لمصر، كأن القاهرة قد باتت المعادل للدولة بالكامل.

هذه المدينة هي أكبر العواصم المحبطة، وأكبر سوق يروج منتجاته.

الحياة بعيدا عنها، منزوعة المعنى، مدينة الفرص الجاهزة والعمران المؤثر، الثقافة والإبداع، ومفردات لا يمكن اصطيادها بعيدا عن إطارها المكاني والبشري. هنا الضوء، وهوامشه، فالحياة خارجها تشبه رجلا بدويا ترك حماره بباب السلطان؛ كي لا يؤذي مشاعر المدنيين من بطانته.

تأسس اللوبي. لوبي الأفكار والأجندات، لوبي اليسار، واليمين، والخلف والأمام، لوبي المهنة، لوبي العائلة.

الفرصة مع هذا الزحام صارت سلعة باهظة، ومن يستطيع في هذا الزحام أن يبيعك فرصة؟

لـم أفهم من أيـن أتى حديـث الناس عـن (أبنـاء العاملين) كنا نلمـس حرص الطبيب لأن يرث ابنه مهنة الطب، والقاضي يجد ابنه مستشارا، كي يرث الابن العيادة، ويلتمس الآخر خبرة أبيه الطويلة.

لوبي أصاب الحالمين بالزهد في تحصيل هذه الطموحات، وعدم السعي للاجتهاد، فما يسعون إليه قد بدا حصريا لقدماء اللوبي، أو الأعضاء المؤسسين.

أسوار عالية تمنع الاقتراب والاقتحام، هي ما يؤصل للحمى، فهل توقف الإحباط؟

لا، ضغطونا بالاسم الثلاثي. ولم تكن صدفة. كان يساورني الشك أنها مقصودة لهدف يظل أبعد من كونها وسيلة لإقحام أبناء العاملين في المشهد.

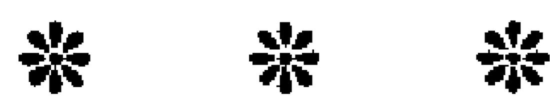
أستطيع أن أذكر لكم خمسين مثالا على سطوة هذا الاسم المثلث. لم ولن أحقد أو أصادر على موهبة أي إنسان، لو كانت حقيقية ومفارقة، ليس من العار أن يرث الابن جينات الموهبة من أبيه، لكن إلى أي مدى لعب الاسم الثلاثي دوره في ذلك السوق الذي عرض الفرص، وما هو نظامه. هل متاح لمن لا يملك عبقرية الاسـم المثلث نفس الفـرص؟؟ هل تساوى مع من شـاء قدره العطوف أن يكون ابنا لهذا أو بنتا لذاك؟

مجتمع بلا حلم، لا يعرف العدل، ولا توجد إشارات على فتح اللوبي لعناصر جديدة من خارجه.

لم أكن أدري، أصراخ هذه السيدة التي عرفنا منذ فترة إنها تعاني جنونا طاعنا من تأثير مرضها، أم أن داع الجنون كان أقل من إحساسها بالمعنى الحقير الذي داهمها في غرفة على سطح بيت من بيوتنا القديمة، كي لا تؤذي العقلاء في شقق الزوجية من أخواتها المتخلين عنها.

صراخ لم نفسره بأكبر من نوبة اعترتها في هذا الليل، فيسري الصوت بلا احتياط. لم نستطع فهم السبب في اندفاع أخيها من الغرفة، لا إليها، وبالدخول بقصد تهدئتها، رأينا الملابس البالية التي لا تصلح لأي فصل من فصول السنة ممزقة بشكل مؤذٍ ومهين، عاد الهدوء ولم تعد عيونها بلا دموعها، التي سقطت في إشارة لعقل عارض، تمكن من كشف هذه الرغبة الشاذة التي دفعت شقيقا بدرجة ذئب؛ لأن يعتدي عليها بلا رحمة ولا تعاطف مع جنونها التي اكتسبته، بعد بيعها في سوق نخاسة سبعيني؛ لتاجر ليبي.

كلنا كنا هذا الشقيق الذي اعتدي على أخته المجنونة، لم نراع الحلم في تركها هادئة، غيبنا الضرورة لحساب النوازع المؤبلسة ولم نكتفِ بهذا، فضعنا في محاولة علاجها، في صراع أفكار بالية وساذجة.



كان الرجل يتحدث واحسبنا تُهنا، أو ذهبنا في عارض من غيبوبة على أثر ما قاله إجمالا عن حركته التي سعى أن ينجزها ويدرك

الفهم. هل كان مثالا يضربه لشيء ما، ربما لم أشعر بيقين هذا المعنى، ربما هي قصة حقيقية فعلا، وكعادة الشابين مع الصمت، وملامح صاحبي الساعية أن ينسل لداخل ما يقوله النبي.. ما كان ليترك نفسه نهبا لحالة أحسبه تأثر بها، عارض ذهول أو ما شابه.

دعانا لأن نغادر ونمشي. كانت السجائر التي شربها الرجل بطول عمره، تكشف عن نفسها بمجرد أن مشينا، لهاث، تعب، اعتلال خفيف يسيطر على ساقيه.

أخذ ينظر للمدينة الساهرة وما احتفظت به من أضواء، وراح يتحدث في هذيان مجنون، لم يغادر تطرفه الكبير حيال ما عاشه من تفاصيل، يراها هي المسئولة عن أزمته.

أحلامنا ساذجة والحقيقة مروعة، المجنونة في حراسة المستبد الكبير، مقموعة كصرصور تحت نعل حذاء، الضمير المعتل يصوغ التدمير الممنهج لكل تفاصيلنا. لم أشأ تحقير اعتقادكم أن هذا الذي رأيناه بالأمس مثقف، الغريب سمعت منكم أنه الكبير والأهم. كيف يكون كبيرا والطقس كله يحمل كل هذا الخواء؟

ما كان للفرعون أن يثق فيمن باع حلمه. لكنه موجود؛ كي يروج للقبح، والناس في آخر اللوحة بلا مصير. تتعاطى ألوان الكذب الرائع حتى ينمو في تربة الإله الأرضي، وكأنه اليقين المطلق. لم أر كبيرا يصوب البوصلة، بحقيقة تخاطب الأزمة.

الكبير ليس موظفا عند الملهم يا رفاقي المدججين بالزيف. الكبير دخل ذمة النسيان؛ ضاع في طوفان المأساة، حوصرت أحلامه، دخنها الفرعون في غليونه.

رأيتكم من خلف سور عزلتي، تحطمون كل شيء، أربكتمونا، شوهتم أغانينا، تحولتم إلى أطياف من دناءة. حاضرون بطعم الغياب، حضور باهت وكريه. يمين، يسار، حديث لزج، ومتكلس، كراهية كلاسيكية من كل فريق للفريق المناوئ. عبارات نحاسية؛ يرددها الضفادع: الرأسمالية المتوحشة، الصراع، التنافس، انسحاق الإنسان. لم يعد هناك من يتحدث هذه اللغة القميئة غيرنا.

يا للمأساة!! الأزمة لا تحتاج نظريات، إنما خيال؛ يحمل عبقرية الحل، ومرونة تغطي يومنا البائس.

لم أكن هذا الأعمي الذي يرى الشمس مجرد أكذوبة، احترقت كل المعاني، تاجرنا بكل شيء.

تجمَّد حتى ما نعتقده، والحياة تركض كي تنتج أزماتها وحلولها بعيدا عنا.. لم نصنع غير تكريسنا للقهر وحصار الأفكار والأحلام. ولا تسأل وليس مسموحا لك أن تصرخ أين الوطن وأين نحن منه؟؟

والإجابة: فرعون وسدنته، الكهنة، الأمن، وهؤلاء الكبار المهمون، يتحركون دائريا حول المعبد، تبارك حركة الجبار. والناس، كائنات مزعجة، في عرض مسرحي رخيص ومبتذل.

وما هي رسالة المؤلف، وما جدوى ارتجال أبطال العرض، الجمهور الضحية، مع تكرار المواسم، غادر الصالة، لم يعد مكترثا بالحكم، والبطانة، ولا بإرهاصات المثقفين الكبار!!

منشغل باليومي، القشوري، الفقر، الصحة المُعتلة.. سقط يقين الناس، لم تقتحم حياتهم بارقة أمل تحرك المأساة من مكانها.

تحرك العرض بحكم العادة، الصورة يجب أن تحتوي على مثقفين، لكن أين هم؟ ويوجد أفكار، لكن أين المشروع؟ ويكون هناك مسلمون. لكن أين الإسلام؟

إننا محاصرون، فصاميون، مفتتون، نتنفس الكراهية، ونمضغ الجدل العقيم، تحارب كريه، ومخرج المسرحية شرطي حاذق، ورسالة المؤلف.. خطة إشغال للناس، تفقدهم الثقة في التغيير. فساد يضرب كل مفاصل الحياة.

لم أشعر يوما أن الفرعون هو الأول هنا، وإنما الثاني الذي يتلقى أوامر هذا الخفي.. المنتقم، المشبوه، القاتل، صانع الأكاذيب الحاذق، وسدنة عتاة، تلقوا تعليمهم في مدارس إبليس، المفتوحة دائما لخائني الأوطان.

(١٦)

توقف سيرنا، وأخذنا طريقنا عائدين للسيارة، ساعة كاملة على ما أتذكره من ملاحظة الوقت، والرجل يمارس علينا ضغطا رهيبا من حديث، أصعب ما فيه إننا لا نملك، لا مقدرة على إيقافه أو دحضه، ذهبنا لما هو أبعد من ذلك بكثير، عندما قمنا بربط ما يريده كنبي، وما يتحدث فيه عن وضع بات كشمس النهار.

كان الصبح إنذارا بزوال الضغط، لا ندري أي صمت دفعنا لأن نتجاوز مجرد الرغبة في التعليق، بدا الإحباط القاتل ينطق من ملامح الرجل الذي بدا لي على الأقل لا يريد هذه الدنيا التي لا تتسع لحلمه أن يرى الوضع أكثر تشجيعا من هذا القتام الكريه، والذي أحاط به منذ لفظته أمه للحياة.

عُدت إلى إشاراته بالرهان والخيانة المتوقعة، وخصوصا واحدا من أتباعه. لم يكن سهلا الانفلات من هذا التلميح الصعب. لكن الأشد غرابة، ما سمعته من محمد عثمان الذي دعاني لأن أرحل بغرض توصيل النبي والشابين، ومن ثم أعود له حيث سيظل في المقهى.

لم أفهم أو أسعى للاستفسار عن سبب هذه الرغبة، أو معرفة ما الذي يمنعه لأن يعود لبيته بعد ليلة مجهدة كالتي عشناها.

لم يكن ينظر إلى الرجل، أو يحرص على توديعه، أو سؤاله أي سؤال. أشعل سيجارة، انصرف عنا، وبدوري أخذت النبي والشابين ورحلنا.

في المسافة إلى حيث العمارة لم ينطق أحد، ولم أملك فرصة ـ مجرد فرصة ـ أن أفتح أي حوار يستفهم أو يعلق على زخم الحديث الذي انطلق في تفاصيله.

على اختلاس النظر لملامحه، كان الغضب حاضرا، وجهه مُصفرا، مُضطرب، تشعر أنه سيختنق، لم يدخن، جلس وأطاح برأسه إلى الخلف، وكأنه يريد أن ينام نوما يحتاجه. هبطوا من السيارة بمجرد وصولنا، لم ينطقوا ببنت شفة، ولم أشأ أن أطلق أي كلمة تشير لأي معنى. أخذت طريقي إلى صاحبي حيث ينتظرني. وصلت ولم أجده في نفس المكان، أبلغني السفرجي أنه سيعود، قام لإنجاز إفطار لكما. انتظره.

كنت أتمتم: أي إفطار، وأين الشهية التي تسمح لأن نتناول طعاما بعد هذه الأمسية. عاد، وأخرج الطعام الذي كنا نبلعه بصعوبة. الشاي والقهوة والسجائر التي تم استهلاكها كان بشعا. ومع ذلك كنا نأكل تحت داع جوع حقيقي، وإن كانت شهيتنا تعاني زهدا في الأكل.

هل لم نكن مقتنعين في الظاهر للرجل إننا نحترمه، في حين أن دواخلنا تسخر منه، نساير جنونه، ونعبث به ومعه؟ هل مازلت مؤمنا أن ما ينتحله الجنون أو بعضا منه؟

كان سؤال «محمد عثمان»، وكأنه خارج من جحيم حيرة وتيه شديدين. ربما ندم، أو استشعارا لخطر لا يمكن تصوره. وجدتني أعود إلى نفس ما أشار به عليّ يوم كنا في شقته.. إننا مقوْلبون،

حكمنا من منطلق أفكارنا التي لم تكن على قياس الرجل. فالسنوات العشرين التي فصلت بينه وبين صاحبه كبيرة، الاعتقاد في إحداثها لتغييرات جذرية في شخصيته أمر مسلم به، أو أن الفترة البسيطة التي قضاها معه ليست كافية، مجرد عناوين تتسق مع شخصية رجل بدا ساخرا ومنصرفا عن الناس، لكنه ليس بهذه الروح التي طالعنا بها منذ عرفناه على هامش ما ينتحله من جنون، قرر في لحظة لا ينقصها العبث أن يخرج به على العالم.

لا أدري هل كنا في مشروع بكاء، وعلام نبكي، حيال رجل مأزوم، أم لهذا النبش الذي يمارسه بقسوة على كل ما سبق وأن آمنا به. أو تم تصديره لنا في سنوات التيه الممتدة على أجيال سبقتنا، وربما لاحقة.

كنت زاهدا في إنتاج أحكام حيال ما سمعناه، وخصوصا الأفكار التي قام بتفنيدها أمامنا، وحريصا أن لا أدخل في جدليات عقيمة مع صاحبي الذي اعتراه كل هم الدنيا، وشعر في نفسه أنه المعني بكل التلميحات الجارحة. لا غضاضة، لم يتبق الكثير وسننتهي من هذه القصة بما لها أو عليها، هناك حلقتان ويذهب إلى حال سبيله، سواء كان يهلوس، أو ينتحل حالة يريد منها شيئا معينا يوقظ الناس النائمة.. حسبما يراهم.

ذهبت إلى البيت، رحت في نوم لا أدعي كان طيعا. صدى الحديث حاضر في كل جنبات الغرفة، يتحرك كالأطياف، على الستائر والوسائد، وربما تسلل إلى حلم لم أتبينه بسهولة.

في عصر اليوم كان ضروريا أن أذهب لمقدم الحلقات الذي

أراد أن يجلس معي في مكان بعيد عن ضجيج القاهرة وزحامها، لم أراهن على جدوى اللقاء، لقد اتفقنا منذ فترة أن نؤسس للجنون، ونترك الحكم للمشاهدين، رغم كل ما يعترينا أن الرجل بالضرورة ليس كذلك.

لمست بمجرد أن استقر بي المقام في حضرته، حالة من التوثب لنهاية هذه المغامرة التي بدت غير محسوبة.. لم ننجح أن ننجز خطاب الجنون، ونعيد تصديره لمشاهدينا. فشلنا ويجب أن نعترف. ولا ندري إلى أي مدى يمكن الثقة في هذه الجهات التي دفعتنا، وشكلت غطاءا معينا لما شرعنا فيه، وهل سيستمر دعمهم لنا إلى النهاية أم في الأمر شيئا؟؟

لم يساورني الشك في مبالغة الرجل، بل أحسبه لو كان معنا في إطار الأمسية السابقة، وسمع الرجل، لحدثت معطيات جديدة، قد تغريه بالانسحاب من هذه اللعبة الخطرة. كنت أواجه هواجسه بصمت مستفز.. سألني مباشرة.. مطمئن للنتائج؟

قلت: بعيدا عن الأموال الغير مسبوقة التي دخلت خزائن مُلاك المحطة، فلقد نجحنا نجاحا ربما لن يتكرر على المدى المنظور. لكن تصدير الرجل كمادة جالبة للطرافة، فمن العار المصادرة على كل من تابع الرجل من خلالنا، فغرابة ما طرحه يبدو أكبر من معنى الطرافة، فجنونه كان مستفزا وغريبا، وأشاركك إحساس الفشل الكبير في الحفاظ على ذاك الخط الحرير الذي يفصل بين كونه مادة للطرافة، وإيماننا الخاص بصدق ما يبثه من خلال شاشتنا،

أشعر أن هناك ثمة مسئولية تضامنية بين نوايا الرجل ونوايانا، دون أي قصد منّا في إحداث هذا التوجه. إن أي مثلبة من الممكن أن تضاف لرصيده منذ ظهر على الناس، ستؤول لنا بنفس الدرجة، نحن الذين أتينا به وقدمناه للجمهور.

لم يكن الغد بعيدا عن مخيلة مُقدم الحلقة، فالإطلالة الرابعة للرجل لا يفصلنا عنها سوى ساعات تقريبا، لكن ما لفت نظري أن هناك ثمة كواليس لا أعرفها قد كشفت عن نفسها في إطار مخاوف، باتت أكبر من المحيط الأقرب لحركة الرجل وظهوره. ربما التقى أحدا من هذه الجهات الأمنية التي أشار لها في حديثه.. لم أكن محتاجا أن أسأله لعلمي الذي يقترب من اليقين أن هذا قد حدث. حتى النبي نفسه أنتج لنا نحن الذين نتابعه منذ البداية لهجة تحد ما كان حريصا عليها في البدايات. انتهينا من جلستنا، ورحلنا دون أن نتفق على خطة لإدارة لقاء الغد.. وداع سريع دون أي جديد يساعد في استدراك أي معنى قد سقط منا في اللقاءات الماضية.

كأن محمد عثمان كان ينتظر نهاية هذا اللقاء مع مقدم الحلقات كي يتصل بي ويعتذر عن عدم مقدرته الحضور للأستوديو، ومشاهدة الحلقة من كواليسها. حاولت لفت نظره لسوء الظن الذي قد يساور الرجل حال لم يره كالعادة، هو على كل الأحوال قد غفر له الغياب في الحلقة الأولى، لكن لا أحسبه سيتعامل مع غيابه الآن بذات الأريحية، وخصوصا مع التطورات التي شملت حديثه، سواء في إطار الحلقات ذاتها، أو في الجلسات التي جمعتنا به في الأيام البينية التي تفصل بين هذا اللقاء أو ذاك. لم أك مقنعا، ووجدت

حسما في طلب الاعتذار، ودعوة أن لا أهتم كثيرا بمسألة استقبال الرجل لغيابه.

دخل الرجل ومعه الشابان، والغريب لم يشأ أن يتحدث معي، فقط تحية بإيماءة على البعد. استسلم لبعض التدخلات التي ناقشه فيها المذيع. لكنه لم يبدِ انفعالا معينا يغريني بالتركيز في هذه التفاصيل التي يتحدث فيها معه.. على الضفة الأخرى، وجدت الشابين في جلال القلق، كانت ملامحهم بما فيهم نبيهم تغري بالاعتقاد في ليلة طويلة سبقت مجيئهم، متوترون، مضطربون، لا تبدو عيونهم على البعد في غير ثوب الأرق.

مرت التقدمة كالعادة، ولم أكن أركز على شيء سوى الرجل الذي بدا لي على درجة كبيرة من الإعياء، حتى حسبتها الفرصة التي ستعيد القصة سيرتها الأولى، لحديث لا يخلو من عبث وتيه، يؤكد للناس وللمتزمتين، وللجهة السيادية التي تتابع الأمر، والمراد له أن يؤسس غيبوبة لا تختلف عن غيبوبة الفترة التي عشناها، منذ دخل هذا الجهاز حياتنا.

مقدم اللقاء ينبهه إلى اقتراب الوقت الذي ستنتهي عنده هذه الحلقات، فلم يتبق سوى لقاء آخر ونفتقد وجوده معنا. ومن الحكمة أن نعيد على الناس في إيجاز جدوى فكرتك والحقيقة الكامنة خلفها.

بعد شرود تعودنا عليه راح الرجل وعاد سريعا..

ـ لم أكن مهتما بحسابات المكسب والخسارة؛ متُّ من قبل؛ وليس هناك ما هو أصعب من الموت.

مُغامر؛ مُقامر؛ استشهاديٌّ أحيانا كثيرة؛ قمت بفلسفة فصيلة دمي الـ O على إنها دليل المنح والعطاء؛ جُبلت أن أمنح كل الفضائل؛ وصادفت مشقة كبيرة أن أجد فصيلتي.

لا يهم إن منحت نفسي دفعة واحدة؛ من أجل معنى، أنا مُستهلك؛ وإن سلكت مسلك التضحية؛ فيقيني أن الأمر يستحق، وإن حدث وجاءت أحلامي على عكس ما أتوقع؛ فلن أكون مستهدفا من سهام الدهشة؛ فلا يوجد ما يُدهشني من مفردات هذه المتاهة.

كان الوقت يمضى رتيبا، بين العمل المتواصل، وتلك النافذة المعروفة بالانترنت؛ استقبل رسائل المريدين، واستأنف حياتي التي ما تغير إيقاعها.

من الحكمة أن تدرك أن الحياة قد تغيرت، لكن كنت مع الوحدة قد عقدت قرانا كاثوليكيا.

تشتت منظومة الأصدقاء، وضياع معنى العائلة بالموت، تدثرت الحياة بأقذر رداء، مطرز بالارتجال والعشوائية والزحام الخانق.

لا أدعي أن ما صنعته كان حدثا مفارقا، بل أعراض ثمالة لرجل قد أفرط في الشرب. رغم أن الإفاقة كانت مأساة شاملة.

قلت اصطفى من أجد فيه روح المغامرة، وعنده نصيب من الأريحية، تجعله يؤمن بجنون الفكرة إلى حين.

ليس من العدل أن أموت وتحترق كلماتي في قبري، قل كلمتك وأمضِ، لا غضاضة أن تنسل خلف جنونك، ففي ذاك الجنون

عبقرية اللحظة، التي قررت فيها أن أخرج على الناس في ثوب نبي يريد خلاصا لأهله.

ـ لكنك لست رجل دين حتى؟

ـ وماذا صنع رجال الدين؟ السرقات لم تنتهِ، الزور مازال حاضرا كالهواء، الكذب موهبة الوقت وناسه، القتل المتنوع، وبمهارة غير مسبوقة مازال يُرتكب في كبد النهار.. خيانة الأمانات، الزنا، اللواط، كل الموبقات التي لا يقرها أي دين، حتى ولو كان مجموعة أفكار أرضية، صاغها رجل رفض أدران زمنه.

ـ قلت إنك اعتزلت الحياة والمصلحون لا يعتزلون واقعهم؛ مهما كانت مركبات الضعف فيه..

ـ ربما كنت أخشى على نفسي العدوى، كذبكم كان قويا ومؤسسا بعناية، ما كان لي أن أنساق مع مكركم، وانحطاط نفوسكم. خشيت على براءتي منكم. وبياض قلبي من سوادكم، من يصلح من، والمعتوه يأتي على رأس كل المجالس، والأفاقون هم سدنة المرحلة، زيفتم وعي الناس بأكاذيبكم الملونة كبيض شم النسيم. ضللتم البلاد والعباد، كلكم مجتهدون من أجل الفرعون، تؤسسون ثقافة العبيد كأروع ما يكون. أبناء الأفاعي الذين باعوا الهيكل بدراهم معدودة. من كان يفكر للناس، ترتدون أفخر الثياب وتشربون وتأكلون، والبشر تقتات من المزابل. أنتم الكفر في معناه الذي لا ينبغي للغة أن تصفه بإنصاف.

ـ من نحن؟

ـ الذين رأوا الناس كائنات من غبار، القتلة الذين لم تتأذَ مشاعرهم من مشاهد القتل، قتلتموهم مجانا في حرب بلا معنى. وصرختم لسيدكم أن كل الأمور في نصابها الصحيح. تذكرونه وتحمدونه بأكثر من ذكركم للذي خلقكم.. أنتم الذين جعلتم الوطن بلاتوه، الجميع يمثل فيه أدواره المبتذلة. الله يتأذى من مشاهدتكم، أحسبه لم يعد ينظر إليكم، لكونكم مقززين، أرهقتم الحياة الطاهرة برجس نفوسكم وما اقترفتموه في حق الأبرياء من الناس الذين ما عادوا مؤمنين إنكم بشر.

ـ أنت حاقد على الحياة لأنك عاجز أن تتواصل معها..

ـ أي حياة؟؟ وهذا الجالس على رقاب العباد يُعبد من دون الله. من صاغ الفراعين غير خوفكم وتكالبكم القذر. أين القضية التي عاش من أجلها أمثالك. أين كنت والناس تموت والجهل يكتسح الأرض، والصحة في ندرة الهاوية، ماذا قدمتم كي تستمر الحياة، كلكم سلطة تماهت مع سلطة الإله الأرضي، الذي صغتموه بضلالكم المُركز.. هو يحتقركم، أدرك ضعفكم وكذبكم، حتى تعاطى مع نجسكم على إنه الحقيقة، صغتم فصامه، لم يعد يصدق أن الناس مأزومون. الملائكة إذا حكمتكم يُخشى عليها من تدابيركم، ونفوسكم الملوثة. ستغرقون، لن يغرق الفرعون وحده، ستغرقون معه، ستلحقون به في قاع النسيان.

كلكم حرصتم على تصديري للناس كمجنون، جرعة أفيون لتسلية الغائبين عن الوعي، هذا القادم من الإسكندرية، يدَّعي النبوة، ويؤسس دينا مع مجموعة الحمقى، الفراغ، التهميش، المخدرات.. انظروا وأضحكوا على هؤلاء المجانين.. من طوَّح

عقولنا غيركم؟ من سمم أكلنا سواكم؟ من زرع فينا المرض، وقتلنا بالبحث عن العلاج؟

كل من آمن بي ليس من دوائر الحمقى، إن هم إلا ضائعون بينكم، هم الدليل الساطع إنكم دجالون وأغبياء، لمن بعتم هؤلاء. لمن دفعتم المبالغ؛ كي تسودوا على الناس وتسومونهم سوء العذاب. الشرطة في خدمة الشعب.. يا للكوميديا!!

الشرطة والشعب في خدمة القانون.. يا للكذب!!

أي قانون؟ أن يمنحك الله الصحة، فتزرع فيك قيادتك المرض؟ أن ترى وطنا كاملا يرزح تحت الغيبوبة؟ أن يُحبس الفقير ويُكافأ اللصوص؟

أن يكون هذا هو الحال، وتكتبون في صحفكم القذرة إننا في الجنة؟

أن يختفي الناس في السراديب ويموتون كالذباب. يمنحنا الله الخصب ونموت من الجوع؟ أي رب تعبدون.. كفاكم تهريجا.. وتطاولا بالكفر على السماء وصاحبها.

أنت تعرف أن هذه الحلقة لعب بالنار، ستضحك، وتضعني في فم الأسد القذر الذي يتابع أشباله ما نقول، ومع ذلك فأنت حر، حر لأول مرة في حياتك، أخذتك عزتك أن لا تكون جبانا، الناس تحترمك لأول مرة منذ أن ظهرت عليهم عبر هذه الشاشة العمياء، لأنك حر، عشت الانفلات من القطيع المدجج بالزيف، الآن، والآن فقط، حفنة من الذين يسمعوننا ربما يحتقرون أنفسهم وهم يشاهدونك الآن، أدركوا مع هذه اللحظة أنهم عبيد ذواتهم، غرتهم الأماني والسلطة والشهوة، يسبحون للطواغيت بدراهم من حرام،

ويتخذون فردايسهم في جوار الكاهن الكبير، قبلتهم، التي في سبيل إنجازها، باعوا كل شيء. فيما يفكر هذا الطبيب الذي سرق آلات الله من جسد المريض، وباعها للص كبير، الذي سرق المال، وفشل في سرقة الصحة.

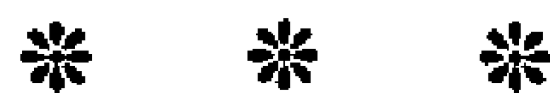
كيف نام القاضي الذي سجن بريئا، ومنح صكوك البراءة لرجل جرائمه في عدد النجوم، من أزال هذه العصابة من فوق أعين الفتاة التي تحمل الميزان في ساحة العدل، أنت حر في كراهيتك للموت، ولست حرا أن تخفي علينا لِم تخشَ لقاء الله. أيها الرجل الحر.

لم ينته اللصوص، والعسس يعدون أنفاس الناس ليل نهار، لم يذهب الظلم إلى غير رجعة، لم يستطع الطب علاج أمراض الناس، وفي أول كل شارع صيدلية تنافس أختها في نهايته، كل هذا لأن الناس ليسوا أحرارا، وكفارا في الوقت نفسه، يعبدون أشيائهم الحقيرة، لم ينته اللصوص لأن اللصوصية صارت دينا ومذهبا. أنا أسرقك، وأنت تسرق المحطة، ومالك المحطة يسرق الأقمار الصناعية، والأقمار تسرق الهواء، والهواء يسرق الناس ويغويهم، والناس تسرق بعضها عيانا، والطبيب يسرق المريض، والمريض يسرق اللقيمات من حرام، واللقيمات زرعها فلاح لص، والجمعية الزراعية تسرق الفلاح، والمخبز يسرق القمح، إننا في سلسة سرمدية من اللصوص، وبعد ذلك يقال إنك حر، كذب صراح، الحر ظل يشاهد هذا المسلسل، فقتله الجوع دون أن يدنس يديه وروحه بهذا الكم من الأوزار.

(١٧)

تقريبا لم نكن نسمع سوى الرجل، الصمت كان كبيرا جدا فيما عداه، لم نسمع رغبة مقدم الحلقة في الخروج إلى فاصل، حتى سمعنا أن الرجل قد قال في حدة ولم ننتبه: أنا من يحدد متى تخرج لفاصل. في نهاية هذا الحديث الذي بدا لي متوترا وخصوصا من جانب مقدم الحلقة الذي كان مستفزا، وربما مبالغا في ردود أفعاله حيال ما يطرحه ضيفه.

أظن أن الخوف كان عنوان هذه الهبَّة، كان يخشى على الأغلب أن يتورط مع الرجل الذي لم يكن سلسا في آخر إطلالة له. لم نشعر عند هذا الحد بذاك الكم من الحقارة.. هذا الرجل يعرف ما يريد، وما يقوله هو السقوط لورقة التوت الأخيرة، إن هذا الصمت الذي سيطر علينا لا يرجع لأن الرجل يقول حقيقة مجهولة، وإنما لأنه يتبرع بقولها عيانا دون احتياط، ولست أدري ففي كل لحظة أسمع حديثه، أشعر بالخوف والرعب، لم يكن فينا مبتهج واحد غيره، يقامر على حياته، ويضعها كما وضع سقراط فكرة الحياة نفسها تحت حذائه، وتجرع السم؛ كي لا يشارك بدم بارد في هذا العبث الذي ضرب أثينا كلها.



لو قمت ساعتها بقراءة الوجوه الكثيرة التي كانت حاضرة لكواليس الحلقة، لأدركت أن الرجل قد استلب ليس مجرد إعجاب من يستمع إليه، ولكنه استفز مكونات الرعب، بالفعل كان الرعب هو أبرز ملامح الجميع. كنت أستطيع أن أسمع دقات قلب الشابين الذين من المفترض أنهما يعرفان الرجل وشطحاته، لكنهما بدا مندهشين. لا يمكن الرهان عليه، ولا يمكن التثبت من الجهة التي يريد لأن يصل إليها بحديثه، أزعم أنهما مندهشان بنفس الدرجة ومرعوبان.

كان من الممكن أن تسير الأمور وفق طبيعتها، منذ دخلنا إلى هذه المغامرة. لكن الفاصل استطال؛ كي يدخل إلى منطقة جدل هي أقرب ما يعبر بصدق عن الحال التي تبعت هذا الجزء من الحلقة.. أعنفها على الإطلاق إخراج الرجل من الهواء. والاعتذار لأي عطل فني أو هندسي يمنع الحلقة من الاستمرار. الغريب أن الرجل قد شعر بهذه الرغبة، ولم يبدِ أي تعليق عليها. بل استمر خارجا من فيوضات الحالة، وعاد سيرته الأولى، لا ندم أو استدراك. الإعلانات بالتوازي مستمرة، ونحن نتحرك في خلية نحل في أكثر من اتجاه. لم تكن نسب المشاهدة العالية جدا ساعتها مشجعة لأن نخرج على الناس أن هناك ثمة عطل هندسي أو غيره يمنعنا الاستمرار. بل إن الاندفاع خلف رغبة كهذه ربما سيلفت نظر الناس لخطورة ما قاله. وسيدفع بالناس إلى التركيز مجددا فيما قاله بالكلية، وربما منذ بدأ، ليس صعبا بأي حال البحث عن الرجل في مواقع التواصل وإعادة الاستماع إليه.

ظهر تجار هذا الزمن في ثوب من استغلال جديد؛ لإعادة تصدير المعنى الكاذب أن هناك ثمة حرية، الجميع يستطيع أن يعبر عن رأيه متى أراد، فرغم هجوم الرجل الجارح على كل شيء، القناة ملتزمة بظهوره، والاستجابة لأن يقول ما يؤمن به. كان هذا الرأي التجاري المحض أقرب للتحقق، هي الفرصة التي لن تتكرر للمحطة أن تربح من حصيلة الإعلانات والرعاة أرباحا بهذا الكم.

ندرك في ظلال هذا الجدل أن الأشباح موجودون، ولديهم من الحلول الحاسمة ما يستطيع إنهاء هذه القصة، وربما الرجل نفسه.

سمعت كل الأفكار التي قيلت، ولست أدري لِم طابت نفسي لفكرة العطل الهندسي أو الفني الذي يحول دون الاستمرار، مع بقاء فكرة أن الأسبوع القادم سيشهد آخر إطلالة للرجل على الناس، فإذا سقنا هذا السبب، وبالضرورة ستلغى على ضوء ما حدث في الحلقة الأخيرة، فمؤكد قد نجح الرجل في بسط أسطورته على الناس التي ساعتها ستبحث عنه، وتلتمس منه شيئا يقوله، فيما هو أبعد من القصة بتفاصيلها التي توقفت، والسبب الغير معلن وقتها أن النظام لم يتعاطف مع ما نبثه. لكن كل الطرق بدت مؤدية إلى الاستمرار وفق ذريعة الحرية المزعومة، التي يتمتع بها أصحاب الرأي في ظل الحكم الرشيد!!

كان هاتفي الصامت يتلقى وابلا من الاتصالات من «محمد عثمان» الذي ربما ندم أنه خارج هذه الأجواء، أو لربما شعر بمدى حاجة صاحبه له في إطار هذا التوتر الذي انعطف إلى أعلى مستوى له منذ بدأنا، فقد صدق رهانه، فصاحبه يمهد لكارثة. ستدفعه دفعا

لأن يقول ما آمن به، دون النظر لرغباتنا في تصويره كسفيه، غائب عن الوعي. لم أسع للرد عليه، أو التفكير في مجرد الخروج لمكان آمن يمكني من الحديث معه حول مستجدات ما يحدث.

كل الوجوه مألوفة لدي، إلا هذا الوجه، وما كنت محتاجا أن أفكر كثيرا فيمن يكون هذا الرجل. كنت على وشك أن أقع في مغبة الحيرة، وأنا أشاهد الرجل لأول مرة وخصوصا في كواليسنا، لولا إيماءة صادرة من نبي الإسكندرية تشي بأن الرجل كما حسبته. لم يكن بخيلا في توزيع العديد من الابتسامات على الجميع، ويدعونا للاستمرار. خرج مندوب الجحيم سريعا، وعاد مقدم الحلقة الذي لا ندري أين اختفى، يدعونا لأن نكمل. وبلهجة هي للسخرية أقرب، وجدته يقول: النظام ليس حساسا للنقد إلى هذه الدرجة التي تدفعنا لأن ننتحل أسبابا ساذجة، تطيح بالرجل من الهواء لصالح أي عطل.

لم يزُل الرعب والخوف والإشفاق من الجميع حيال نفسه والرجل في آن. والشابان يتحسسان مصيرا لا يمكن الوثوق في انتحاله للهدوء والدعة. شاشة المحمول مازالت تومض باسم محمد عثمان، وكأنه يستجديني أن أفعل شيئا يخرج بالرجل من هذه الأجواء الضاغطة. لكن بدا الشط بعيدا بعد أن أخذ بنا صاحبه إلى العميق الذي لا يمكن الانسحاب منه لأي سبب. تركنا الإعلانات، حاولنا العودة للهدوء، ويبدو إننا لم نستطع، حتى جاء صوت النبي يدعو مقدم الحلقة وسمعناه على البعد يقول في حسم: لقد أخذت طريقي، وكل ما حدث لن يغير من الأمر شيئا عندي، فانظر ماذا ترى؟!

كانت ثورة مقدم الحلقات لافتة فعلا، والغضب الذي لم نصادفه منذ بدأنا معه أكبر من أن ننكره.

ـ واضح إنك لا تدرك ماذا حدث منذ قليل.

ـ لا يعنيني.

ـ إنك تقامر بك وبنا.

ـ بي ممكن، بكم لا أظن، الربح أكبر.

ـ أرجوك دعنا ننهي هذه القصة بأقل خسائر ممكنة.

ـ خسائر؟؟

ـ نعم خسائر.

ـ دعنا نكمل وكفانا دجلا.

كان السؤال الضاغط في هذه اللحظة في أي اتجاه يمكن استكمال الحلقة بعد هذا الحديث والجدل الذي أعقبه. والرجل على البادي قد قرر أن يستمر. حاول بقدر الممكن مقدم الحلقة أن يهدئ، ولكنه لم يكن يتصور أن تكون العودة من ضيفه بهذا الكم من السخرية والتجريح.

ـ ألن تخبر الناس سر الفاصل الطويل الذي استهلكتموه في الإعلانات التافهة؟ على كل حال سأخبر الجمهور العزيز، أن المحطة كانت مضطربة من حديثي قبل الفاصل. حاولوا قطع الهواء. وسوْق المبررات التافهة عن الأعطال الهندسية والفنية وإيجار الأقمار والفضاء وهذا العبث المجنون. لكنهم يحترمونكم أيها المشاهدون الأعزاء، خافوا عليكم أن تتنبهوا لفداحة ما أقول. فلو منعوني؛ كنتم قاب قوسين أو أدنى من البحث عني، أو السؤال،

وهذا أضعف الإيمان.. لِم منعوا النبي من دعوته. والحديث للمؤمنين به. هكذا هم، مقدسسون لدرجة تدعو للرثاء، لم يفعلوا شيئا يستحق النقد، وحياً يقولون، وأمجادا يصنعون. وكل ما ترونه في الشوارع المزدحمة بالغبار والناس والمرض والفقر، كلها أعراض كاذبة يسوقها الحاقدون على نجاحاتهم الباهرة في قتل بعضكم بعضا.

.. إذا سمحت دعني أكمل ولا تقاطعني..

ـ نعم يا مشاهدي هذه المحطة الأبرار.. لم يعد هناك فقرا، لا يوجد شباب استحبوا الغرق في البحر من أجل لقمة عيش منعها عنهم نظام بلدهم. لا مرض، المستشفيات تعاني الخواء، الأطباء يشتكون العوز. الأعراس تملأ المدن بطول البلاد وعرضها.. ما لهذا الكاذب يتحدث عن العنوسة، والبنات جميعهن في بيوت أزواجهن. والشباب عن بكرة أبيهم قد غادروا مواقع «البورنو» وتوقفوا بحسم عن العبث بأعضائهم التناسلية.

الآن لم يعد أحد مشغولا إلا بعقابي على جنوني، أنا الذي يتحدث عن وطن غير هذا الوطن. أنا الحاقد المطرود من فردوس النظام، ما لي أتحدث هكذا وأنتم ترفلون في النعيم. نعم كنت نبيا للكارثة، ولا من جديد حتى الدين. لا أريد أن أكون وقودا للمحرقة التي تنتظر الجميع. خلف هذا الأستوديو من يريد بيعي، وتسليم رقبتي بثمن لا أتمناه بخسا. سيقتلونني ورب الكعبة. لست كافرا كي أحدثكم عن الله، ومن أنا كي أعرف من يصلح للحديث عنه وعن ذاته التي تُحير العقول، إذا تصدت لهذا الهدف. ألأني أقمت

وأتباعي شعائر تبتهل الخضرة والماء والأرض والبحر. أو ليست هذه مخلوقات الله التي تصرخ من جهلكم ليلا ونهارا، وتبتهل أن يُقضى عليكم من فرط جحودكم؟ أو ليس هذا أكثر شرفا من لطم الخدود يوم قُتل الحسين؟ أتنقمون علينا أن نعتذر لله ممثلا في آياته؟

لمن تصلون في المساجد والكنائس؟؟ ماذا صنعت صلواتكم، تخرجون علينا بكم مضاعف من الأكاذيب.. أين النور الذي ينبعث من وجوهكم بعد لقاء ربكم في بيته. مليارات تنفقون؛ تؤدون شعائره في بيته الحرام.. ماذا صنعتم بعد عودتكم.. غير القتل والترويع والقمع والاستغلال والسرقة والزور والبهتان.. أنا أعبد إنسان يمشي على هذه الأرض، وأتباعي ضحاياكم. سيأتي الموت وتدركون عظيم ما اقترفتموه في حقي. سيلتهمكم الدود الذي احترمكم مادمتم أحياءً، وبموتكم تجاسر على جثثكم العفنة. ستعودون للتراب الذي ظل يئن من جهلكم. لن يبقى منكم إلا شواهد قبور، ستندثر يوما. ويطويكم النسيان، ليس سهلا أن تتذكر الحياة من أساء إليها.

(دعني أكمل.. لا تقاطعني، ربما لن يتكرر هذا الحديث)

في كل ليلة كنت أسأل نفسي هذا السؤال.. ما الذي يمنع العناية أن تنهي القصة.. مادمنا على هذا الجحود؟ هل كان موسى سفاحا؟؟ لِم يقتلنا اليهود؟

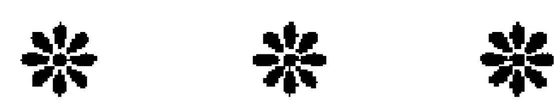
هل كان المسيح يؤسس في أتباعه الضغينة، وهو رسول المحبة؟

هل كان محمدا بدويا خارج الزمن؟ علّم أصحابه أن يزيحوا الله ويعبدوا خلقه؟

حطم الأصنام التي تعبد من دون من أرسله؛ كي يعبد الطواغيت في كل أرض العرب؟ هل أنتم مؤمنون حقا أن هناك ثمة بعث وقيامة وحساب؟ هل بعد السماء سماء، وإله يدير مملكته؟

ألا تخشونه؟ لمن تصلون إذن؟

تدثروا بالكفر الصراح، فمن العار أن تدَّعوا الإيمان، وتكونوا على هذا النحو من العهر.



وضح لنا أن مقدم الحلقة قد استبد به اليأس فعلا من هذا الرجل. والغريب لم نكن نتوقع أن يخرج الضيف بنفسه إلى هذا الفاصل، والذي لم يكن سوى ردة فعل هي الأغرب منذ عرفناه، فما أن أتم الرجل كلماته حتى نهض من تلقاء نفسه. نزع المايك، وخرج مندفعا إلى رواق الأستوديو يبحث عن باب يخرجه من المكان، لا ينظر لأحد وكأنه يعترف.. إنه قد وصل مع العالم إلى طريق مسدود.

المدهش أن الامتعاض والنفور لم يطغ على تركيزه مطلقا. مرتان يطلب من مقدم الحلقة أن يتركه يكمل حديثه، ولا يقاطعه. لكنه ظل مندفعا كالطوفان. ولا ندري من كواليسنا كيف يمكن تمرير هذا الخروج إلى الفاصل الذي دفع به لأن ينزع المايك، ويخرج هو من هذا الجو الذي بدا خانقا. كنت أتسلل كي أراقب

ردة فعل مقدم الحلقة.. أحسبني رأيت دموعا أو مجرد وميض يغريني بالاعتقاد في كونه يبكي. دفعني الفضول لأن أتابع أسم محمد عثمان على شاشة هاتفي، فوجدت خمسين مرة يحاول فيها الاتصال. حتى الشباب العاملين في الأستوديو ما كان لي أن أخطئ شعورهم الحزين في هذه اللحظة. إن تعاطفهم مع الرجل هو الذي يفسر لي حالة متأرجحة لعيون تريد لأن تبكي فعلا أو تتكتم بكائها، أو تؤجل انهيارها لوقت لاحق. لا، أعترف، أن الرصيف قد منحنا رجلا استثنائيا. وأن هذه البلد ما كانت لتعدم من يستطيع بين الحين والآخر أن يعرينا، مهما كانت القسوة التي تحدث على هامش تعريتنا.

كانت الورطة التي صنعها خروجه على هذا النحو، معضلة لكل من حاول أن يتجاسر كي يعود النبي إلى الثلث الأخير من الحلقة.

راقبته على البعد كان يضع كرسيه أمام الحائط وكأنه إما لا يريد أن يرى أحدا، أو يخفي ملامح حزن وضعف لا يريد لأحد أن يراه.

وعدني المقدم أن يعالج هذا الخروج بدبلوماسيته، بشرط أن يعود الضيف أكثر هدوءا مما كان، لا نطلب منه أن يغير اتجاهات حديثه، فقط التخفيف. كان مقدم الحلقات يتحدث بصوت مسموع نسبيا، فالتفت الرجل معطيا إيماءة إنه سيتضامن مع هذه الرغبة التي تريد إنهاء ما تبقى من وقت، لكن في ثوب الهدوء والتخفيف من اللهجة، وكذلك المعاني التي ينتجها كلامه.

كانت دبلوماسية مقدم الحلقة لافتة إذ اعتذر للمشاهدين على التأثر الشديد الذي سبب حالة من الإرهاق دفعت بضيفنا أن يخرج

إلى الفاصل بنفسه؛ كي يتناول بعض الأقراص التي تعيده إلى هدوءه وتركيزه المعتادين. بالتوازي كان النبي يعطي إشارات تؤكد مزاعم مقدم الحلقة، وكأنها تفاصيل لتعب قد حدث فعلا.

ـ اعتقد إنك هدأت الآن.

ـ نعم.

ـ إذن نكمل.

ـ تفضل.

ـ مما لاشك فيه أن المجتمع المثالي لم يُخلق بعد. هناك أخطاء لا ريب، لكن من المهم أن نستدركها ونعالجها.

ـ نعم من المهم أن يستدرك الناس أخطائهم، لكن متى يحدث ذلك. أحسب أن هناك ما هو أصعب من أن تستدركه، في إطار هذه الغيبوبة، ربما لا يحدوني الأمل أن يتم أي علاج وتصحيح لأي شيء. الأخطاء باتت مقدسة، التصحيح أصبح شذوذا، عندما تدرك أن رواتب وظيفة ما لا تصلح لإدارة حياة عادية لإنسان يريد أن يعيش.. ماذا تتوقع؟ أليست الرشوة؟؟

لما فقد المعلم الضمير ولم يراع فقراء الناس الذين لا يستطيعون شراء علمه في بيوتهم، بعيدا عن المدرسة التي باتت مصنعا لإنتاج الضائعين.. كيف خدع نفسه أن لقمة عيشه لا ينقصها الشرف.

الشرف؟؟

من منح هذه المرأة لقب عاهرة، أو فتاة ليل تقتات من لحمها؟ ستقول الفقر ليس مسوغا لأن تتنازل طوعا عن هذا، ومن يضمن لك أنها في إطار العمل الشريف لن تلتقي بمراهق، يقايضها

المتعة براتب مجز. من صور للمجتمع أن الممرضة غالبا امرأة سيئة السمعة؟ ليس عندي أحكام جاهزة عن هذا العالم، لكننا عنصريون، نؤسس ميولنا ونوازع أنفسنا حِسب أهوائنا المريضة. لِم يسرق الغني.. لِم لا يشبع؟؟

إن كنت أبا ولك ذمة مالية، ألن يرثك ولداك وزوجتك.. فهل من الحكمة أن تسرق أنت وزوجتك وولـداك، ومن حولكم من أقارب.. أي فقر تخشون. لأي جيل قادم تبتغون الغنى والرخاء.. من هو الضامن إنكم ستتركون جيلا يأتي بعدكم؟

......

أحسب أن مصر كلها، أو من كان يشاهد النبي في هذه اللحظة يدرك يقينا من هو الأب الذي سيترك الميراث لولديه اللصوص، اللذان لم يشبعا من مال أبيهم. أزعم أن الوقت كان يسمح، لكن لست أدري لِم قاطع مقدم الحلقة الرجل متعللا برده على اتصال، ومن ثم ننهي الحلقة على وعد بحلقة قادمة وأخيرة نبلور فيها كل الأفكار.

كان المتصل سيدة أظهرت بسؤالها إنها تعرفه، بل وبينهما قصة، ربما لم تكتمل لأسباب لا يعرفها سواه، تسأله عن رأي دعوته في الخيانة، والنكوص بالوعد، والمتاجرة بمشاعر الآخرين. ابتسم مقدم الحلقة ابتسامة فهمها الضيف كونها تؤيد ما ذهبنا إليه، وربما تخفف من حمى ما يقال. حتى ملامحه التي كانت تستقبل الاتصال، بدت وكأنها تؤيد ظنوننا.. قاطعها المذيع، وصلت النقطة، والدور الآن؛ ليجيب ضيفنا..

شعرت من موقعي بعمق التنهيدة التي أطلقتها روحه بعد خروج السيدة من الاتصال، راح في نوبة صمت عابر، يتكلم وكأنه في صحراء ممتدة، أو ساحة محكمة، منحته الفرصة كي يرفع ظلما حاق به في قصة اقتحمت حياته...

ـ في الحقيقة آفة المحب يا سيدتي؛ حين يعتقد أنه مجرد لقاء رجل بامرأة، وينسى أنه التزام أخلاقي، لا، لم أكن طيفا أو خيالا عابرا، بل كنت محبا ومأزوما، أبحث بطول العمر عن حضن يتسع لإحباطي القديم، إن وجدته، فلسوف أمنحه حبا، ربما يفوق حب الأم لوليدها.

أرهقتني المنافي وحطمني غياب الأحبة، استهلكني الجميع، سرقوا عمري، علموني البكاء في ليالي الوحدة الموحشة، كنت أبحث عنها، دون كلل أو ملل، لم يأخذني اليأس رغم كل شيء، لم أهتم بما يثير الرجل الشرقي في المرأة التي يريدها. فالجمال أكبر من ملامح، لست أنا من يبحث عن هذه التفاصيل الزائلة.. عندما شرعت في تأسيس كذبتي، أنتم رأيتموها كذلك، لكنها لم تكن كذبا مدروسا. أردت أن أرى العالم من نافذة الوحدة، أراكم كما يرى «زيوس» في عليائه هذا العالم الأرضي، يدبر أقداره ويتلاعب به، ويصمم الأشياء؛ كي يرى نتائجها على عقلكم المتناه. وقتها لم أكن أبحث عن الحب، وإنما كنت محتاجا أن أرى الصورة وقد تخلصت من قتامها القديم، نفحة من ربيع في صحراء قاحلة، بيت من الشعر يغنيه صوت حسن، يكسر رتابة العويل، صدقا وعدلا، لم أر ذلك كله، وجدت العالم الذي تعودت عليه، كذبٌ ونفاقٌ

وسقوطٌ حادٌ لكل المعاني التي آمنت بها. قتلتموني للمرة التي ما عدت أذكر عددها، ورجعت من رحابكم، اجتر أوجاعي كما هي وزيادة، أقف على شفير نفس القبور التي يقتلني الحنين للقاء أصحابها، لم أمسك في ذيل فستان الدنيا أسأل نفسي ليل نهار، لِم يعش من هم على شاكلتي؟

حسبتها نورا يبدد العتمة، الحضن المستحيل الذي شقيتُ كي أدفن فيه روحي المتعبة، وفي كفيها لمسة أم حانية تهدهد طفلا أرهقته الحياة، قلت: ماذا يضير إن صدمني ظني الحسن، ولم لا تكون هي يد العناية الحانية التي أجزلت عطائها في اختبارات صعبة.. لربما أدركني العطف؛ يهتف بي: غامر، حاول، جدد الثقة في الأيام، ربما هي التي انتظرتها كل هذه السنوات. كنتُ رسالة يقين آمنت أنها تستحقها، وعندما رأيت الحب في عينيها، قلت هي، لا يهم الوقت، ولا العمر الذي سقط من يدي.

قالتِ: من يرد أن يفهمك، فلينظر لعينيك.. فرحت، قابلت المرأة التي لن تجهدني في شرح طويتي، وحين نهضت كي أكمل ما تبقى من عمري معها، أرهقتني التفاصيل.. لِم الخوف والقلق؟ وأنا البريء كطفل لم تلوثه الحضارة، قلت مرارا كمن يُسبِّح على حصى الأرض: أنا لا أخون، أو أخدع أو أطعن، احترم البيوت وقانون الخبز والملح، الحر لا يخون، لِم راح العالم في شرك تكذيبي حتى هي، نصحتها.. الحب والخوف لا يجتمعان، تقتلني هواجس العالم وظنونه السيئة، لم أجابه هذه الأزمة بطول عمري. أين مني؟ هل أحمل مصحفا في يدي؛ كي أصرخ فيها وأقسم أحبكِ.

لم يبق كثيرا من العمر وأنا رجل في بعض الأحيان مفعم بالطمع، أريدها هناك. كم من سنوات سنعيشها معا، سنموت، لكن أريدها حبيبة في الأبدية، سيستحيل شعرها حريرا، هناك، شابة في أوج النضارة.. هناك، تمنيت أن تمنحني فرصة نداء الله أن يأتي بها إلى جنتي. أن أصير خادمها للنهاية، فقط في مقابل حضن عطوف، حسبته نهاية للغربة والتوحد. أي ذنب اقترفت عندما قلتها.. أحبكِ.

لا كرامة في الحب، لا خوف، لكنها وضعت كل شيء في ذمة إحباطها القديم. قلت: أنتِ زوجتي حتى بدون هذه التفاصيل، أريد أن أعيش من أجل أحد يستحق، فكنتِ أنتِ، أريد سعادتكِ ولو كلفتني حياتي، لم أبكِ بدون احتياط إلا في حضورك، ولم أنطق أتعبتني الليالي لأحد سواكِ، فماذا جنيتُ؟ أإلى الأبد أصادف أزمة تصديقي؟ أإلى الأبد أظل متهما وممن ولِم؟؟ إلى هذا الحد يكرهني الله؟ أفتح قلبي لمحبتكم، فاستحق الطعنات. أمد يدي، فيهطل مطر ربي شوكا وحزنا.. من يخن، لا يستحق الحياة. ومن يطعن صدر إنسان يحبه، هو الحقارة لها قدمان. ومن يبع الحب لقاء الزوال، لا يستحق نظرة من خالقه، ومن يكره؛ مطر السماء عليه حرام.

لا أدري كيف مرت كلماته، ونحن على الهواء، كنت مشغولا بأشياء أخرى، غير التركيز في خواتيم الحلقة، تابعت مقدمها وهو يخرج وكأنه قد خرج من عملية جراحية، كانت احتمالات نجاحها في حكم المستحيلة، لم يخطئ الضيف صوت المتصلة، عرفها وانسلخ منا، تجاوز الأستوديو والمذيع والقناة والمشاهدين؛

لكي يتحدث معها هي، دون هذه العيون التي ترصده، بالفعل لم يكن معنا بالكلية، يكتب في جزء من غرفته رسالة إليها على ضوء شمعة يريد أن ينتهي قبل أن تحترق.

لـم يكن هيابا أو يخشى شيئا، لكن لا أدري وأنـا أسـمع هذا الحديث في إعادته، شعرت برغبة تدفعني لأن أبكي هذا الرجل الكبير حقا، لا كرامة في الحب، نصيحة ربما احتجتها يوما.

بعد انتهاء الحلقة كـان النبي يأخذ طريقه خـارجا، مندوب صاحب القناة أراد أن يستوقفه وفشل. مقدم الحلقات حـاول أن يسديه نصيحة لعلها تنفعه، ولـم ينتظر. يركض والشابان خلفه، وأنا بدوري أعرف أنهم سيكونون في انتظاري عند السيارة؛ كي أعيدهم للبيت. كان ضجيج الحركة هو السمت الغالب في هذه اللحظات، لا حديث أو تعليق، الكل تبدو عليه إمارات الإجهاد والتعب.

عند المدخل كان الوجه الوحيد الذي دفعني للشعور بالدهشة وجه «نور الدين»، لم أستطع فهم اللامبالاة التي وجدتها، بينما كان التابعي امتدادا طبيعيا لكل المعاني التي سيطرت على الجميع طيلة لقاء نبيه.

وصلت بهم، هبطوا إلى حيث المدخل، ورحلت باحثا عن صاحبي الذي أزعم إنها واحدة من أصعب لياليه، إن لم تكن أصعبها.

أجريـت اتصـالا، علمت إنـه بالبيت. حبذت أن أصعـد إليه في شـقته. وكما اعتقدت.. كنت أسـتطيع من خـلال ملامحه أن أثبت للرائـي ما هـو الرعب. قصصت عليـه كل ما حدث في كواليسـنا.

ردود أفعال الرجل وخلافاته مع مقدم الحلقات. كان حديثي يعمق لديه ما هو أكبر حتى من الرعب.

باغتني بلهجة اليائس: لقد أدخلنا في الحائط وانتهى كل شيء. ربما من الحكمة أن ننتظر صعودا دراميا، ينهي هذه القصة، أتمناه أكثر لطفا. وإن كنت لا أظن.

(١٨)

لم نكن نحتاج لاستطلاع رأي الناس في الحلقات الأربع التي تم بثها، كل الطرق تؤدي إلى كارثة مُحتملة، لم نستطع هزيمة الرجل، ولم يظهر كما تمنى أكثر الناس خبثا كمجنون يتم المتاجرة به، الاتصالات في ثوب الحمى، الإعلانات والرعاة، آراء الضائعين من الساهرين في ليل القاهرة، تمنحنا بعض الأمل إنه ربما سينتهي كمجنون.

لم أحرص لحظة رغم غواية الرجل أن أحلل منطقه، أسمع فقط، وأعيد ربط ما يقوله، بما أعيشه.. بدت الأفكار وكأنها في ترتيب بركاني، يخرج علينا في صورة حمم من غضب. الصورة التي ظهرت علينا من الحديث المفعم بكل آيات الضيق والضجر بشعة، هناك أزمة، لكن العقل والجنون، الحكمة والسفه، الانضباط والهذيان، ثنائيات اجتمعت في نظام غريب، والنبي يؤسس جريمته الكبرى.

نعم، فلقد وصف «محمد عثمان» ما يحدث بالجريمة التي يسعى الرجل لارتكابها، لهدف لا يعرفه سواه.

هل كنت احتاج استراحة محارب بعد هذا اليوم، أو الرهان على قادم الأيام في أسوأ صورة يمكن للعقل أن يصوغها، الدراما لا تغير جلدها، لكننا نفهم الأمور بقصور واضح.

قبل التورط في مُشكل الحلقة الرابعة، كنا نعرف ونغالط أنفسنا، أن مالك المحطة، قد تم استدعائه إلى مباحث أمن الدولة، فبعد الترحيب بالفكرة، والتشجيع عليها، وتلميع الرجل، وإظهاره كحالة جنون واضحة، بدت الأمور على عكس ما أتفق عليه. وإنذار بحدوث أزمة.. فما يطرحه الضيف بدا مفزعا، لكن إطلالته الأخيرة هي الرعب كله.. لم يستجب أحد في الكنترول، أو تجاسر على قطع الهواء، حتى لو كان الأمن يريد ذلك، كأن الرغبة تعتمل في يقين الجميع أن يقول الرجل كل شيء، قبل أن يحدث ما يعكر الصفوْ، وهذا كان غريبا ولافتا.

من قبل أن نبدأ كنا نراقب ونشعر بهذا الكم من الهواجس، حتى ملامح النبي، كانت تُلمح لشيء ينتظرنا. بعد وصولنا لهذا المطب، وسواء «محمد عثمان» في غيابه، أو أنا، كنا نشعر بذنب كبير حيال الرجل، بينما ظل الشابان على هيئة ثبات لم يستطع أن يغادر القلق والخوف.

ما كان لنا أن ندفن رؤوسنا في الرمال، ولسان حالنا.. كلنا مع هذا الرجل نلعب بالنار، فلقد ظل خارج السيطرة،ساير توجهاتنا الساذجة، لكنه كان يضمر شيئا آخر غير ما سعينا إليه.

حدثتني نفسي في هذه الليلة بأشياء غريبة، ففي عين الرجل موت يعرفه، لا يتكالب على الحياة، ليس له من طموح واضح، لم تأخذه مشاعر الغيرة على نجاحات أحرزها الآخرون في حركة حياتهم، لكنه تألم أشد الألم عندما أخفى صاحبه القديم ولده الذي أنجبه بعد بنتين، كي لا يراه، وهو المتوحد الأعزل.

لقد صدق حين قال: إن العقول تم توزيعها في الليل، فأخذ كل واحد عقله ورضا به، بينما الأرزاق تم توزيعها في النهار، ومن يومها خُلق الحسد، فكل واحد قد رأى ما نال صاحبه.

عندما وقف أمام قبر أمه التي نعتها أمامنا بالعنصرية، والتي عاشت ستين عاما في المدينة واختارت لأن تدفن في الصعيد، لم يكن يلومها على هذا الألف من الكيلومترات التي قطعها؛ كي يقف في هذا المكان، لكنها الأرض التي طابت نفسها للولوج فيها. رغم إيمانه أن روحها في عالم أكثر طهرا. لكن الحديث المؤسف الذي دار بين من ماتت حقا، ومن مات موتا مؤجلا، كان شجيا مؤلما. لم يكفر بأمه، لكنه آمن أنها منحته وصفات فاشلة للحياة، ولم يجد في نفسه شجاعة الانفلات من هذه الوصايا. أو القدرة على اقتراف ضدها، كانت عبئا ثقيلا هذه التعليمات، التي بدا العالم مستغنيا عنها، عملة أهل الكهف، تطاول عليها الزمن، فاستحالت لتذكارات تاريخية، أو تراث الأزمنة الغابرة. هذا الرجل يريد أن يموت، يناطح عالما كافرا لا يكترث كثيرا بالنفوس المرهفة. تشفق عليه، فتجده أكثر إشفاقا منك على نفسك.

لا أدري كيف نمت، وكم لبست في ذاك النوم، وإن كنت أحسب أن الجوع هو الذي أيقظني، لم أكن أملك شهية مفتوحة. كان اليوم طويلا ومجهدا.. تركت أمي الطعام على المائدة، ولم تلح عليَّ أن آكل، مؤكد تشعر بما أنا فيه، غريبة هي، كانت أكثرنا صدقا، ندمت سريعا أن نعتت الرجل مجنونا، صدقته وتعاطفت معه، رأته نموذجا لمأساة أكبر منه. لن أنسَى هذه الكلمات العبقرية التي قالتها ذات ليلة: تدري؟؟ هذا الرجل دموع تتكلم.

وصلني صوتها على البعد، تتحدث عن رغبتها أن يتحول الرجل إلـى ضيف دائم فـي برنامج يخصص له ولآرائـه، ضحكت لعلمي أن مـا يحدث هـذه الأيام لـن يتكرر أبـدا، فالرجل قد دفـع بنا إلى منعطفـات خطرة، ربما فكرنا، ولا سـيما أن «محمد عثمان» ومدير القنـاة كانا يحلمان بديمومة هذا الوضع الاسـتثنائي، الذي يصادف نجاحا بشـأني، لكن لم أفهم سـر انقباضي وخوفي، وخصوصا بعد هـذه الحلقة التي جاءت حديثـا بطعم الطوفـان. أعيدها من خلال مواقع التواصل الاجتماعي؛ كي أقتل ساعات اليوم الذي قررت منذ خروجي من المحطـة أن يكون للراحة. وللراحـة فقط. محاولات أحـاول فيها صيد أي شـيء يغريني، لا بتقييـم الرجل، وإنما حياتي نفسها.

لم يكن هناك رغبة لاستكمال النوم، رغم شعوري بالتعب الذي شمل الجسد كله، عدت لاجترار كواليس الحلقة. كنت أتوقع زيارة من شخص أو جهة أعرف علاقتها بقصتنا. بمرور الوقت بدأ شعور الخـوف في التلاشـي ولو نسـبيا. أفكر في أشـياء كثيـرة؛ النبي في مقدمتها، فتاتـي المارقة جزء منها، قادم أيامي. اسـتهلكني الوقت، وعنـد تباشـير الفجر وصل لي صـوت أمي تتهيأ للصـلاة. اندفعت خارجا من غرفتي، فربما تحتاج شـيئا في هذه السـاعة. كان وجهها مضيئا كالعادة، وإن لم تغادر أرقا وسـهدا لا أعرف سببه. انتهت من صلاتها وعرَّجت عليَّ، وسألتني بنبرة لا يمكن تجاوزها.

ـ ضمائركم مطمئنة حيال مصير الرجل؟

ـ أي مصير؟
ـ السجن أو الموت.
ـ لِم هذا الهاجس يسيطر عليك؟
ـ ألم يسيطر عليك؟
ـ أحيانا.
ـ والآن وبعد الحلقة هذه بالذات؟
ـ أمي.. هذا الرجل لا يكترث.
ـ وأنتم؟
ـ لقد نصحناه مرارا، لكنه لم يلتزم.
ـ يلتزم بِم؟
ـ سياسة القناة.
ـ أي سياسة؟
ـ أمي الرجل ضرب كل شيء.
ـ لكنه لم يظلمكم.. قال الحقيقة.
ـ والحقيقة هكذا دائما.
ـ ربنا يتولاه.
ـ نعم يا أمي اختصيه بخالص دعائك، هو مأزوم فعلا.
ـ لكنه......

ربما لم أفهم سر هذه العبرات التي كست ملامحها، وعينيها وصوتها. بدا التأثر أكبر من تجاوزه، وكأن قلبها يرى مصيرا مؤلما ينتظره، لا نعرفه أو ربما لا نريد أن نتخيله.

عدت إلى حاسوبي أتابع هذه الليلة، لم أكن تحت سطوة الضغط النفسي والعصبي بقادر على مراقبة وجه المذيع بهذه الحيادية، ثمة تناولا جديدا لهذا الأداء، الذي تحوَّل من الحلقة الأولى وصولا إلى هذه الحلقة.

سمعت ممن يعرفونه أنه مثقف جدا، يساري قديم، لم يجد هدفا واضحا للكفاح ضد السلطة فتوائم معها، وفي تلفزيون الدولة، لم يحتمل هذا الكم من النفاق. لم يقم بأي صلح منذ فترة بين الكائن على الأرض وما يؤمن به. عاش تجربة منع وحظر طويلة من شاشات بلده، وقيل إنه عاد بواسطة من زعيم عربي كان يحبه. زوجته لم يكن هو زوجها الأول، كانت متزوجة من صحفي كبير، كان لسان حال السلطة دائما، لذا أخذ فرصا ومناصب أكبر منه، معاصروه لا يعرفون هل كان صاحب مشروع، وتنازل عنه في هذا الطقس الفاسد. أم إنه بلا مشروع من الأساس؟ لم ينجب منها، حدث الطلاق، ثم تزوجت من مذيعنا الذي لم ينجب أيضا. قيل إنه كان يحبها حتى وهي زوجة لهذا الصحفي، وأن وجوده في حياتها كان الإشارة التي عجلت بحدوث هذا الطلاق. لا يمكنني إنتاج حكم قيمة في الرجل، رغم تضارب مستويات أدائه، حتى قبل أن نتفق معه لإدارة هذا الحوار المُشكل، لكنه مع الوقت ربما سقط مثلنا في غواية الضيف، أو ربما أزاح الغبار عن مجموعة أفكار ورؤى، تعطلت لفترة قبل هذه المرحلة، لم يكن من السهل إنكار صمته المريب والمثير حيال أطروحات ضيفه، للدرجة التي دفعت مدير القناة لأن يسأل ذات يأس.. ما جدوى وجوده؟!

يتحرك في اللقاء كوميض كاشف، يدفع الضيف، لا ليهذي هذيانه المثير دون أي تعليق أو إشارة باعتناق آراء ضدية، ربما في الحلقة الأولى كان يسير وفق هوى المحطة الساعية لإنتاج مجنون، لكنه في الحلقات التالية انزوى في ركن من اللقاء، وترك الدنيا كلها للضيف. بيد أن ملامحه هذه الحلقة كانت تشير لسقوط شيء لا يعرف ما هو سواه، يسمع وكأنه ينظر إلى حيث فراغ لا نهائي، يمنحه حقيقته التي فشل في إخفائها سنوات طويلة. وما بين الإشارات والتلميحات بالرضا حيال أطروحات الضيف، والعصبية المبالغ فيها أحيانا، ربما كان المذيع يغامر بوجوده كإعلامي خبير وكبير. لم أستطع الربط وأنا أتحرك في أروقة الأستوديو بين موقف المذيع ومدير القناة الذي دعا الجميع للهدوء، واستكمال الحلقة. فلا أعرف هل كانت انتفاضة الضمير والمهنية التي رفضت في هذه الأثناء ترديد نفس الأكاذيب، ولِم ضاع منا الإحساس بالخوف رغم سيطرته على الجميع؛ كي ننجز الطقس المحرض لأن يقول الرجل كل ما يريده.

عندما اتجهت ببصري للمذيع الكبير لم تبد عليه إمارات الدهشة أو الخوف، ربما أرجعت الأمر إلى خبرته الإعلامية الكبيرة، لكن ما لم أتوقعه إنه ألمح أن الضيف يريد مخلصا أن يُسقط جدار الخوف. لم أشأ مناقشته، ولاسيما أن المفاجأة التي أطلقها مدير القناة ساعتها أن الحلقة ستستمر، بل إن هناك ضرورة لم يسهب في شرحها، تدفعه دفعا لاستكمال الحديث. العناد والمكابرة بدت على وجوه الجميع، لن يستسلموا لأي هواجس تنذر بأن الحلقة قد انتهت عند هذا الحد.

كنا نشعر في اللاوعي، إننا لم نكتفِ بالتجارة بهذا الرجل، وإنما وصلنا لمرحلة المغامرة به، في صراع صادم، لن يكون في مصلحته، فهذه المرة لا يحارب زمنه، وإنما يجابه السلطة ذاتها، وما أدراك ما هي؟!

لم يكن سهلا تفسير هذه المشاعر المتداخلة، ولا أن نفصلها عن بعضها؛ كي نتمم ما شرعنا فيه، الغريب أن الرجل في ذمة هذا الفاصل الطويل بدت عليه الراحة والرضا، راحة لم نصادفها في ملامحه منذ بدأنا، بل ويختلس نظرة يسددها نحوي، تحمل ابتسامة رضا غريبة. لا أدعي عجزي حيال فهمها، لكنها دالة وموحية، إنه على الأقل قد انتصر علينا ولو مرحليا. ربما ضحك..

لا أدري لِم عاد لي شعور التوتر، وأنا أشاهد هذا التسجيل. كنت أمارس إحساسا يشبه الرغبة في الشبع من هذا الرجل الذي بات أقرب لفراقنا، أو ربما فراق الدنيا برمتها. لا أزعم أن فينا من غادره ذاك الإحساس المزعج. المحطة والعمال، الفنيون والمذيع، وربما الشابان وأنا وأمي نفسها كانت تخفي دموعا مشفقة على مصير هذا الرجل الذي ورطناه، فورطنا. أردنا جنونه، فبصَّرنا بأشياء نسيناها أو تناسيناها، في متاهات الضجيج العابث.

دفعني هذا الخوف إلى تنزيل هذه الحلقات على حاسوبي، بل وحفظتها على أسطوانات، أخفيتها في مكان سريٍّ بمكتبتي.

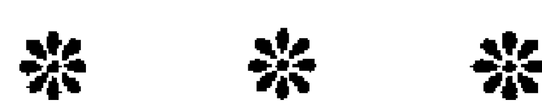
بعد انتصاف الليل بقليل، تلقيت اتصالا من فتاتي المارقة، لا تتحدث إلا عن نجاحي الذي حققته باصطياد هذا الرجل التحفة على حد تعبيرها.. لا أدري لماذا سعيت للقاؤها، أو الإلحاح في

ذلك بحجة مناقشة ما يحدث، كنت متشككا في قبولها للدعوة، لكنها وافقت على أن يكون اللقاء في مكان، أدرك أنها تحبه. طال الاتصال إلى درجة أجهدتني فعلا، وربما شعرت ببعض الغيرة أن الرجل قد سرق كل الكلام، سواء منها أو مني.

لم أشأ أن يأخذني الأمل إنها اتصلت بي خصيصا بعد أن وقفت كثيرا عند الجزء، الذي أسهب فيه النبي عن الحب والكرامة، وإنها ـ ربما ـ تريد مخلصة أن تعيد ما كان، وعلى الضفة الأخرى بدا لي إننا جيل لا يعرف الحب في معناه الحقيقي، الذي تحدث على ضوءه هذا الرجل في انعطافة جدا مهمة. سمعت منه أن الحب التزام أخلاقي، لكن ما حرضني على البكاء فعلا.. أريدك هناك؛ فلم يعد في العمر متسع، يريد أن ينادي الله أن تأتي معه في جنته.. يا ربي!!.. إننا نعبث ولا نحب، تدفعنا أشياء هي أبعد ما تكون عن هذه العاطفة المقدسة.

شعرتُ بالتعب، النهار ممتد ولسوف أنام كثيرا ما لم تِحدث أشياء قد تمنع هذه الرغبة.. ترى أين «محمد عثمان»، وكيف يتعامل هذا السكندري مع تداعيات حلقته المشكلة؟

في هذا المساء سأقابل فتاتي، ترى هل سيسرق منا الجلسة مجددا كما سرق دقائق الاتصال المباغت هذا اليوم، ربما، لكنه دون أن يقصد سيضع خطوطا جديدة لعلاقة ربما استأنفناها غدا، يقينا أحبها ومؤكد هي الأخرى تحبني لكننا نعاني أزمة فهم، تجعلنا نفارق بعضنا دون تفسير مقنع.



لا يمكن الشعور بالربيع في رحاب القاهرة، ولا ألف ربيع يستطيع إزاحة الغبار والدخان، بينما الناس يربطون الفصل عموما بالتوقيت، دون الإشارة من قريب أو بعيد لزهور تتفتح، أو جداول تجري. قمت إلى حيث الموعد الذي ضربناه أنا وفتاتي التي سعت للقاءي، جسدي مازال متعبا، ولم أتناول ما يكفي من النوم؛ كي أستطيع مقاومة الطقس. بحكم العادة ألقيت نظرة على الهاتف، وجدت رسالة من فتاتي تدعوني لعدم النسيان، ورسالة أخرى من معد البرنامج السابق يهنئني بهذا الإنجاز، ولم أجد اتصالا واحدا من الرجل أو الشابين الذين يرافقانه.

تبخر كل شيء كنت حريصا على قوله، لم أجد على عكس أمس ما يدفعني لاجترار الماضي، أو عتاب على أي شيء، اعتملت في نفسي رغبة أن أتركها تتحدث أكثر مني، فقط أعلق على ما تقول، أو أتورط في شرح مسألة، عرضت لنا بطول علاقتنا. أريد تجميد ملامحي؛ كي لا ينكشف أي معنى لعاطفة مازالت باقية نحوها، هي التي أنهت العلاقة، وركضت خلف طموحها، لا غضاضة على أي حال، لكنها سعت لطموحها بدوني، ولم تجعل لي جزءا فيه، من الحكمة أن يمارس المحب انضباطا لمشاعره حيال عاطفة كانت تتأرجح تحت ضغط الظروف، الواقعية مطلوبة في هذه الحالة، لا، لن أضعف أمام ابتسامة عودتني عليها؛ كي تزيل غضبي حيالها، ولا شرود عينيها الباكية في محاولة للاعتذار، لقد نضجت بما فيه الكفاية، ولم أعد هذا الطيف الذي يعيش على هامش الطموح، فأنا أيضا عندي مشروع أريد إنجازه.

لم أكن مبالغا في التهندم أو أضيف شيئا جديدا لهيئتي، ومع ذلك شعرت أمي إني بصدد لقاء أنثوي، وربما في دواخلها تدرك إنني بصدد لقاء فتاتي. التي رأت ذات يوم أن علاقتي بها وما آلت إليه من انفصال، قرار سيؤدي بي إلى حالة انعدام وزن رهيبة، وقد كان، مؤكد كانت مؤمنة بها إلى درجة، وترى في طموحها وحركتها الدائبة ما يبرره. أمي عادة لا تشعر بالرضا حيال ما حققته، ولا تنسجم مع شكل حركتي في الحياة. تراني متوسط الطموح، أو ربما بلا طموح أصلا، هي الظروف على كل حال، فالارتباك جزء لا يتجزأ من تكويني، وكذلك الوطن برمته.. واجهتني بابتسامة عريضة لها معنى، ودعتني للأكل قبل الخروج، فرفضت لضيق الوقت، فاتسعت ابتسامتها أكثر وأكثر، دعت لي بالتوفيق والسداد فيما أنا مقدم عليه. ترى ما هو؟ ذكاء ريفي مخيف، لكنها أمي، الكيان المخلص الوحيد لي في هذا العالم.

عند باب العمارة وجدت اتصالا من فتاتي التي نبهتني إلى أن موعدنا بعد نصف ساعة، فهي الأخرى يداهمها الوقت وتريد أن نتمكن من حوار جامع في هذا الوقت الضيق، أبلغتها إني في الطريق، وتقريبا أرى المكان من السيارة، فقط أبحث عن مكان للانتظار، ومن ثم ستراني أمامها، مع الاقتراب لمحت بعضا منها من زجاج الكافيتريا، أتت ربما قبل الموعد تحسبا للمرور والزحام، لم أجد صعوبة في اصطياد مكان لسيارتي الصغيرة بطبيعتها، دخلت إليها مباشرة. بدت متألقة فعلا، جميلة كعهدي بها، وإن بدا عليها بعض الإجهاد، وقليل من النحافة. ربما فكرت في الاحتفاظ بيدها مدة

أطول عند مصافحتها، لكن خشيت أن انهار وأفسد مخططاتي التي رسمتها بمجرد نزولي من البيت، تحيات متبادلة، وكلام روتيني، هي تنطلق، وأنا أبالغ في التحفظ، دون سبب، ربما ضايقها عدم أخذي لزمام الحديث، تتحدث وأنا في معرض التعليق أو الإجابة، لا تأخذني رغبة البحث عن الأسباب التي أدت إلى القطيعة.. شعرت بثقلي، فسألتها مباشرة عن رأيها في رجلنا الذي أخرجناه من نفقه إلى الناس..

قالت: لا أرى هذا الرجل مجنونا، أو حتى ينتحل حالة تجعل الناس يعتقدون في هذا المعنى، كل شيء عندي مرتبط برسالة يريد بثها. وهذا يرهقني في متابعته. ما هي الرسالة؟ وإذا كان يسعى لضرب النموذج.. فما هو؟ كنت أسأل زميلاتي وأصحابي عنه، ولم أجد إجماعا منهن عليه، مجنون، معتوه، باحث عن الشهرة، أدرك الحقيقة، وخرج علينا كي يهذي.

ـ وماذا ترينه أنتِ؟

ـ أراه كل هؤلاء، وإن كنت مشغولة كما قلت بمضمون الرسالة، هناك معنى، وهذه هي الطريقة التي يجيدها رغم شعوري الشخصي بالقلق، ظل يتصاعد بأفكاره لحد مخيف.

كانت تتحدث مثل صاحبي، وإن كان بدوره قد أزاح مع الوقت مسألة الجنون، لكنهما اتفقا على رسالة يحملها الرجل، وقد استساغ هذه الطريقة في محاولة منه لإيصالها للناس. قلت:

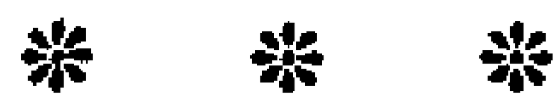
ربما في البدايات كنت أفكر كما يفكر من تعرفينهم، لكن بمجرد لقاء الرجل لأول مرة قبل الاتفاق معه، سقط إلى حد بعيد

إحساسي بجنونه. أشاركك الإيمان إنه يقينا لا يعبث، وهناك رسالة يريد توصيلها للمعنيين بها. في الفترة الأخيرة بدأنا نشعر بالخطر عليه، ولاسيما أن من يتابعون القصة، أناس على اختلاف مشاربهم ونوازعهم أرادوا بسط تصورهم للرجل دون معرفته المعرفة الكافية التي تمكنهم من حسن إدراة جنونه، هنا شعر المقربون منه بالخطر، الجميع تقريبا إلا هو، ومع الوقت بدأ ينتحل حالة من الثقة المدهشة فعلا.

ـ لا تنكر أن ما صنعته كان نجاحا، فرحت إنك استطعت التخلص من بعض المثالية، والتمست الحد الأدنى للتفكير الإيجابي، الذي يمكنك من تحقيق ما تريد. دون تنازلات، كنت واثقة إنك تحبني، وكنت أعرف أن مشاعري نحوك هي حب صادق، ومع ذلك اختلفنا وتفرقت بنا السبل، والغريب وجدتني قوية حيال القطيعة، أريد الاتصال بك وأتراجع بسرعة، والأغرب إنك أيضا كنت قويا، استمرت حياتك، وكأنني لم أدخلها يوما، أليس هذا شيئا يدعو للتفكير في حقيقة مشاعرنا؟

ـ مشكلتنا أن كل واحد منا يريد لأن ينتصر لأفكاره، لا، لم تكن مصادرة مني على طموحك، لكن دخلني الشعور إنك ترينني ضد نجاحك، وهذا ظلم لم أستطع قبوله في لحظة ما من عمر علاقتنا، بل ولم أقف عند هذا المعنى، لكن بدت نظراتك في أيامنا الأخيرة تشي باتهامي إنني سلبي وبلا طموح، وهذا أيضا ظلم كبير، الغريب أن أمي تفكر بطريقتك، وتعتقد في هذا، دون النظر إلى الوضع الذي نعيش فيه.

جلال الثقة التي تحدثت به، أشعرني بشيء من الفشل حيال تقدم ملحوظ في سبيل عودة علاقتنا، ولنهاية الجلسة، ربما لم أكن أسمع، أو أرد على الظاهر بكلمات روتينية لا تقبل التأويل. ركبتْ إلى جواري حتى وصلنا لمقهى (ريش) بدا إنها قد ضربت موعدا مع أناس تنتظرها هناك، ربما دعتني للنزول من منطلق أثبات حالة. لكني تعللت بموعد آخر، ضروري أن أنجزه قبل آخر إطلالة للنبي من خلال شاشتنا.



بمراجعة هاتفي وجدت رسالة من محمد عثمان تدعوني للذهاب رأسا إلى شقة صاحبه، فلقد تلقى اتصالا من التابعي تفيد أن الرجل منذ انتهاء الحلقة الرابعة، تقريبا لم يتحدث مع أحد، ولا يسعى للأكل، أو يلح في طلبه.

وصلت بالفعل، رحت في ظني أنني سأجده في غرفته منعزلا، لكنه كان بالصالة، يجلس مع الجميع وإن بدا مكتئبا، دون سبب يستطيع أن يبثه من معه، أو لصاحبه، الذي غالب امتعاضه وتوجسه من تلميحاته الأخيرة، للدرجة التي دفعته لأن يتخلف عن حضور الحلقة من الأستوديو.

(١٩)

ربما كان للغياب رائحة، والنفوس التي تتعاطى مع أمورها بهذه الشفافية التي لمسناها، تدفعنا للاعتقاد أن هذا الكيان في سبيل معنى لا نعرفه.. بدت الظواهر في طور الوداع لأشياء ندركها، وأخرى طي دنيا مزدحمة بالتفاصيل.. مابين هذا الشعور أو ذاك؛ هناك قصص أخرى تُخلق على هامش الوضع الذي أسست له الحلقة الرابعة، تحديدا.

لم أكن مهيئا لأن تحبسنا الشقة، دعوتهم للخروج، واستجابوا في صدمة لصاحبي؛ الذي ظن أن دعوتي ستقابل بالرفض ولاسيما من الرجل.

ركبنا وعند وسط القاهرة توقفنا بناء على طلب النبي، لا أدري كيف هي رائحة الموت والغياب. محمد عثمان في توجسه، الشابان منقسمان على نفسيهما، التابعي كما عودنا، نور الدين في غموض الكارثة، وضبابية التوجه والمصير، لا نريد أن نسأله، أو نسأل أنفسنا لِم توقفنا. وكالعادة وكأنه يقرأ أفكارنا..

ـ أريد الجلوس إلى النيل، ومن له برنامج آخر غير أن يكون معي، فلينهض لإنجازه، مؤكد الأيام والليالي علمتني كيفية العودة لهذه الشقة، فلا غضاضة إن تركتموني وحدي، وذهبتم إلى حيث تريدون.

لم نشك لحظة في طوية الرجل الذي ربما ضاق بنا وبهذه الحياة والقصة والدعوة والأتباع والمريدين.. صمت آخر وهمهمة تقول: لقد خرجت على النص وانتهى الأمر.

ـ أي نص؟

ـ الأكاذيب الملونة.

ـ تدري لو مُت الآن ماذا سيحدث في العالم؟ من سيشد أزر الغرباء والمتوحدين الذين وجدوا عندي ضالتهم، ما أضعف الإنسان حيال التجربة!!

إننا أضعف حتى من مجرد المتابعة لتفاصيلها المُهينة التي دفعتنا رغما عنا لأن نرى أشياء، ما كان لنا أن نراها، من فيكم سيتبرع بقتلي، أو تسليمي للقاتل؟؟

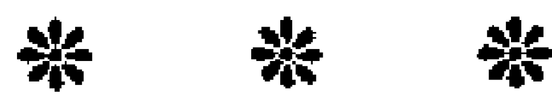
لم تمر كلماته الأخيرة بسلام على أي منّا، شك، ارتياب، إشارة واضحة أن هناك ثمة شيئا في الأفق يراه الرجل، في لحظة سائلة يشعر بها.

ـ من سيسلمك للقاتل أو يقتلك.. لِم تشعر بهذا في ذلك الوقت؟

لم يكن «محمد عثمان» يصوب السؤال وهو ينظر إليه، وربما منذ رأيت هذا الرجل لم أرَ هذا الحزن، زائغ البصر، ينظر لأشياء بعيدة، يتيه في دنياه التي يراها وحده.

ـ عندما شرعت في هذه القصة، كنت أحمل تاريخا من التفاصيل، الماضي كل ثروتي، أحدد أهدافا وأضع إشارات هي الأقرب للحقيقة التي لا يعرفها أحد سواي، لا أعرف معنى الثقة في هذه التخريجات التي قيلت عن الله، لم أستسغ أن يكون الرب

هذا الجبار المشغول هكذا بالدنيا وصراعاتها، اليهود خدعوني، واستحبوا ذاك التصور، ينزل للخيمة، يفرض سطوته على يعقوب، يتصارعان، يهبط الفجر، يريد الرجوع لعليائه. من يقنعني بذلك. لم يأخذني التعاطف أن يموت فوق الصليب؛ كي يقدم الخلاص بهذا الكم من الآلام، ربما طابت نفسي لكونه الرحمن الرحيم.



لـم أسـتطع التخلي عن الخوف، كان الرجل المشـكل بالنسـبة لكل من عرفه على هامش هذه القصة يدرك إننا في ورطة، ظل يمهد لخطـاب، النظـام لا يريد أن يسـمعه، أو للدقة لا يجب أن يسـمعه النـاس، لم يكترث كثيرا بانقلاب السـحر على السـاحر، والحقيقة التـي تنمو بشـكل مضطـرد: فهْم الحقيقـة، وليس مجنونا يؤسـس معتقدا في ظرف استقرت فيه الأديان حتى انتهت تقريبا.

قبل الحلقة الأخيرة كان اللقاء موسعا، حضره الجميع، مع جهة سيادية، وأخرى أمنية رفيعة. كانت الأصوات تدعو لإلغائها، ظل الاحتياط منزعه الخوف من تحويل الرجل لأسطورة حية، ولا سيما أن الأسباب التي يمكن سوقها للتوقف القهري غير حاضرة، وإن حضرت ستفتقر للإقناع.

باستطلاع الآراء النزيهة لأبناء المهنة، أدركنا أن الرجل تتم متابعته بشكل ربما فاق تصوراتنا عندما فكرنا في استضافته. قالها المخرج على استحياء: إن التوقف الآن ليس مفيدا.

مدير القناة قد وضع السم في العسل، حين أشار لمناخ الحرية الذي قد يُضار إذا حجبنا الرجل لأي سبب، وأن استمرار الحلقات على هذا النحو رغم ما فيها من تجاوزات، يظل في صالح حرية التعبير التي يتغنى بها الجميع. بينما ظل رجال الأمن كعادتهم متوجسين أكثر من اللازم، يخشون بالفعل أن يصير الرجل أسطورة، يجتمع حولها من هم أخطر من مجرد مجانين يؤمنون به، إنهم لا يخشون إرهاصات فردية من هذا المزاج، لكنهم يخشون أي مستوى من مستويات التجمع التي تشكل أي ضغط، في أي اتجاه.

ربما كنت موجودا وغير موجود في هذا الاجتماع، كالسابح في غيبوبة، لا يهمني إلا النهاية أيا كانت هي. لذا لم أسمع من يقولها في ختام الجلسة: من الأفضل أن نتبع سياسة انتظر لترى. فالأمور مُسيطر عليها للآن، ويمكن تأسيس دفوع تدفع في اتجاه جنونه وإثباته، بالآلة الإعلامية الجبارة، وعن طريق قنوات منافسة تابعة لنا بالضرورة.

أثناء خروجي من المكان، تحدث إليَّ مقدم الحلقات بصوت هامس يتجه بغضب مكتوم حيال مُلاك القناة الذين مارسوا تحايلا؛ كي يستمر الرجل، وهم يقينا يضمرون بيعه. والأمن لا يريد إجهاض المسألة لمجرد توقع خروجا حادا على النص، أو المستهدف الذي يسعون لإنجازه، لكونهم سيحسنون ترجمة النهايات مهما كانت. لكن الرهان المؤلم الرجل نفسه. يورطونه، لا لكونهم يريدون الخلاص منه، لكنهم مشتاقون لأن يقول الكلام الذي يتوقعونه،

وفي ذات الوقت يلتمسون أثره على طبقة حكم؛ مؤكد تتابع، أو ترفع لها تقارير بما يحدث.

وجدت من الأمانة أن أفكر بصوت مسموع مع النبي نفسه، ما كنت لأسامح نفسي؛ إن ظل الرجل بعيدا عن هذه الأجواء والتوجهات التي تتعامل معه ومع نهايته حيال قصته التي بدأت غريبة، ويُخشى أن تنتهي بكارثة لن تضر سواه.

ذهبت للشقة، ومن حسن الحظ أن وجدته دون أي اختلاف في ملامحه التي تشكلت، وثبت عليها في أيامه الأخيرة. قصصت عليه كيف يفكر هؤلاء الناس، والغريب ظل يضحك لمدة طويلة، ويسعل من فرط الضحك.

لم أكن مندهشا، وهو يمارس ضحكا جاء على ذلك النحو، كنت متأكدا أن هناك سببا يدفعه لهذا. ولم يطلْ انتظاري، عاد لينظر لي ويحدثني عن أشياء بدت وكأنها لا علاقة لها بأي حال بما تحدثت فيه عن مخاوفي، وكيف يفكر المعسكر المناوئ حيال أمره.

ـ لا أظن أن الحلقة الخامسة ستتم، لا تندهش، وكل ما قيل كان الهدف منه أن يصلني عن طريق أي إنسان له علاقة بالقصة وبي، توقعت أن تخبر محمد عثمان، وبدوره يخبرني، لكن ما يؤكد ظنوني، إنهم يدركون ثمة شرخا قد حدث في علاقتنا، وحتى لو كان حاضرا وسمع ما سمعته، ربما ما كان له أن ينسجم بنفس الطريقة التي انسجمت أنت فيها مع ما تم تصديره من مخاوف في ثوب الطمأنينة. لم يعد يهمني ما يفكرون فيه، بقدر ما أنا مهتم بالشخص الذي نجح في تصدير معنى القطيعة الحادثة بيني وبين صاحبي.

كان من الضروري أن يخبرني «محمد عثمان» هذه التطورات، لكن مادام قد انسجموا مع صحوة ضميرك الذي في زعمي لم يمت، فمؤكد أنت الشخص الوحيد الذي لن يطوله الضرر متى حدث في الأمر شيء، وهذا مريح بالنسبة لي..

ـ لم أفهم.!!

ـ مصيري يعرفه واحد من اثنين يعيشون معي، واحد تبرع بإخبارهم بالقطيعة، باعني على وعدين: أن لا تكون نهايتي موتا، ويحصل بدوره على ثمن يليق من أجل انتهاء هذه القصة. لا يوجد في الأمر ثمة مؤامرة أكبر من أن تدخل الآن إلى مواقع التواصل الاجتماعي على اختلافها؛ لتدرك كيف يفكر هؤلاء.. غدا الحلقة الأخيرة، ربما أميل لعدم إذاعتها من الأساس، أو إذاعتها كوداع لرجل مرَّ على دنياكم، يؤسس هذه الأكذوبة عن حرية التعبير والمناخ الحر، وهكذا تهريج. لكن ما لا أظن إنك تدركه أن مواقع التواصل كلها الآن لا يوجد فيها ما يشير لي ولدعوتي ولا لجنوني إذا كنتم مصرين على هذا المعنى.

ـ كيف هذا؟

ـ أدخل وسترى.. كل الصفحات التي تشير لي، لا وجود لها، لا يوجد مقطع فيديو واحد يمكن فتحه ومن ثم الاستماع لي.. أليس هذا غريبا؟

ـ وماذا تنتظر؟

ـ تريدني أن أهرب؟

ـ على الأقل اختفاء أنت بقادر عليه لحين زوال الحمى.

ـ بالعكس، إذا انتهيت نهاية درامية معينة فذلك في صالح ما كنت أتمناه من هذه القصة.

ـ إنك تقامر بنفسك

ـ لا غضاضة. كل ما أريد أن أفهمه ما الذي حصل عليه «نور الدين» كثمن لبيعي؟

ـ نور الدين؟؟!

ـ هل كنت تعتقدني أهذي وأنا أشير ليهوذا الذي لن يكون أحدا سواه؟

ـ والتابعي؟؟

ـ التابعي.. ربما سيجني وحسب أزمة كبيرة من وراء غيابي، ستطارده هذه القصة لآماد بعيدة، لن يؤذوه. ولكنه سيظل محاصرا في الإسكندرية على ما أظن.

ـ ومحمد عثمان؟؟

ـ سأظل في ذاكرته كوميض عابر بحكم العادة، سيحزن مؤكد، لكن وما الفائدة؟

ـ وأنا؟

ـ سيرهقك البحث عني لفترة، وسيستبد بك اليأس وتنسى الموضوع إلى حين.

ـ وأنت؟

ـ أنا.. يقينا لا أعرف، وإن كنت أتمناه موتا.

للمرة الثانية منذ عرفت الرجل، وأنا المتهم دوما بصلابة القلب، والدموع البعيدة، أراني أبكي بعفوية لم أكن أتصورها.. تصوَّر أو

راهن على مصير الجميع إلا نفسه. كان من السهل أن يُسهب في نصائح تدعوني للثبات والصبر حال غيابه المتوقع، لكن بدخول الشابين إلى حيث هو توقف كل شيء، ودعانا للعشاء الذي قام بطهيه قبل أن أصل إليه.

انتهينا من الطعام، ووجدت لديه الرغبة للراحة، الغريب أن أخرج تذكرة لقطار للإسكندرية، منحها لنور الدين متعللا أن غدا هو آخر يوم لهم هنا، وهو بالضرورة لن يبيت ليلته الأخيرة بالقاهرة. والصبح على وشك، فنصحه أن يركب معي سيارتي حتى رمسيس. الغريب لم أجد أي اعتراض من الشاب على ذاك القرار المباغت. والأشد مجلبة للدهشة أن دعاني الرجل للدخول إلى غرفته، وتعلل بمنحي المال الذي سأعطيه نيابة عنه للشاب عند سفره، والغريب كهدية مني، لكنه كان حريصا أن أظل معه حتى يركب، بل وحتى ينطلق القطار نفسه راحلا للإسكندرية. بالفعل نفذت ما طلبه، وإن ظل ما أسهب في شرحه هذه الأمسية معي بطول الطريق، والذي لم يدفعني لحظة لأن أتحدث ليهوذا حتى انطلق القطار!!

هل كنت محتاجا لأن أذهب لمحمد عثمان؟ ربما في سبيل العودة لم أر الطريق، في حيرة لا تعدلها حيرة، وقبل أن أذهب إليه مهما كان الوضع، قررت العروج مجددا على النبي، لم أشأ الاتصال به؛ كي يطمئن لكون ما طلبه قد تحقق. بالفعل بدا الرجل كمن ينتظرني، أثنى على صنيعي، وبهذه الطريقة التي تعني إنني احتاط بشكل جيد لكل التفاصيل. الغريب عندما أخبرته إنني بصدد المرور على صاحبه في بيته، لم أجده مرحبا.. بل دعاني للتريث

إلى الغد، بل من سلامة الطوية أن نبين لمن نظن إنهم يتابعونا الآن، أو يراقبون هواتفنا أن كل شيء في إطاره الطبيعي. فنور الدين رحل على اعتبارنا سننتهي غدا، أو اليوم، فلقد طلع النهار منذ ساعتين، بالمرور على محمد عثمان قد يبدو إننا نخطط لشيء ما، دع الأمور في سياقها المعتاد.. فربما كان دوره اليوم إذا كان مقدرا لنا أن نختم هذه الحلقات كبيرا ومهما، للحيلولة دون حدوث ما هو أكبر من الصدمة. وإن شئت النصيحة أخرج من هنا على بيتك، وحاول أن تنام؛ كي تكون مستعدا للشوط الأخير.

لا أدري كيف نمت، بعد هذه التفاصيل القلقة، لكن ما لم أكن أتوقعه ذلك الاتصال الذي جاء من مدير المحطة يدعوني للتركيز، فلقد مرَّت كل الأمور بشكل منضبط نسبيا، واليوم هي آخر إطلالة للرجل على الناس. إذن فالحلقة الأخيرة لم تلغَ.. كنت أفكر قبل الانسلال للنوم في هذه الخطوة، وقيمتها رغم إصرار الجميع على الإلغاء. حتى في ظنون الرجل نفسه.

ذهبت لكون المسألة كمينا يُحاك للنبي، ومؤكد قد علموا بأي وسيلة أن رجلهم قد سافر للإسكندرية، مما قد يغري أن أمره قد تم اكتشافه من قبل الرجل. واليوم على امتداده بدون الحلقة ربما سيعطي الفرصة لأي إجراء من شأنه وقايته من أي محاولة ساعية لإلحاق الضرر به. في الليل ربما قد تكون الأمور أكثر يسرا من النهار. أو لربما سيتم الانتهاء منه بمجرد خروجه من الأستوديو.. في خطوة تأتي بالتوازي مع مسألة محو كل صفحات، أو مقاطع فيديو تشير له ولدعوته التي كان ينجتها لمتابعيه.

كنت أفكر في طريقة تساعدنا لعمل ما من شأنه تعطيل أي رغبة تسعى لإيذائه، لكن لست أدري ما هي؟

وطالما كانت النية معقودة على أن يظهر في آخر حلقة، وتوفر العلم لديهم برحيل جاسوسهم عليه، فالرجل على الراجح، ربما يفكر في إجراء استباقي يمنعهم الوصول إليه. وإن حدث هذا فمن المؤكد أنه مراقب بالكلية، حتى لو فكر أن ينسحب سرا من المسألة، تبتلعه القاهرة الكبيرة في محاولة منه للهروب من أي مصير غير معروف.

لم أجد صعوبة أن يتم الاتصال به من أي إنسان له علاقة بهذه القصة؛ ليخبره أن الحلقة الأخيرة لن تُلغى، ومؤكد أن الرجل لن يبدو جبانا بأي حال، ففي ضميره تكمن فكرة، هو حريص على الإخلاص لها للنهاية. لم أستهلك ساعات طويلة؛ كي أتأكد من هذا المعنى، فبمجرد ظهور الرجل في الأستوديو؛ لإنجاز ظهوره الأخير، كنت أومن إنه يدرك كل شيء، وينفذ ما يراه مفيدا له، حتى آخر رمق.

(٢٠)

على غير المتوقع، ربما كان مُقدم الحلقات قد هيأ له ذكاءه أن يعطي الحلقة للاتصالات، كي تحدد الناس الجهة التي سيتحدث فيها الرجل دون التورط، أو توريطه على الأقل فيما سبق وأن طرحه من أفكار ضدية لكل زمنه، ولاسيما في الحلقة السابقة.

على أثر الاتصال الأول الذي يثمن أجواء الحرية التي تسمح له لأن يقول ما قاله. ضحك الرجل بخبث.

ـ إن الفصام هو الذي كان يتصل منذ لحظات، حرية أن تصرخ، ولا يسمعك أحد، وما جدوى الصراخ، إذا لم يهب أحدٌ لنجدتك، وإزالة الأسباب، دجالون الذين يتحدثون هذه اللغة. الحرية؟

لا يوجد إنسان حر في هذه البلد غيري، انتحلت الجنون برغبتي، رغم يقيني الذي لا يهتز إنني حكيم هذا الزمن الوحيد. لم أكتب حرفا كي أخدع الناس، ولم أعبر فوق جثث العباد؛ كي أنجز طموحا رخيصا، الحرية أن تكون مخلصا لقضية ما، تعيش لها وتموت من أجلها، دون النظر لأشواك الطريق. كنت حرا والناس أحرارا، عندما دعوتهم للانبطاح على الأرض، يلمسونها بآذانهم؛ كي يسمعوا أنينها وصراخها، فلقد ضاقت بنا وبقذارتنا، قالوا وقتها مجنون، يتبعه مجانين، فلا توجد شعيرة تريد أن تسمع الأرض، لأنها لا تقول شيئا.. ومن يدريك أنها خرساء، ومن صنعها يقول أنها تسبح باسمه.

لماذا تنفرد وحدك بآلة تمكنك من الكلام والصراخ، هي تتكلم وتأن وتصرخ، لأنها تحترم ذاتها، الأرض حرة، ونحن عبيد وأقزام.

قالوا: شعائر هذيانية. لا، لم تكن كذلك، لكنها الانصياع للوجد الذي يريد أن يطهرنا، ويعيدنا أحرارا كما كنا.

باغته المذيع في نفاق مكشوف، مؤكد لم يكن يعبر عن قناعة، بقدر ما يوفر سبل الخروج الآمن للرجل من هذه القصة بأقل خسائر ممكنة.. أن الدولة بكل أجهزتها لم تألُ جهدا في صياغة حياة ترضي العوام. ولم يجد النبي في معرض تعليقاته غير الضحك الذي بدا يائسا، ومهموما.. ربما بمرحلة ما بعد، وليس كل ما يقال الآن. فالرجل رغم مرارة ما يقوله، لكن إيقاع اللغة والأنفاس، وحركة عينيه بدت سابحة في دنيا أخرى غير ما نتابعه هنا. لكنه عاد:

ـ لا توجد مكرمة لأحد مهما كان حجمه، يحمِّل هذا البلد جميلا أو معروفا، استحق سداده، لا فضل ولا منَّة، لكننا لا نتحرى الحياء، ولا الذين مرّوا على هذا الوطن يمتلكون شجاعة الانسحاب، متى لمسوا فشلهم.

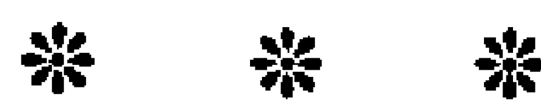
إن الذين يتصدون لإدارة حياتنا لا يفهمون شيئا، يؤسسون للسلطة على رقاب الناس، طواغيت تُعبد، فلا عدل ولا حكم ولا أي شيء، فصام سرمدي، لا يهبطون للشوارع؛ كي لا تصدمهم الحقيقة، والبؤس الذي يمشي في الطرقات، المرض الذي نخر كل شيء، مراكز الخصوبة والحقن المجهري، لا يوجد رجل قادر على الإنجاب.. هشاشة في هشاشة، الشوارع تتجاور لإنتاج دراما

بائسة، الثراء الفاحش إلى جوار الفقر الذي لا يمكن للغة أن تنجح في توصيفه، الأزمة تحيط بنا، وصحف الأفيون الموالسة مع الملهم والأوحد تتحدث عن بلد آخر لا نعرفه، الفقراء يدخلون الجنة فقط، إذا أحسنوا الصبر على ابتلاءات الدنيا، وإن مرضوا، يموتوا، فلا علاج لهم.

الفقراء يشوهون الصورة ويقدمون الشهداء في الملاحم كي يعيش الجبناء في قصورهم المنيفة، وحولهم ما تبقى من العبيد خدما وجواري.

أي عدل يحكم العالم، القمح يلقى في المحيط؛ كي يظل الجائعون في جوعهم، ومصانع السلاح لا تهدئ، مستمرة في إنتاج الدمار.

الفقراء ملعونون، أبنائهم لا يتزوجون من الفتيات اللائي أحببنهن، كلاب وذئاب، ورثوا الأرض والشجر والدواب والعباد. القهر والحزن، البكاء والموت المجاني مفردات نتنفسها، ولقاء عين بها قبس من رحمة سراب أبدي، أدفع لتحصل على الحياة، أدفع لتحصل على جثة أبيك قبل أن تدخل لمتاهات التشريح، أدفع لتحصل على رغيف ملطخ بالعذاب، الموت لك إن لم تكن قادرا على المسايرة أو الانسحاق، أقتل أحلامك قبل أن توردك المهالك. عن أي جحيم تسألني؟؟



لم يشأ الرجل أن يتخلى عن شجاعته لحظة، جعل كل خروج لفاصل كمحاولة للهروب من مطبات صعبة، نخرج دون أن نسمع تعليقا واحدا في كواليس الأستوديو.. لكنه كان مرهقا، يتصبب عرقا، أنفاسه تتلاحق بشكل مخيف، هكذا عرفناه عندما يدخل لهذه الأمور، يلهث، ويكتئب، وصوته يبدأ في الارتفاع حتى يكاد أن يكون صراخا، كوب من الماء جاء إليه، سيجارة أشعلها بجوار نافذة في رواق، ولا أدري سر السعادة التي كانت ترتسم على وجوه الجميع في هذه اللحظة، والاتصالات بدورها لم تنقطع دقيقة. والمذيع اللامع نفسه ما عاد ليراهن على غير هذه اللغة.. يهمهم بكلمات لم أتبين منها غير.. مستحيل هذا الرجل المجنون.

بطبيعة الحال كنا نودعه، لم نفقد حماسنا رغم كل التوتر، لمس كل شيء بعنف ووضوح صادم.

فكرت مجددا كي انفلت من مغبة القلق عليه في استقراء شكل المتابعة لهذه الحلقة، كانت النسبة صادمة، اتصلت بمجموعة أصدقاء تنطلق بسرعة للمقاهي والشوارع؛ كي ترى آثار آخر إطلالة وكانت النتيجة تتحرك بحكم العادة.

اندفع أثناء الفاصل بعض الشباب من الصحفيين الذين استغلوا علاقتهم ببعض الموظفين؛ كي يحضروا لكواليس الحلقة، رجل تبدو عليه ملامح أمنية، التابعي على البعد لم يعد مشغولا بغير الخروج من هذا المكان ونهائيا. «محمد عثمان» شارد الذهن وغائب تقريبا، يفكر في شيء ما، وأنا بدوري ما بين الخوف والأمل.

عدنا وعادت البراكين الخامدة في إطلاق حممها، جاءه

الاتصال المشكل.. هل دعوته التي قام بنحتها ذات مغذى سياسي. كنت أشعر بيقظة مباغتة بعد نوم طويل، ورغم يقيني بجدية السؤال أصلا. وجدت على محياه ابتسامة لم ألحظ إنها عريضة. وتشي بسخرية قاتلة.

ـ الدين قد يسوس، والسياسة لا دين لها، فما علاقة الدين بمهارة إجبار الحصان المفعم بالكبرياء أن ينصاع للركوب والدخول إلى غمار الحرب والقتل والدماء، إن الذي نحت مسمى »سايس« لمن يروض هذا الحصان، لم يكن يشير من قريب أو بعيد لأي دين، بينما الإشفاق على هذا الحيوان الأصم هو الدين كله. السياسة بلا رحمة، لا علاقة لها بالدين، حتى لو كان أرضيا. الدين يهذب الأخلاق ولا ينشأها، عندما لمسنا فسادنا لم نخترع الدين، وعندما استبد بنا الطمع، لم نقم للصلاة؛ كي نكف عن هذا.. رغم جدارة ذلك لأن يحدث، لكننا اخترعنا القانون، وليس الدين، فالدين لا يخترع، إنما القانون يخلق كإشارة إننا مجموعة من الحمقى والمغفلين، لم نحترم بعضنا طواعية، فابتكرنا ما يدفعنا لهذا الاحترام قهرا، ويعاقبنا على تجاوزه متى حدث. ولأن نوازع الخسة كامنة فينا، لم نثق فيمن ينفذون القانون، ويتحدثون باسمه، فجاءنا من بعيد أحمق آخر يتحدث إلينا بقوة الدستور، كي يقف كسيف ودرع ضد من يتاجر بالقانون ويدهسه بحذائه. الغريب، الناس يعتقدون أن بهذا الدستور تنتهي آلام القانون المزمنة. التي تجعل من بعض المغفلين يدهسون المغفلين الأكثر ضعفا، لكن الآفة أن ذاك الدستور قد وقع في يد الممثل الوحيد للطاغوت، الرجل الذي أراد تحت سطوة

السفه أن يصير إلها، لا يخضع لأي قانون، يسأل دون أن يُسئل، إن أزمة الظالم الكبرى إنه يحاكي إلها لا يعرف ألا العدل، وهنا العته كله، الظلم آية الضعيف، القوي لا يظلم أبدا، المحيط بكل شيء لا يتورط في مظلمة، لكنها شهوة، تشبه شهوة المال والنساء، لا تدري أي لذة تلك التي تعتري الظالم وتملأ غرور نفسه، يوم يسمع صراخي من العدل المفقود. فلنعترف إننا نحاكي الله، نصارعه ملكه، في قمة آيات البؤس. كيف يتجاسر هؤلاء الذين يجثمون على رقاب العباد أن يصارعوا الله في مملكته.

لو إنني صديقك، وزرتك في بيتك، وكان عندك طفل ـ عفوا ـ لا تنقصه الرذالة، ضقت به، فصفعته صفعة أحدثت رنينا كريها، كيف ترى ما فعلت؟

ستتألم وتحزن، وإذا أخذك بعض الأدب، ستسدي عتابك في ثوب نصيحة أن هذا لا يجوز، لا تؤدب أبني مادمت حيا.

أنا أبوه وأنا أولى به.. تعال نخرج إلى البيت الكبير.. ألسنا عيال الله؟ فلِم نتجاسر على تأديب بعضا من عياله بمثل هذه القسوة والوحشية؟

لِم نتجاوز صاحب البيت؟ أليس هو الأجدر بتربية عياله؟ أتقتل رجلا كان في علم خالقه سيموت الآن، فتتحول بقوة الحقد والكراهية إلى قابض أرواح. أتسرق رزقك الأرضي، وتتجاوز الذي في السماء. لا دين يستطيع تأسيس هذه المزبلة، بيد أن الأخلاق التي بلورها الدين قد تسوس الناس إلى أمر يرونه مفيدا.

على هامش غربتي التقيت مواطنا عربيا من شمال أفريقيا، أراد

أن يتعرف عليَّ بطريقة مهينة جدا، كنت أشاهد فيلما من مخدرات هوليود، سألني.. هل تفهم الفيلم؟ قلت: أحاول. وإمعانا في رد الإهانة، طلبت من عامل المقهى أن يرفع الصوت؛ لأني لا أرى الترجمة من مكاني. انتهيت وقمت راحلا، دون أن أعير الرجل أي اهتمام.

في الأمسية التالية وجدت الرجل كمن ينتظرني، وقد تحوَّل إلى كتلة من الاعتذار، ربما أشفقت عليه وعلى الشيب الذي بدا واضحا في مفرقه. طلبت له فنجان قهوة، ولا أدري لِم ارتاح لي، كي يحكي مأساة بكل ما تحمل الكلمة من معنى. فلا يستطيع العودة لبلده، ولا يقدر على تجديد جواز سفره، وكل أبناء جلدته ممنوعون من السكن معه، أو الجلوس إليه. وقتها كنت أربح المال من الهواء، احترف التزييف، وعدته بالمساعدة، خمسة دنانير كمصروف شخصي سواء يعمل أو لا، وطلبات أربعة سأحاسب عليها المقهى، وأعطيته رقم هاتف بمجرد أن يتصل بي عليه سأترك له إيجار غرفته، فلم يكن سهلا أن أسكن مع أحد أنا المعتاد على الوحدة. أبلغته أن وعدي له مستمر مادمت حيا، لكن إذا مِتُّ، أو رحلت لأي جهة، فليغفر لي كوني تخليت.

لم ينطق الرجل ببنت شفة، بل راح في نوبة بكاء شديدة، تألمت لها فعلا، حتى كدت أن أبكي معه. لم أكن محتاجا وقتها لسؤاله عن أسباب مأساته، والتي بدت سياسية بوضوح صادم. هل صدقني الرجل؟ ربما تمنى أن يصدقني، لكن ولأني بشر فتوجسه حيالي مبرر فعلا. تدري؟ لو كنت إلها لصدقني، وهذا محال.

رغم أن هذا الوعد نفذته بحذافيره حتى يوم غادرت فيه هذه الأرض، لكن من يستطيع تحت أي وازع أن يحرم الرجل تراب بلده؟ ماذا يصنع هؤلاء المساكين من أمور تجعل الطاغية يفكر حيالهم بهذه الطريقة؟ إنه ضعيف وجبان وأرعن مفرط الرعونة، فكيف ترى ظالما بهذا الكم من الهشاشة والضعف؟ سلطوي شبق، يدشن الدنيا لحصار أبناء جلدته في منافي لا قلب لها.

يا سيدي! الدين قد تعطَّل في محطة السلطة، التي لا تريد سوى أن تكون مفوضة من قبل الله، ويحكم بعكس ما يريد في نهاية المطاف، لا تورطوا الله في هذا العبث، فلقد عشت ثلاثين عاما دون أن أفكر لحظة أن أختلس النظر كي أرى أصابع عمي التي تجردت من أظافرها في معتقلات الآلهة المزيفين.

إنني أضحك في السر عندما أشاهد هذه الهرطقات التي تنظر لي ولدعوتي وكأنها دين على الدين، وأتباعي الذين يريدونني نبيا لهذا الزمان، ضحايا هذا العالم المحترق. المسلمون والنصارى سيحترقان، لأن اليهود مختارون، واليهود والمسلمون سيحترقان، لأن المسيح قد خلَّص شعبه، والنصارى واليهود سيحترقان لأن»محمد قد جاء ليصير الدين واحدا، ولا عزاء للمارقين. فهل من خلاص؟ ولن يفلت من هذا الجحيم إلا من صممه. من زرع فينا هذه الكوميديا السوداء، وأراد رسم الرب العطوف بريشته القاصرة، وهو أعظم من كل تصور.

* * *

لم أسع إلى استكمال تركيزي حيال حديث الرجل، خارت قوتي، ضاعت تفاصيل كثيرة، كنت أريد تأسيس فكرة قد تأتي على هامش هذا الموقف الذي عشنا فيه، بتفاصيله المربكة والمعقدة، لكن، لا أدعي النجابة إذا قلت إنه لا يتبنى موقفاً لرجل مارق، هناك أزمة فهمْ قد حدثت، وخصوصا أن المتزمتين الكثيرين الذين نعرفهم عندما كنا نجالسهم لأخذ رأيهم في المسألة، لم يبدوا ملاحظات حادة وضدية إزاء ما يشاهدونه ويسمعونه، عن الدعوة التي بثها الرجل من بدروم بالإسكندرية. إنه مؤمن ولاشك، مسلم حقيقي، فكيف يتبنى أطروحة، تفسيرها الجنون، والانفلات، واللادين؟؟

إن الخطأ الكبير الذي تورطنا فيه، أننا حاولنا فهمه بطريقتنا، وليس بطريقته، وربما ذلك الذي يفسر لي اختلافنا معه، دون التورط في إنكاره، مؤكد المذيع الكبير قد فهم ذلك، فراح في صمته، ومالك القناة ومديرها أدركا ذلك، فتركا له المسافة الكافية لأن يقول ما لم يستطع أحد قوله في ظروف أخرى.

كلنا تخلينا عن أفكارِنا لحسابه، أجحده في سري، ولم أستطع مجابهته. شباب العاملين في القناة حسبوه ظاهرة غريبة اقتحمت ركودنا، لا يمكن إنكار أثر الرجل الذي أردناه بلياتشو، فسخر منّا بقسوة فاضحة.

كان الجزء الأخير من الحلقة على وشك أن يبدأ، والغريب لم يهتم كثيرا في هذا الجزء بالانضباط في جلسته، ربما بدا لي كأنه يجلس في ذاك البدروم، لا يكترث، لكن بدا كمن يحبس دموعه؛

كي لا تنفجر في وجوهنا. عاد إلى حالة هدوء بدا استثنائيا، يستمع للاتصالات التي تهطل على القناة، يرد ردودا مقتضبة، أو لا يعلق أصلا.

حين طلب منه أن يقول كلمة أخيرة ينهي بها هذه الحلقات أو المعاناة التي طالت الجميع، وجدته يشرد طويلا حسبته سيسهب، لكنه قال بصوت متهدج:

ـ ربما لست محتاجا لأن أنفي عن نفسي ما أردتم صياغته من خلالي، هذا المجنون المُهمش الذي جاء من النسيان، لكن حسبي أن غواية الشيطان لأبي، كانت تنزع لتحفيزه على الخلود المستحيل.. ربما أطمع في بعض الذكر، وأنا قابع في قبري، فلتسمه خلودا، لكني لا أريد لأي إنسان شاهدني أن يتورط في نعتي مجنونا. فالجنون قد يبدو لي مكافأة لم أحصل عليها في إجحاف كبير مازلت أتعرض له منذ قذفتني أمي لهذه الحياة.

انتهت الحلقة، وقام مقدمها لتحيته وعناقه، الغريب؛ كان عناقا باكيا من الطرفين. وفي إيماءة سريعة منه للتابعي انصرف الشاب يسبقه إلى حيث السيارة التي تنتظره لتوصيله إلى حيث نقطة، يستطيع منها الرحيل للإسكندرية التي اشتاق لها كثيرا على الراجح.

لم أفهم سر ارتباط نظراته بمحمد عثمان ساعتها، وكأن هناك ثمة اتفاقا على شيء لم أستطع تحديده. من الوضع متحركا تناول مظروفا من مدير القناة، والغريب لم يودعه ولو بإشارة. في الرواق كنا نشعر بعظيم الخطر، الرجل الذي كان حاضرا ذلك الجدل في الحلقة السابقة، والذي لم نكن نجهل حقيقته يومها، وآخر تبدو عليه سمات لا تخلو من غلظة وقسوة.

(٢١)

في إيقاع متسارع قرر محمد عثمان أن استقل السيارة بدون النبي، فقط التابعي وشابان من العاملين معنا. قبل هذا الطلب الذي جاء في صورة إيماءة سريعة عابرة، كان الزحام كبيرا عند المدخل، فلم أستطع في البداية تحديد مكان صاحبي والنبي معا، حتى ظهر الأول دون الثاني طالبا مني أن أتحرك وبسرعة من هذا المكان.

التفاصيل التي لم تقع تحت مشاهدتي، أن صاحبي قد اصطحب الرجل إلى منطقة الهرم، بعد مناورات عديدة كانت تلتمس الهروب، بعد أن شعر برغبة ما تسعى للقبض عليه. مع تنامي هذه الهواجس، لم يفكر أن نعود به للشقة، أو أن نكون تحت طائلة مراقبة صريحة كنا نشعر بوجودها، في آخر إطلالة.. هنا تبخرت الرغبة في العودة به للبيت، أو عند محمد عثمان نفسه، أو الجلوس معه بحكم العادة في أي مكان قاهري تطيب نفسه للجلوس فيه.

جلست أنا والتابعي ننتظر أيا منهما يأتي أولا، ولم يأت أحد، لم نتلق اتصالا، ولم نستطع الوصول لهواتفهم المغلقة. المثير الذي لمسته حينها أن التابعي كان مثلي تماما، تبدو عليه علامات خوف وترقب، لكنه لم يكن قلقا على مصير الرجل، وكأن فكرة الهروب به من هنا، كانت حاضرة وجاهزة في عقل واحد منهما. عند سماعنا لباب الشقة وهو يُفتح اعتقدنا برجوعهما، لكن ما أدهشنا فعلا دخول الرجلين الذين كانا معنا في الأستوديو هذه الأمسية.

ربما لم أستغرب وجود مفتاح للشقة أصلا في حيازتهما، لكن الطريقة التي يسألان بها عن الرجل وصاحبه كانت مستفزة فعلا، بدا أنهما قد ظلا خلف سيارتي حتى دخلنا إلى العمارة، ولما انصرف الشابان ربما استبد بهما الشك أننا قد نجحنا أو نكاد في إخفاءه.

كنا على صوت واحد وإجابة واحدة: لم يرجعا، مازلنا ننتظر عودتهما. جلسا معنا إلى الصبح تقريبا. التابعي انهار ونام في كرسيه، وأنا بدوري كنت أدخن كثيرا وتعللت برغبتي في النوم، وخرجت من الشقة في خطأ لم أستطع تحديد مقداره إلا بعد هذه الليلة.

وصلت للبيت فالتقيت بأول مفاجأة، أمي تمد يدها بورقة مطوية، لم أخطئ الخط، محمد عثمان.. يطمئنني أنه والنبي في طريقهما للإسكندرية. في هذه اللحظة شعرت بحجم المسئولية التي أحملها على كتفي، حاولت الاتصال بالتابعي، وخشيت للمرة التي ما عدت أذكر عددها أن تكون هواتفنا تحت المراقبة، كنت أتمنى في سري أن يستبد اليأس بالرجلين الأمنيين، ويتركا الشاب المسكين وحيدا. فهبطت إلى الشارع مجددا ووصلت للشقة. وكإثبات حالة، ضغطت الجرس والمفتاح في يدي، اندفعت للداخل ولم أجد أحدا؛ لا التابعي ولا الرجلين.

لم يكن من السهل الركون لأي عنصر يمنحني الأمان وخصوصا أن بقاء ملابس النبي قد يبدو منطقيا، فالهروب به من هنا أولى من أن نجد من هو حريص على جمع ملابسه من الشقة. لكن ملابس التابعي التي ظلت مع علمه أن علاقته بالمكان قد انتهت كان

مقلقا فعلا. ومع رجلين بهذه الصفة أدركت أن هناك مأساة ربما تنتظر هذا الشاب الطيب. طُعنت بإحساس صعب لم أجد السبيل الذي يمنحني تأمين الشاب المسكين الذي تركته في غفلة لم أكن أقصدها.

ثلاثة أيام لا أدري كيف مرَّت، أجري اتصالات مع السراب، فلا صاحبي، ولا النبي ولا التابعي يردون على اتصالاتي المتكررة.

هداني تفكيري للرحيل للإسكندرية وإمعانا في التمويه وصلت لها عن طريق دمياط، مرورا بالمنصورة. ورأسا إلى البدروم أسأل عن الرجل.. الغريب اجمع الناس على تغيبه منذ ما يزيد على الشهر.. نفس المدة تقريبا التي قضاها معنا في القاهرة. لا يوجد من رآه صدفة في هذه المدَّة، ولا حتى على ظلال زيارته الخاطفة التي أعقبت الحلقة الثالثة.

كان من السهل عندي أن أسأل عن التابعي أو نور الدين، وصادفت إجماعا آخر أنهما مختفيان منذ نفس المدة، وإن كان نور الدين قد ظهر في هذه الأنحاء فجأة، بعد اختفاء، ولكنه لم يظهر مجددا. تحسست عنوان التابعي، وذهبت سريعا إليه، ولم أجد سوى والدته تعاني قلقا كبيرا كونها تتصل، ولا تجد من إجابة. بينما الآخر قد اختفى دون ما يدعو للقلق من صوت وملامح والديه الذين رأيتهما شبه مطمئنين لمصير أبنهما.

شعرت أن البقاء في الإسكندرية محض عبث، فعدت للقاهرة دون أي محاولة مني لتضليل ما أشعر به من هواجس. بمجرد الخروج لميدان رمسيس، حاولت الاتصال بمقدم الحلقات وطلبت رؤيته.

ولأنه قريب من ميدان التحرير، ركبت المترو والتقينا في «جروبي» وقصصت عليه تفاصيل الساعات التي أعقبت خروج الرجل من الأستوديو لآخر مرة. لا أدري. كنت على ثقة لا أعرف سببها أن الرجل يمتلك علاقات واسعة ومؤثرة قد تفيدنا في عملية البحث عن النبي وصاحبي والتابعي. وعدني بالمساعدة، وطلب منحه فرصة يوم أو يومان، يتحسس أين هم الآن.

لا أدَّعي أن ما كنت احتاجه هاهنا النوم، بل الراحة بعد ذلك التعب العقلي والبدني الذي أرهقني فعلا، صافحت أمي وقبلتها، وركضت إلى الفراش دون أن أحاول صنع شيء أكبر من النوم.. لكن هذه الرغبة لم تكن متاحة أيضا، فلقد وجدت اتصالا من رقم غريب يتحدث دون أي مقدمات: أنا في البيت. ثم انتهت المكالمة.

لا أستطيع أن أخطئ هذا الصوت، نزلت على عجل إلى شقة محمد عثمان، ومباشرة دخلت، وأنا أنظر إليه وأسأل في إلحاح مُر.. أين النبي؟

ألتمس مني أن أتركه لدقائق لأنه مُتعب جدا، بالفعل كانت ملامحه تعطي إشارات لما هو أكبر من التعب، إجهاد يقترب من كونه إعياءا.

بعد صمت قال: يقينا لا أعرف أين هو؟

لقد رحلنا للإسكندرية منذ يومين لأننا بقينا هنا ليومين بعد الحلقة الأخيرة عند صديق لي في منطقة الهرم. ولست أدري لِم طلب مني أن نرحل، رغم أنه كان في أمان كامل، لكنه لم يستطع الصبر، كان قلقا على التابعي، بأكبر من قلقه على نفسه.

بعد صراع طويل وجدل، وافق على أن أرحل معه للإسكندرية؛ لأنه كان يريد الرحيل منفردا، تحركت وأنا يقينا أقصد تأمينه في مكان يختاره بنفسه، وبعد تفكير اختار أن تكون الجهة التي يريدها بيت شقيقته في منطقة ميامي.. للمرة الثانية نشأ جدل حاد فيما بيننا، هل نستقل القطار، أم سيارة أجرة، أو نؤجر سيارة، ونرحل بها، ومن ثم أعود بها إلى القاهرة بعد أن أكون على ثقة إنه في أمان. لكنه اختار القطار، ولعلة الاختباء في الناس.

ركبنا إلى الإسكندرية، لم تكن له شهية أن يأكل رغم يقيني إنه لم يأكل في هذين اليومين ما يساعده على الوقوف، فقط يدخن كالعادة، ويحتفظ بزجاجة مياه في كيس يضعه تحت قدميه. منذ خرجنا لم أسمع منه شيئا، سوى الحرص على الأوراق التي أودعها في أمانتي، وأن لا أهتم كثيرا بالبحث عنه، وخصوصا في قادم الأيام. نصيحتان ظلا يكررهما حتى توقفنا في بنها. لا أدري أي حظوظ أو أقدار تلك التي دفعتني أن ألج للمحطة؛ كي آتي له بشيء غير الماء، مجموعة من العصائر تمنحه بعضا من طاقة في هذا الطقس البارد. لم أغب غير دقائق معدودات وعدت فكانت المفاجئة إنه غير موجود في مكانه الذي تركته عليه. لربما هنا أوهناك، أو في دورة المياه. وفي نظرة بانورامية للمحطة لم أجد طيفه. لم أستطع تحديد أي شيء يمكنني عمله في هذه اللحظة، هل أكمل للإسكندرية وأبحث عنه، أو أترك القطار، وأعود للقاهرة. وأنا أجر خلفي وأمامي كل حيرة من الممكن أن تهبط على إنسان.

اخترت في نهاية الأمر أن أعود مجددا للقاهرة، أمكث في

البيت، دون الإشارة لأي كان بمكاني، أو الرد على هاتفي. رغم حرصي وأملي أن أتركه مفتوحا، فربما سعى الرجل لأن يتصل بي ليخبرني ماذا حدث، وأين هو الآن. لكن حتى هذا الأمل وجدته يتبخر، تدفعني قوة ما أن انسحب مؤقتا من هذه الحالة حتى أستطيع أن أراك ونتدبر طريقة نبحث بها عنه.

كنا نتبادل العتاب تقريبا، أعاتبه إنه قد تحرك بدون النبي، وهو يعلم كم التوتر الذي يصاحب رحيلهما للإسكندرية، ويعاتبني على تركي للتابعي في حضرة الرجلين الأمنيين الذين لم نكن نحتاج دليلا إضافيا لحرصهما على اصطياد الرجل بعد الحلقة الأخيرة.

قصصت عليه ما حدث معي بعد إطلالته الأخيرة، وسفري الذي لم يأتِ بأي فائدة فلا يُعرف أين الرجل، والتابعي بدوره لم يظهر، فقط لمست أمانا كاملا من أسرة نور الدين التي وإن أعلنت لي أنهم لا يعرفون شيئا عنه منذ فترة، وإن كنت لم أقتنع.

ألقيت القصة كلها في حضن مقدم الحلقات الشهير، استنادا على كم معارفه واتصالاته، فربما منحنا ما يشفي فضولنا الباحث عن الرجل في هذا الكم من المتاهة. للآن لم يحدثني عن جديد يخص قصتنا. لكن مازال الأمل حاضرا أن نجد إجابة للسؤال الأهم.. أين النبي الآن؟

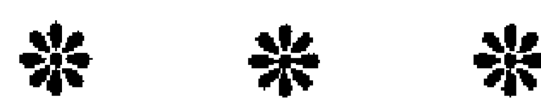
لم يكن سهلا الإتيان بتصرف صبياني يدفعنا لتحرير محضر لدى الشرطة؛ كي نبرر لأنفسنا اختفاءه، ونعرف الحقيقة، ليقين بداخلنا لا يهتز أن الرجل مؤكد في أمانات الشرطة، وفي جهة أمنية رفيعة المستوى أو تكاد.

كنا نموت يوميا وفي كل لحظة تقريبا. استنفد صاحبي مثلي تماما كل السبل التي تمنحنا ما يطمئن.

كانت الإشارة لزوال أثره من مواقع التواصل الاجتماعي قاتلة بالنسبة لمحمد عثمان الذي لم يكن يعرف هذه المسألة، الغريب أن النبي نفسه لم يقل هذه الحقيقة له في طريقهما للإسكندرية. رغم معرفتي لهذه الحقيقة، من قبل الحلقة الأخيرة بيوم على الراجح.

كنا نتآمر على الأمن؛ كي نستطيع تهريب الرجل من أيديهم، لكنهم ربما بادلونا المؤامرة بمؤامرة أقوى، صدروا لنا إنهم قد شربوها، ولكنهم كانوا بالتوازي يضعون محمد عثمان وصاحبه في دائرة كنترول واسع، فبمجرد نزوله، تم اقتياد الرجل خارج القطار وهبط مع الزبانية، وساعتها بدأت رحلة النسيان بالنسبة له. وربما هو تحت أيديهم الآن.

كان اليأس شاخصا بعنف من ملامح صاحبي الذي بمجرد أن هبط إلى الشارع، حتى وجدته يبكي بمرارة. مؤكد كنت أخدع نفسي ببعض الأمل حين دعوته لأن نذهب من جديد للإسكندرية للبحث مجددا عنه أو التابعي على الأقل. فلعله يعرف شيئا.



كانت الرحلة هذه المرة بلا طعمها القديم الذي كنا نشعر به في المرات التي ذهبنا فيها للقاء النبي لأول مرة، ذهبنا لأهله الذي بدوا لنا معتادين على غيابه الطويل، تراوحت ردود الفعل بين الطمأنينة والقلق الخفيف، وإن ظلت شقيقته التي التقينا بها في بيتها الذي

يعطي دلالة واضحة على ثراء عريض. هي أكثر من وجدناه قلقا في حزن، ويعتريها خوف ربما من الطريقة التي نسأل بها عنه، واضطرابنا الذي فشلنا في مداراته؛ كي لا تفهم أن في الأمر ثمة خطر يحيط بشقيقها.

تحولت اهتماماتنا لناحية التابعي، ربما لم احتفظ بذكرى عنوان بيته من المرة الأولى، واعتمدنا على كرم صديق له من رواد المقهى الذي عرفوا من خلاله النبي، وفي سؤال عابر وعارض سألنا عن النبي مجددا، ولكنهم أجمعوا على اختفاءه. وصلنا لبيت التابعي، وللمرة الثانية بدا التوتر على وجه أمه والتي لم تستطع إنكار وجوده، رغم كون ملامحها كانت مهيأة لأن تعلنها لنا، لأن بمجرد ظهورنا عند الباب كان التابعي نفسه يقفز من مكانه ليزيح أمه من المشهد، ويدخلنا للشقة يرحب بنا، والغريب، يسألنا إذا كنا نملك أخبارا جديدة عن النبي وأين هو؟

كان سؤاله محبطا لنا، فلقد جئنا إليه؛ كي يقول لنا الإجابة التي يتمناها، لكن الحقيقة أنه لا يعرف مصير نبيه، وأخذه الأمل أن نكون هنا؛ كي نعطيه رسالة من الرجل الذي أحبه وشاركه الكارثة التي صاغوها كأروع ما يكون، ولكنها تنتهي الآن في جو تراجيدي بائس.

بعد جلسة نمطية، يغطي تفاصيلها الحيرة، لم تنته الزيارة بشكل تقليدي، فمنذ عرفنا هذا الثالوث، النبي وجناحاه، ليس سهلا الرهان على الخواتيم، فلقد عرفنا ونحن شبه غائبين عن الوعي أن هذه الليلة هي الأولى له مع والدته منذ تركته يومها مع الرجلين

الأمنيين، في الشقة القاهرية التي مكث فيها مع نبيه. كان ضروريا أن أسأله أين كنت طوال هذه المدة؟ وما أن أنهيت السؤال حتى انفجر محمد عثمان في هسترية من الضحك وقال في عارض من هذيان: وهل هذا سؤال يا رجل.. هل تريد يقينا أن تعرف أين كان هذه المدة؟؟

ربما شعرت بسذاجتي فعلا، حتى التابعي لم يشأ أن يسهب أو يشرح، فمقتضى الحال يقول ما حدث، أو للصدق كان الشاب مهزوزا جدا، وربما لا يريد أن يكرر التفاصيل، لأن صورته وملامحه كانت تقول كل شيء، نحن فقط كان ينقصنا التركيز، نهتم بالسؤال على النبي، دون مشاهدة ذاك الرعب الذي يقفز من عين أهم واحدٍ من أتباعه.

عدنا للقاهرة، لا ندري كم من مرَّة عدنا للقاهرة بعد زيارة للإسكندرية، نطرح نفس السؤال، ونسمع نفس الإجابة، عام، عامان، ثلاثة. ربما اعترانا اليأس، أو استسلمت أنا بشكل شخصي لأن أنفذ وصية الرجل حين طلبها مني صريحة: لا تهتم كثيرا بمآلي، عش حياتك ولا تفكر في أمري.

تقطعت السبل بيني وبين محمد عثمان، طالت المسافات التي كنا نلتقي فيها مع بعضنا البعض، وفي كل لقاء كانت مشاعر التخلي والإهمال أو عدم التركيز في تأمين الرجل لآخر لحظة تطاردنا كالمسّ. قرأنا أوراقه لم نجد اختلافا كبيرا عن كل كلمة قالها، كان يوثق حياته ويومياته. كانت الحقيقة إنه مأزوم بشكل مرعب، غريب في أرض لم تجد ما يدفعها لأن تحتفل به.

في كل مرة كنا نسافر للإسكندرية نلتمس هذا الرجل ونسأل عنه، رغم استحكام اليأس علينا نسمع تفسيرا مختلفا حيال مشكل اختفاءه. أو حول الشابين الذين ظلا بجواره لآخر لحظة.. التابعي في ذات الدنيا، ونور الدين قد رحل ولا ندري كيف امتلك أدوات هذا الرحيل لأرض الحلم الأمريكي.

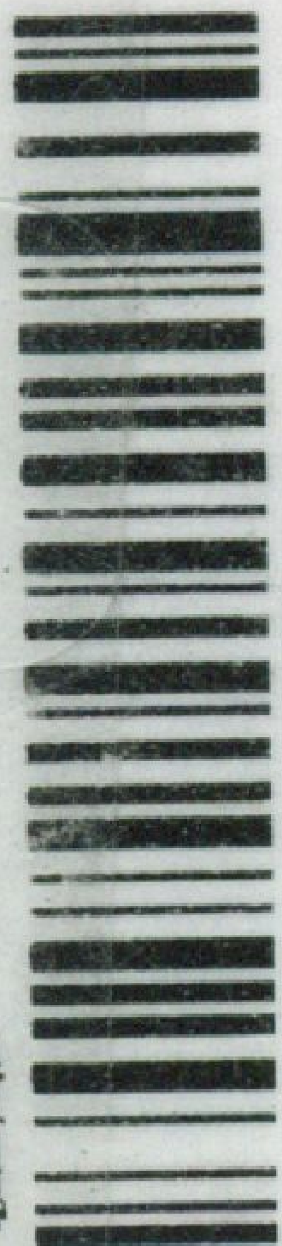
حاولت أن أنساه فعلا، وأدخل لدوامة القاهرة التي ما ربطه بها أي ود، أنجح أحيانا وأفشل أحيانا كثيرة. لكن لم أنس للحظة يوم ربت على كتفي في أمسية قاهرية، وقال من أعمق جزء في قلبه: أن أُدفن في التراب فذلك هين، لكن لا أتمنى أن أدخل لقبر نسيانك.. عش؛ كي تحكي للناس كم كنت أحبهم وأشفق عليهم، وأموت في كل لحظة من فرط خوفي أن لا يأتي يوم يتحقق فيه خلاصهم.

(تمت)



الأمور التي نجهلها تتحكم فينا، على عكس ما نتخيل .. نحن ضحايا الأشياء التي قلنا أنها غير موجودة ، والأشياء التي قلنا أن ليس لها أهمية .. الأمور التي نشعر بها بقوة، ولا نستطيع لمسها أو التعرف على شكلها .. أوليس غريباً أن الحب أكبر شعور عذب البشر، بالرغم من كونه شعوراً جميلاً !

في هذه الرواية، الأشخاص سيكونون ضحية شيء يجهلونه .. مثلاً كأن يقابلوا شخصاً يدعي النبوة، ولا يستطيعون التفوق عليه في مناظرة؛ نظراً لقوة حجته وضعف حجتهم ! تَخيَّل لو قابلت شخصاً أقنعك بأنه ميت، وأنك تتحدث إلى انعكاس له في عقلك الباطن .. لكن عندما تصافحه، تشعر بحرارة جسده، وطراوة بشرته ! إنها تلك الأشياء المثيرة .. والتي تنبش في أغوار النفس، وتغير نظرتك للأمور، وتدعوك للتفكر .. رواية غير عادية، لكاتب عرف كيف يخاطب العقل، ويترك خلفه أثراً لا يُنسى.



غلاف: عبد...


ISBN 978-977-6426-81-8
9 789776 426818

